

لليوون دي بوفوار

الجنس الآخر

ترجمة ، ندى حداد مراجعة وتدقيق، إيمان المفربي



مقدمة المترجم

يقول «جول لافورغ»: «لا تربطنا بالمرأة أبداً رابطة الأخوة، فقد جعلنا منها، بالخمول والفساد، كاثناً منعزلاً ليس له من سلاح سوى سحره الجنسي».

الواقع أن الرجال والنساء ليسوا راضين عن بعضهم بعضاً في يومنا هذا. ولكن المسألة هي أن نعلم فيها إذا كانت هناك لعنة أصلية تحكم عليهم بالتخاصم والتنازع أو أن الخصومات التي تفرق بينهم لا تعبر إلا عن لحظة انتقالية في التاريخ الإنساني.

لقد رأينا، رغم ما جاء في الأساطير، أن ليس هناك سبب فيزيولوجي يفرض على الذكر والأنثى العداء الدائم لأنها من جنسين متهايزين. إن الإنسانية ليست نوعاً، بل هي صبرورة تاريخية. ومهما يكن سوء النية كبيراً فمن المستحيل اكتشاف خصومة ذات طبيعة فيزيولوجية بين الأنثى والذكر البشريين. لذلك يعمد بعضهم إلى اعتبار وجود هذا النزاع في ميدان متوسط بين البيولوجيا وعلم النفس أي ميدان التحلل النفسي «فرويد»، ولكننا بينا أن المأساة لا تجري على الصعيد الجنسي ولم يبد لنا قط أن الغريزة الجنسية تحدد مصيراً إنسانياً وأنها تقدم بذاتها مفتاحاً يفسر السلوك البشري.

إن المجتمع الذي وضع الرجل تشريعاته وقيمه يعتبر المرأة أقل من الرجل. ولا تستطيع المرأة إلغاء هذا النص إلا بتحطيم تفوق الرجل، لذلك تحاول أن تسيطر عليه وأن تناقضه وأن تنكر حقيقته وقيمه. إنها بذلك لا تفعل سوى الدفاع عن نفسها. هذا النقص لا ينجم عن جوهر ثابت أو قدر سيئ، بل هو مفروض على المرأة فرضاً. وإن كل اضطهاد يخلق حالة نزاع. والكائن الذي تُنتزع منه صفة الجوهر لتلصق به صفة التبعية والإلحاق لا بدأن يحاول استرجاء سيادته.

أما اليوم فتأخذ المعركة شكلاً آخر. فالمرأة لم تعد تحاول جر الرجل إلى الجمود، بل تحاول الهروب إلى عالم الارتقاء والسمو. ولكن يطيب للرجل أن يبقى السيد المطلق والكائن المنفرد بالجوهر ويرفض أن يعتبر رفيقته مساوية له.

لم تعد المعركة إذن بين أفراد ينحبس كل منهم في نطاقه، بل إن هناك طبقة ذات مطاليب تهب إلى النضال فتنتصر عليها الطبقة ذات الامتياز. نحن الآن أمام حريتين نزاعتين إلى السمو والارتقاء يسود بينهما الخصام بدل التعارف والوئام.

تحاول المرأة «الأنثى» بجعل نفسها متاعاً وفريسة سلبية، أن تقيد الرجل بالرغبة التي تثيرها في نفسه. وعلى العكس من ذلك ترفض المرأة «المتحررة» السلبية التي يدعي الرجل فرضها عليها. ولكن المرأة «الحديثة» تقبل قيم الذكور وتؤكد نفسها كمثيلة لهم.

إن هذا المطلب مشروع ما دام يُعبر عنه بتصرفات ملموسة. إلا أن كثيراً من النساء اللواتي يردن أن يثبتن بنجاحاتهن أنهن مثل الرجل، ينشدن تأييد الرجل عن طريق الجنس، إنهن يلعبن ضمن إطارين: فهن يطالبن بالاحترام التقليدي، وباعتبار جديد أيضاً، معولات على سحرهن القديم وحقوقهن الجديدة ولكن الرجل أيضاً لا يخلو من مثل هذا الازدواج. والحقيقة أن الصراع بين الرجل والمرأة لا يمكن أن يكون واضح المعالم لأن المرأة لا تنتصب أمام الرجل على اعتبار أنها شخص ولكنها كمتاع، كشيء له حياته الشخصية.

وسيدوم النزاع طالما لا يعترف أحدهما أنه شبيه الآخر ونظيره. وإذا كان من الصعب تحطيم الحلقة الفاسدة والدوامة الفارغة، فذلك لأن كل من الجنسين هو في الوقت نفسه ضحية الجنس الآخر وضحية نفسه. وليس من الصعب إحلال الاتفاق بين خصمين يتنازعان في حريتهما الصرفة ولا سيما أن هذا النزاع لا يفيد أحداً. إلا أن تعقيد هذه القضية ناشئ عن أن كل فريق هو في الوقت نفسه شريك خصمه ..

لقد رأينا لماذا استعبد الرجال النساء في الأصل، لقد كان انخفاض قيمة الأنوثة مرحلة ضرورية في التطور البشري؛ ولكن كان بالإمكان أن يسود التعاون بين الجنسين. إن الاضطهاد يفسر بنزعة الكائن إلى الهروب من ذاته والتخلي عن نفسه للآخر في سبيل هذه الغاية، وحتى هذا اليوم توجد هذه النزعة عند كل الرجال.

إذا ما حررنا المرأة فإننا نحرر الرجل، ولكنه يخشى ذلك بالذات ويصر على التعميات التي تستهدف إبقاء امرأة في الأغلال. وقد رأينا كيف يجري إخفاء قيود الأعباء المنزلية المملة تحت ستار شعري، بل إن هناك رجالاً كثيرين يحاولون إقناع أنفسهم أن المرأة تتمتع بامتيازات. والحقيقة أن المرأة تتمتع بامتياز عدم المسؤولية. وقد رأينا أن تربية المرأة يُقصد منها سد طريق الثورة أمامها، وأن المجتمع كله يكذب عليها إذ يتغنى بقيم الحب والتضحية؛ وهي نفسها ترضى بهذا الكذب، لأنه يدعو إلى انتهاج طريق السهولة. وتخطئ المرأة خطأ كبيراً إذ تخضع للإغراء، ولكن الرجل هو آخر من يحق له أن يأخذ ذلك عليها، لأنه هو نفسه الذي يغويها. إن كلاً من الجنسين يعتقد أنه يبرر نفسه حين يعمد إلى الهجوم، إلا أن أخطاء أحدهما لا تبرئ الآخر.

لا يجري التبادل في علاقتها بين غرضين لها الكيفية نفسها؛ ويبرز عدم التساوي هذا في أن الوقت الذي يقضيانه معاً ليس له نفس القيمة بالنسبة إلى الشريكين. فالرجل لديه دائماً شيء آخر يعمله. أما المرأة فتحاول التخلص من وقتها. ولكن يستحيل تحقيق العدالة في كنف اللاعدالة: وفي الحياة كثيراً من الأحوال التي ليس لها حل مرض لأنها تتعين بشروط هي ذاته غير مرضية وإن البلاء ناجم عن وضع يصبح أمامه المسلك الفردي عاجزاً كل العجز فلنسمح للنساء بكيان مستقل وليصبح بإمكانهن النضال في الحياة لينتزعن معيشتهن، كي تلغى تبعيتهن وتبعية الرجل أيضاً.

ولا ينبغي الاعتقاد أن من الكافي تعديل وضع المرأة الاقتصادي كي تتغير. هذا العامل كان ولا يزال العامل الأساسي في تطورها، ولكن طالما لم تنجم عنه النتائج الأخلاقية والاجتهاعية والثقافية التي يبشر بها، فلا يمكن للمرأة الجديدة أن تظهر، ولكن إذا افترضنا مجتمعاً تتحقق فيه مساواة الجنسين تحققاً ملموساً فإن هذه المساواة تتأكد في كل فرد.

إن عداء الذكور لا يبدو كامتياز الأمراء إلا في كنف نظام يتآمر بمجموعه ليثبت سيادة الذكور. والحقيقة أن الرجل مثل المرأة مكون من جسد، أي أن له صفة السلبية وأنه يتأثر بالنوع ويخضع للشهوة. وليس من شك في أننا إذا أبقينا طبقة ما في حالة النقص بقيت ناقصة؛ إلا أن الحرية تستطيع تحطيم هذه القيود. فلنعط المرأة مسؤوليات فإنها تنهض بها. وإن الأحوال الجديدة تنشأ أحياناً من ثورة المضطهدين وأحياناً من تطور الطبقة ذات الامتياز. هكذا اضطر الرجال في مصلحتهم بالذات، أن يجرروا المرأة تحريراً جزئياً.

وعلى كل حال سيبقى دائهاً بين الرجل والمرأة بعض الفروق. فعالم المرأة الجنسي، لما له من وجه خاص، لا بد أنه سيُحدث لديها حساسية خاصة. وإن علاقاتها بجسمها وبجسم الذكر وبالطفل لن تصبح أبداً مطابقة تمام التطابق لعلاقات الرجل بجسمه وجسم الأنثى وبالطفل.

إن تحرير المرأة يعني رفض تقييدها بالعلاقات التي تقيمها مع الرجل، ولكن لا يعني أبداً إنكار هذه العلاقات. ولن تحذف علاقاتها المتبادلة الأعاجيب التي يحدثها انقسام الكائنات البشرية إلى فئتين منفصلتين (الرغبة، الامتلاك، الحب، الحلم، المغامرة)؛ بل على العكس، حينها يلغى استعباد نصف الإنسانية وكل مجموعة الرياء الناجمة عنه ستُظهر الإنسانية مغزاه الصحيح وسيرى الزوج البشري وجهه الحقيقي.

مُعْتَكُمُّتُهُ

ترددت طويلاً قبل أن أُقدم على تأليف كتاب حول المرأة؛ صحيح أن الموضوع مثير، خاصة بالنسبة إلى النساء، إلا أنه ليس بالجديد.

وعلى كل حال، هل هناك مشكلة؟ وما هي؟ بل هل هناك نساء؟ يقال لنا: «الأنوثة في خطر» ويحثوننا قائلين: «كنّ نساء ... أبْقَيْن نساء». فكأنها كل كائن إنساني مؤنث ليس امرأة بالضرورة بل ينبغي له أن يساهم بهذا الواقع الخفي الذي هو الأنوثة. وهل تتكفل المبيضات بإفراز الأنوثة أم أن هذه تكمن في سهاء أفلاطونية؟

في عهد القديس توماس كانت المرأة تبدو كجوهر تحدد خصائصه كما تحدد خصائصه كما تحدد خصائص ومزايا نبات الخشخاش. إلا أن هذا المذهب الفكري فَقَدَ من نفوذه لأن العلوم البيولوجية والاجتماعية لم تعد تقر بوجود جوهر جامد ثابت يحدد نهاذج معينة كالمرأة واليهودي والزنجي.

إن موقف التحدي الذي تقفه النساء الأميركيات يثبت أن شعور الأنوثة يطغى عليهن. والحقيقة أنه يكفي إلقاء نظرة للتأكد من أن الإنسانية تنقسم إلى فئتين تتهايزان باللباس والوجه والجسم والابتسامة والمشي والاهتهام والمشاغل تمايزاً واضحاً، وقد تكون هذه الفوارق سطحية وذاهبة إلى الزوال. إنها الأكيد أنها موجودة في الوقت الحالي بكل وضوح.

إذا كانت الأنوثة وحدها لا تكفي لتعريف المرأة، ورفضنا أيضاً أن نفسرها بمفهوم «المرأة الخالدة» وبالتالي إذا كنا، نسلم ولو بصورة مؤقتة، أن هناك نساء على الأرض، فعلينا حينئذ أن نتساءل ما هي المرأة؟ إن الرجل يعتبِر جسمه كما لو كان كائناً مستقلاً يتصل مع العالم اتصالاً حراً خاضعاً لإرادته هو ... بينها يعتبِر جسم المرأة شيئاً حافلاً بالقيود التي تعرقل حركة صاحبته. ألم يقل أفلاطون: «الأنثى هي أنثى بسبب نقص في الصفات»!

إن الإنسانية في عُرف الرجل شيء مذكر فهو يعتبر نفسه يمثل الجنس الإنساني الحقيقي ... أما المرأة فهي في عُرفه تمثل الجنس «الآخر».

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: كيف تمكن أحد الجنسين فقط من فرض نفسه كجوهر وحيد، منكِراً وجود كل نسبيةِ تربطه بالجنس الآخر، معرِّفاً إياه بأنه الآخر الصرف. ومن أين أتى للمرأة هذا الرضوخ؟

هناك حالات أخرى ترينا تمكن فئة من التحكم بفئة أخرى خلال فترة من الزمن. كان هذا الامتياز ناجماً في الغالب عن تمايز العدد فتفرض الأكثرية قانونها على الأقلية وتضطهدها. إلا أن النساء لسن أقلية، فضلاً عن أن هذا التسلط له بداية تاريخية معروفة. فمثلاً لم يكن هناك بروليتاريا مضطهدة على حين كان هناك دائماً نساء. إنهن نساء بتكوينهن الفيزيولوجي. ومهما أوغلنا في التاريخ القديم نرى النساء مُلْحَقات بالرجال. هذه التبعية ليست نتيجة حادث تاريخي وليست بالأمر الطارئ؛ مما يجعل من المرأة الجنس الآخر بصورة مطلقة.

إن نضال المرأة لم يكن قط إلا نضالاً رمزياً. ولم تفز إلا بها أراد الرجل التنازل عنه. لم تأخذ شيئاً أبداً بل تسلمت ما أعطي إليها.

لا تستطيع المرأة حتى في الحلم إزالة الذكور. فالعلاقة التي تربطها بمضطهديها لا مثيل لها. ذلك أن انقسام الجنس هو في الواقع شيء عضوي محسوس وليس مرحلة من تاريخ البشر. إن ما يميز المرأة بصورة أساسية هو كونها الجنس الآخر ضمن وحدة ذات حدين متلازمين.

قد يُخيّل إلينا أن هذه العلاقة المتبادلة قد ساعدت على تحرير المرأة. والحقيقة أن الحاجة البيولوجية التي تجعل الذكر مقيداً بالأنثى لم تحرر المرأة اجتماعياً. وإذا كان إلحاح الحاجة متساوياً عند الطرفين فإنه يتدخل دائماً في صالح المضطهدين ضد المضطهدين.

إلى جانب ميل المرء إلى تأكيد نفسه كشخص، هناك ميل إلى الهروب من حريته وتحويل نفسه إلى غرض أو إلى متاع. إن هذه الطريق، طريق وخيمة، لأن المرء السلبي الذي يعيش في ضياع، يصبح فريسة لإرادة الآخرين، عاجزاً عن إغناء ذاته، محروماً من كل القيم. ولكنها طريق سهلة لأنها تجنب المرء الحيرة والمسؤولية. لذلك يَلقي الرجل الذي يجعل من المرأة «الجنس الآخر» استعداداً عميقاً من جانبها يساعده في مهمته.

هكذا لا تطلب المرأة لنفسها صفة الشخص الذي يؤكد ذاته، لأنها محرومة من الوسائل الملموسة؛ ولأنها تحس بالعلاقة الضرورية التي تربطها بالرجل دون أن تعتبرها علاقة متبادلة؛ ولأنها تقنع غالباً بدورها كـ «جنس آخر».

حينئذ يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: كيف ابتدأت هذه القصة كلها؟ من المفهوم أن يتحول ازدواج الجنس (كأي ازدواج) إلى نزاع. ومن المفهوم أنه إذا نجح أحد الطرفين في فرض تفوقه فإن هذا التفوق يميل إلى تأكيد نفسه تأكيداً مطلقاً. ولكن ينبغي لنا أن نشرح لماذا كان الرجل هو الرابح في البداية؟ لماذا كان هذا العالم دائماً تابعاً للرجال، ولماذا لم تأخذ الأشياء في التبدل إلا في هذه الأيام فقط؟ هل هذا التبدل شيء حسن؟ وهل سيقسم العالم تقسمياً عادلاً بين الرجال والنساء؟

هذه الأسئلة ليست بالجديدة؛ وقد لقيت أجوبة عديدة. إلا أن مجرد اعتبار المرأة الجنس الآخر» يُخرج كل التبريرات التي يقدمها الرجال لأنها كانت مستوحاة من مصالحهم.

قال أحد أنصار المرأة المغمورين: «كل ما كُتب عن المرأة من قِبَل الرجال يجب أن يثير الشبهات لأنهم خصوم وحُكّام في الوقت ذاته. وقد سخّروا اللاهوت والفلسفة والقوانين لخدمة مصالحهم».

وفي القرن الثامن عشر فقط أخذ بعض الرجال المشبعين حقاً بالديمقراطية يواجهون المسألة بصورة موضوعية.

إن الفئة المهيمنة تحاول أن تُبقي المرأة في المكان الذي تخصصه لها وتستقي الحجج من الوضع الذي خلقته هذه الفئة نفسها، وهذا يذكرنا بقول «برناردشو» في الزنوج: «إن الأميركي الأبيض يهبط بالزنجي إلى مستوى ماسح الأحذية ليستنتج من ذلك أن الزنجي ليس صالحاً سوى لمسح الأحذية». نعم إن النساء هن غالباً في يومنا هذا أقل مكانةً من الرجال بمعنى أن وضعهن لا يفسح لهن إلا مجالات أضيق. والمسألة هي أن نعرف فيها إذا كانت هذه الحال ستدوم؟

لا شك في أن كثيرين من الرجال يتمنون ذلك وكلهم لم يلقي السلاح بعد. فالبورجوازية ما زالت ترى في تحرير المرأة خطراً يهدد مفاهيمها الخلقية ومصالحها. وبعض الرجال يخشون منافسة المرأة، والمصالح الاقتصادية ليست وحدها في الميدان؛ لأن من محاسن وضع المضطهدين أن أبسطهم يظن نفسه من طينة أخرى. فكان أسهل على الكاتب الفرنسي «مونترلان» أن يحسب نفسه بطلاً وهو يقارن نفسه مع نساء «اختارهن هو نفسه» .. من أن يقارن نفسه وهو يأخذ دوره كرجل، مع بقية الرجال. مع العلم أن بعض النساء فقنه في القيام بهذا الدور. وها هو ذا «كلود مورياك» يكتب بخصوص النساء «نحن نصغي بلا مبالاة مهذبة لأذكى النساء ونحن نعلم جيداً أن فكرها يعكس بصورة متايزة الوضوح الأفكار التي تصدر عنا نحن معشر الرجال». على كل حال إن المرأة التي يتحدث عنها لا تعكس أفكاره لأنه معروف بنضوب فكره ولعله يحتاج إلى أن يعكس هو نفسه أفكار كبار الفلاسفة وهو يتحدث.

إن المسألة النسائية استحالت إلى نزاع وخصام نتيجة لوقاحة الرجال. والإنسان حين يتخاصم يفقد مَلكَة المحاكمة. وإذا أردنا حقاً أن نسلط النور على المسألة فينبغي لنا أن نطرح كل المفاهيم المبهمة كالتفوق والمساواة والنقص وأن تنطلق من جديد.

لكن كيف نطرح المسألة إذن؟ بل من نحن حتى نطرحها؟ فالرجال هم خصوم وحكام. والنساء أيضاً هن كذلك، فأين نجد ملاكاً يقوم بالمهمة؟ إنني أظن مع ذلك أن بعض النساء هن أحسن من يستطيع توضيح وضع المرأة، فلقد حظيت نساء كثيرات في يومنا هذا بالتمتع بمزايا الكائن الإنساني مما يجعلهن غير مغرضات، والواقع أن عدم التحيز هذا يشكّل حاجة بالنسبة إلى النساء ونحن النساء نعرف خيراً من الرجال عالم المرأة لأننا مرتبطات الجذور به، ونحن أقدر على إدراك ما معنى أن يكون الكائن الإنساني «امرأة».

إن المسألة التالية هي بالنسبة إلينا كبيرة الأهمية: أي تأثير في حياتنا نجم عن كوننا نساء؟ ما هي الإمكانيات التي أُعطيت إلينا والتي مُنعت عنا؟ أي مصير يمكن لأخواتنا الصغيرات انتظاره وفي أي اتجاه يجب توجيههن؟

مما يلفت النظر أن مجموع الكتابات النسائية مفعمة في هذه الأيام بجهد للتوضيح هو أكثر من الرغبة في المطالبة. وهكذا يجب أن يُعتبر هذا الكتاب محاولة من مجموع المحاولات لتوضيح الأمور.

إلا أنه من المستحيل، دون شك، البحث في أي مشكلة إنسانية بصورة مجردة عن التحيز فإن طريقة وضع الأسئلة، ووجهات النظر المتبناة، تفترض مجموعة متباينة من المصالح.

وبدل أن نحاول إخفاء المبادئ المفترضة بدرجات متباينة الوضوح، يجدر بنا أن نبدأ بوضعها وإرسائها. إننا بذلك لا نجد أنفسنا مضطرين إلى توضيح نوايانا في كل صفحة وما نقصده من كلمات أمثال: أعلى، أدنى، أحسن، أسوأ، تطور، تقهقر.

نحن نعتقد أن الصالح العام غير موجود إلا إذا كان هذا الصالح يضمن الصالح الخاص للمواطنين. ولا نحكم على المؤسسات والنظم إلا من خلال الإمكانيات الملموسة المتيسرة للأفراد. على أننا لا نخلط بين مفهوم الصالح الخاص ومفهوم السعادة. هذه نقطة أخرى تعترض سبيلنا غالباً؛ أليست النساء اللواتي يؤلفن الحريم أسعد من النساء العصريات المتمتعات بحق الانتخاب؟ إننا، لذلك لن نعتمد أبداً على مفهوم السعاة بل سنتبنى وجهة نظر الأخلاق الوجودية.

كل شخص يعمل على تأكيد نفسه تأكيداً فعلياً ملموساً من خلال المشاريع والأهداف، ولا يحقق حريته إلا بارتقاء مستمر وتسام مضطرد نحو مستويات أخرى. ولا يمكن تبرير الوجود الحالي إلا بالتفتح نحو مستقبل ممهد السبيل تمهيداً مطلقاً، وكلما تحول الارتقاء إلى جمود سار الوجود نحو الانحطاط. إن هذا الانحدار يشكل خطيئة أخلاقية إذا ما رضي به المرء. أما إذا فرض عليه فرضاً أصبح ذلك اضطهاداً. وفي كلا الحالتين يكمن الشر المطلق. أجل إن كل فرد رائده تبرير وجوده لأنه يحس بهذا الوجود كحاجة لا متناهية إلى التسامى.

والمرأة تُعرَّف بأنها كائن إنساني وحرية مستقلة. وهي تكتشف نفسها وتصطفي ذ_{اتها} في عالم حرص الرجال فيه أن تلعب دور «الجنس الآخر» دور الغرض والمتاع.

إن مأساة المرأة تكمن في هذا النزاع القائم بين المطلب الأساسي لكل شخص ينصّب نفسه دائهاً في مقام الجوهر وبين متطلبات وضع يجعل منها لا جوهراً. فكيف يمكن إذن، للكائن الإنسان، في ظروف مثل ظروف المرأة، أن يستكمل ذاته؟ وما هي الطرق المفتوحة أمامه؟ أيها لا تؤدي إلى نتيجة؟ أي ظروف تحد من حرية المرأة وهل في الإمكان مجاوزتها؟ هذه أسئلة أساسية سنبذل جهدنا آملين توضيحها. وإننا إذ نهتم بإمكانيات الشخص، لا نحدد هذه الإمكانيات بتعابير السعادة بل بتعابير الحرية.

سيمون دي بوفوار



الفَطَيْلُ الْأَوْلِ

مبادئ علم الحياة

يقول هواة العبارات السهلة: ما هي المرأة؟ هذا شيء بسيط. إنها رحمٌ ومبيض؛ فإنها أنثى وهذه الكلمة تكفي لتعريفها. ويلوك الرجل كلمة «أنثى» كها لو كانت إهانة؛ ومع ذلك فهو لا يحس بأي خجل من حيوانيته، بل يبدو، على العكس فخوراً إذا قيل عنه: "إنه ذكر». وليست كلمة «أنثى» مستقبحة لأنها تربط المرأة بالطبيعة وإنها لأنها تقيدها بحدود جنسها. ولئن كان هذا الجنس يبدو للرجل أهلاً للاحتقار فمرجع ذلك إلى اضطراب الخصومة التي تخلقها المرأة في نفسه؛ إلا أنه يريد أن يرى في علم الحياة تبريراً لهذا الإحساس.

إذا أردنا الابتعاد عن الأفكار المعادة فإن هناك شُؤالين يظهران أمامنا:

1- ماذا تمثل الأنثى في مملكة الحيوان؟

2- أي نوع خاص من الأنثى يتحقق في المرأة؟

* * *

الذكر والأنثى هما نموذجان من الأشخاص يتمايزان نوعياً بالتعاون في سبيل التكاثر؛ ولا يمكن تعريفهما إلا بالترابط. بيد أنه يجب أن نلاحظ أولاً أن مدلول انقسام الأنواع إلى جنسين ليس واضحاً. ففي عالم الحيوان نجد أن في وحيدات الخلية كالأميبا تنفصل عملية التكاثر عن العملية الجنسية انفصالاً تاماً، كما أن منها ما يتكاثر بالانقطاع.

إن انقسام النوع إلى جنسين قد اعتبر أمراً مفروغاً منه من قبل أكثر الفلسفات إلا أن هذه الفلسفات لم تتمكن من تفسيره. أما بخصوص دور كل من الجنسين فهناك اختلاف في الآراء. كانت هذه الآراء في البداية خالية من كل أساس علمي ولا تعكس سوى تصورات اجتهاعية. فخلال زمن طويل اعتقد الناس أن الأب ليس له أي دور في عملية الحمل. وأن روح الأجداد تدخل إلى بطن الأم بصورة بذرة حية. وحين حل النظام الأبوي أخذ الذكر يتمسك بذريته. ولما لم يكن بالإمكان إهمال كل دور للأم في التوالد فقد اعتبر أنها تحمل وتغذي البذرة الحية التي يقذفها الأب فقط. وحتى لما تم اكتشاف دور البويضة الإيجابي فقد حاول الرجال أن يقابلوا بين رداءة وسكون البويضة ونشاط وحيوية الحيوان المنوي. إلا أن هناك اتجاهاً جديداً معاكساً يحاول أن يثبت أن دور الذكر لا يتعدى دور المؤثر الفيزيائي الكيميائي.

إننا نطرح جانباً كل معتقد سابق للتجربة وكل نظرية عشوائية. نأمل استخلاص المغزى من فحص الواقع الملموس. وحينئذ قد يتكشف لنا مضمن كلمة «أنثى».

ليست غايتنا عرض فلسفة في الحياة ولسنا نريد التسرع في اتخاذ موقف في النزاع القائم بين المذهبين: الغائي والآلي. ودون أن نتخذ أي قرار بخصوص العلاقة بين الحياة والشعور، يمكننا أن نؤكد أن وراء كل وظيفة مشروعاً وهدفاً.

تتعاون الأعضاء المذكرة والمؤنثة، لدى أغلب الأنواع، في سبيل التوالد. وهناك تياران خاطئان: يقول الأول بسلبية الأنثى، والحقيقة أن الشرارة الحية تنبثق من التقاء الخليتين المولدتين. أما التيار الثاني فيناقض الأول، رغم تعايشها معاً أكثر الأحيان، ويقول بأن دوام النوع تؤمنه الأنثى أما المبدأ الذكر فليس له سوى ظهور انفجاري، وعارض. والحقيقة أن الرشيم يخلد بذرة الأب وبذرة الأم ينقلها إلى الذرية بصورة ذكر أحياناً وصورة أنثى أحياناً أخرى. إن الخليتين المذكرة والمؤنثة المولدتين تتحدان معاً وتذوب فرديتها في عملية التهازج.

بلغ الشطط في بعضهم أنهم استنتجوا من وضع البويضة مكان المرأة في البيت، فقد أوحى «ألفريد فوييه» بإمكان تعريف المرأة كلها اعتباراً من البويضة، وتعريف الرجل اعتباراً من الحيوان المنوي.

إن العضوين المذكر والمؤنث اللذين يتوزعان بصورة متساوية في الجنسين ويتطوران تطوراً متهاثلاً اعتباراً من جذور واحدة، يبدوان متناظرين تمام التناظر بعد انتهاء تكوينها. وكلاهما يتميز بوجود غدد منتجة للخلايا المولدة. وفي الحالة الساكنة يبدو الذكر والأنثى متكاملين ولا يمكن إدراك فرديتها الخاصة إلا من الناحية الوظائفية.

إن التكاثر في الأشكال العليا من الحياة يصبح إنتاجاً لأعضاء متهايزة، ويأخذ وجهاً مزدوجاً: يحافظ على بقاء النوع ويخلق مخلوقات جديدة: هذه الناحية التجديدية تتأكد بتأكيد الفردية. وعند الحيوانات الثديية، تأخذ الحياة أشكالاً أكثر تعقيداً وفردية وحينئذ يتحقق الانفصال إلى جنسين بصورة نهائية. على أن المرأة رغم مساهمتها مساهمة إيجابية في التوالد، تتلقى البذرة من الرجل الذي يضعها.

إن هذه المعطيات البيولوجية ذات أهمية كبرى فهل تلعب في تاريخ المرأة دوراً أولياً وتشكل عنصراً أساسياً في وضعها. ونظراً إلى أن الجسم هو وسيلة تمكننا من العالم فإن هذا العالم يعرض لنا بصورة تختلف باختلاف هذا التمكن ولئن استعرضنا المعطيات البيولوجية فلأنها أحد المفاتيح التي تسمح لنا بفهم المرأة لكننا نرفض الفكرة القائلة بأن المعطيات البيولوجية هي التي تقرر مصيرها نهائياً. فهذه المعطيات لا تكفي لتحديد التهايز بين الجنسين ولا تفسر لماذا تعتبر المرأة «الجنس الآخر» كما لا تحكم عليها بأن تحافظ إلى الأبد على هذا الدور الثانوي.

زعم بعضهم أن الفيزيولوجيا وحدها تسمح بالإجابة على الأسئلة التالية: هل للنجاح الفردي حظ واحد عن الجنسين؟ أي الجنسين يلعب الدور الأهم في النوع؟

فالمتشبعون بنظرية الموازاة النفسية - الفيزيولوجية حاولوا القيام بمقارنات رياضية بين الأعضاء المذكرة والمؤنثة متخيلين أن هذه القياسات تسمح بتعيين القدرات الوظائفية، أما نحن فنطرح كل فكرة من هذا النوع؟ لأن هذه نظريات تهدمت نهائياً. كها تطرح كل فكرة تقول بوجود تسلسل طبيعي للقيم لأن كل هذه النظريات التي تمزج بين مذاهب طبيعية غامضة ممزوجة باعتبارات خلقية وجمالية هي نوع من الإسفاف.

لا يمكننا أن نقارن بين الأنثى والذكر في النوع البشري إلا من الزاوية الإنسانية. ولا يُعرَّف الإنسان إلا بأنه كائن غير مُعطى وأنه يصنع نفسه بنفسه ويقرر ما هو عليه. وكها قال «ميرلو بونتي» ليس الإنسان نوعاً طبيعياً بل هو فكرة تاريخية. والمرأة ليست واقعاً لازباً بل هي صيرورة، لذلك ينبغي مقارنتها مع الرجل في صيرورتها، أي ينبغي تحديد إمكانياتها: إن ما يعيب كثيراً من المناظرات، أنها تريد أن تقصر المرأة على ما كانت عليه أو ما هي عليه الآن. ولكننا إذا واجهنا رأياً يوصف بأنه تجاوز على الحقيقة فليس بإمكاننا أن نغلق الحساب.

ما دمنا نتبنى الزاوية الإنسانية التي تُعرِّف الجسم اعتباراً من الوجود، فإن البيولوجيا تصبح علماً تجريدياً، وحين تأخذ إحدى المعطيات الفيزيولوجية (النقص العضلي مثلاً) مغزى ما، فإن هذا المغزى يبدو لنا حالاً مرتبطاً بكل معقد. ويجب الرجوع إلى قرائن وجودية واقتصادية ومعنوية كيها يعرف مفهوم «الضعف» تعريفاً ملموساً. وعلى ضوء البيولوجيا فقط لا يمكن القول بأولية أحد الجنسين على أساس الدور الذي يلعبه في تخليد النوع.

وأخيراً، ليس المجتمع نوعاً من الأنواع، ففي المجتمع يحقق النوع نفسه كوجود ويجاوز ذاته نحو العالم والمستقبل، وأن أخلاق المجتمع لا تستنتج من البيولوجيا. والأشخاص ليسوا متروكين لطبيعتهم، بل يخضعون لطبيعة ثانية هي العُرف والتي تنعكس فيها رغبات ومخاوف تعبر عن وضعهم البشري. ولا يتولد لدى الشخص الشعور بذاته ويستكمل نفسه، بصفته جسماً فقط، وإنها بصفته جسماً خاضعاً للمعتقدات والقوانين. وهو لا يقيم نفسه إلا باسم بعض القيم، ومرة أخرى نؤكد، أن الفيزيولوجيا عاجزة عن تأسيس القيم، بل بالعكس، إن المعطيات الفيزيولوجية تكتسب القيم التي يضفيها الكائن عليها. فإذا حال الاحترام تجاه المرأة دون استعمال الشدة ضدها، فإن أفضلية الرجل العضلية مثلاً تفقد سلطتها.

هكذا، ينبغي لنا أن نفسر المعطيات البيولوجية على ضوء مجموعة العوامل البشرية، والاقتصادية، والاجتهاعية والنفسية. إن خضوع المرأة لواجب النوع وحدود إمكانياتها الفردية هي وقائع بالغة الأهمية. فجسم المرأة هو أحد العناصر الأساسية من وضعها في هذا العالم. إلا أنه لا يكفي وحده لتعريفها. إذ ليس له من واقع وجودي إلا عن طريق الشعور ومن خلال فعلها ضمن المجتمع.

ليس بوسع البيولوجيا الإجابة على السؤال الذي يشغل بالنا: لماذا تكون المرأة «الجنس الآخر»؟

ينبغي لنا أن نعرف ما فعلته الإنسانية بالأنثى البشرية.

الفَطَيْلُ الثَّابِي

ماذا يقول علم النفس التحليلي ؟

على حين يعزو «فرويد» تطور الحياة الإنسانية إلى الغريزة فقط فإن «آدلر» الذي انشق عليه، يأخذ بعين الاعتبار الشخصية الكلية. وبينها يرى «فرويد» أن السلوك بمجموعه ينجم عن الرغبة، أي البحث عن اللذة فإن «آدلر» يرى أن الإنسان يضع نصب عينه بعض الأهداف ويفسح «آدلر» للذكاء مجالاً واسعاً بحيث لا يكتسب العامل الجنسي عنده في الغالب سوى قيمة رمزية.

بالنسبة إلى آدلر، تدور المأساة الإنسانية في ثلاث لحظات: في كل فرد تكمن ارادة القوة إلا أنها تكون مصحوبة بـ المركب نقص الله النزاع يدفعه إلى الهروب من تجربة الواقع خشية أن لا يتمكن من التغلب عليه، فيترك الشخص مسافة بينه وبين المجتمع. أما لدى المرأة فيتخذ المركب النقص المكخجل لأنو ثتها: إذن ليس حرمانها من عضو الذكر كها يظن فرويد هو الذي يُحدث مركب النقص عند المرأة بل مجموع الوضع. وإن الفتاة الصغيرة لا تفتقد العضو إلا على اعتبار أنه رمز للامتيازات الممنوحة للصبيان. إن المكان الذي يحتله الأب في الأسرة والأفضلية العامة للذكور والتربية ... كل شيء يوطد فيها فكرة تفوق الذكور. وفيها بعد يؤكد وضع المرأة تحت الرجل خلال عملية الجماع إذلا لها من جديد. إلا أنها بفضل الأمومة تجد في طفلها ما يعيد التوازن ويكسبها نوعاً من الاستقلال.

يرفض أصحاب مدرسة التحليل النفسي رفضاً تاماً فكرة «الاصطفاء» و«مفهوم القيمة» المرتبط بها. هذا هو الضعف الداخلي لهذه المدرسة. وبها أن فرويد يفصل بين الدوافع والموانع وبين الاصطفاء الوجودي، فإنه يفشل في تفسير منشئها ويعتبرها كمعطيات.

لا شك في أن الغريزة الجنسية تلعب في حياة الإنسان دوراً بالغاً حتى ليمكننا القول إنها تتغلغل في حياته كلها. إن الكائن الموجود هو جسم ذو جنس. ولئن كان الجسم والغريزة الجنسية يشكلان تعبيراً محسوساً للوجود فلا يمكننا اكتشاف مغزاهما إلا اعتباراً من هذا الوجود.

يعتبر أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحقيقة الأولى للإنسان علاقته مع جسمه الخاص وجسم أمثاله ضمن المجتمع؛ إلا أن الإنسان يهتم اهتهاماً أساسياً بالعالم الطبيعي واللعب وغير ذلك، ويدعي الالتقاء المحسوس بالوجود من خلال العالم كله وبكل الوسائل المكنة.

لا يكفي القول إن المرأة هي أنثى ولا يمكن أيضاً تعريفها على أساس الشعور الذي يتملكها بأنوثتها. إنها تشعر بأنوثتها ضمن مجتمع هي أحد أعضائه. إن لغة التحليل النفسي ذاتها باستبطانها كل الحياة النفسية، توحي بأن مأساة الفرد تجري ضمن ذاته: هذا ما تفترضه كلمات: عُقد، ميول ... لكن الحياة علاقة بالعالم، وأن الفرد يحدد نفسه بها يصطفيه لنفسه. وينبغي لنا أن نلتفت صوب العالم لنجد الحلول للأسئلة التي تشغلنا. وأن مدرسة التحليل النفسي تفشل بصورة خاصة في أن تفسر لماذا تكون المرأة «الجنس الآخر». لذلك نرفض طريقة التحليل النفسي مع اعترافنا أن بعض ملاحظاتها ذات نفع.

زد إلى ذلك أننا نثير بصورة أخرى مسألة المصير النسوي. فنضع المرأة في عالم من القيم ونظن أن عليها أن تصطفي بين تأكيد رغبة الارتقاء والمجاوزة وبين اعتبارها كغرض ومتاع.

نحن نعتقد أن المرأة تختار بين دورها كغرض، كطرف آخر، وبين مطلبها في الحرية.

وهي تُعرَّف بالنسبة إلينا ككائن إنساني يبحث عن القيم ضمن عالم من القيم، ضمن عالم لا بد من معرفة تكوينه الاقتصادي والاجتهاعي. لذلك نحن ندرس المرأة من زاوية وجودية من خلال وضعها الكلي.

الفَطَيْلُ الثَّالِيْنُ

نظرية المادية التاريخية

لقد أبرزت نظرية المادية التاريخية حقائق ذات أهمية بالغة. فالإنسانية ليست نوعاً حيوانياً، بل هي واقع تاريخي. ولا يتأثر المجتمع بالطبيعة تأثراً سلبياً بل يحاول التمكن منها. هذا التمكن ليس عملية ضمنية شخصية وإنها يجري بصورة موضعية. لذلك لا يمكن أبداً اعتبار المرأة فقط ككيان عضوي ذوي جنس. والمعطيات البيولوجية التي تكتسب أهمية هي التي تأخذ قيمة محسوسة ضمن العمل. وإن شعور المرأة بذاتها لا تحددها غريزتها الجنسية وحدها، وإنها يعكس وضعاً يتعلق بالتكوين الاقتصادي للمجتمع؛ هذا التكوين الذي يعبر عن درجة تطور الإنسانية الفني.

رأينا أن الصفتين الأساسيتين اللتين تميزان المرأة من الناحية البيولوجية هما: أولاً: أن تمكنها من العالم أضيق نطاقاً من تملك الرجل له. ثانياً: إنها أكثر خضوعاً لمستلزمات النوع. إلا أن هذه الوقائع تكتسب قيم مختلفة بحسب الحالة الاقتصادية الاجتماعية. ففي تاريخ الإنسانية، لا يتحدد التمكن من العالم بالجسم المجرد أبداً لأن الآلة التي تلعب دور الواسطة تضاعف من قدرة الإنسان. قد تكون المرأة عاجزة عن تحريك أداة ثقيلة فيبدو عجزها واضحاً بالنسبة إلى الرجل. إلا أن التطور الفني قد يلغي الفارق العضلي الذي يميز الرجل عن المرأة وتصبح معادلة له في العمل.

إن «أنجلز» يسرد تاريخ المرأة في كتابه «أصل الأسرة» ويُظهر أن تاريخ المرأة مرتبط ارتباطاً أساسياً بتاريخ التكنيك. ففي العصر الحجري، لما كانت الأرض مشاعاً بين أفراد القبيلة كانت قوة المرأة كافية للعمل في البساتين، فكان هناك تقسيم متساو للأعمال بين الرجل والمرأة. الرجل يصطاد والمرأة تبقى في المنزل حيث تقوم ببعض الأعمال الإنتاجية كالنسج والبستنة وغيرهما. وبالتالي كان لها دور كبير في الحياة الاقتصادية.

ولما اكتُشفت المعادن واختُرع المحراث واتسع نطاق الاستثمار الزراعي وازدادت صعوبته ظهرت المُلكية الفردية. فصار بإمكان الرجل أن يصبح سيداً للعبيد والأرض وأصبح أيضاً مالكاً للمرأة.

ذلك هو «الانكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي». وإنه ليفسر بالثورة التي طرأت على تقسيم العمل نتيجة لاختراع وسائل جديدة. إن العمل المنزلي الذي كان يضمن للمرأة استقلالها في السابق، صاريضمن سيطرة الرجل، لأن العمل المنزلي لم تعدله سوى قيمة ثانوية جداً أمام عمل الرجل المنتج. حينئذ حل الحق الأبوي محل حق الأم. وظهرت الأسرة الأبوية القائمة على الملكية الفردي. في مثل هذه العائلة أصبحت المرأة مضطهدة. أما الرجل المتربع على عرش السيادة فأباح لنفسه التقلب مع الهوى والتمنع بالإماء. وحينها تتيح الأعراف تنتقم المرأة بالخيانة. هذه وسيلة المقاومة الوحيدة ضد عبوديتها المنزلية، وما الاضطهاد الاجتماعي الذي يحيق بها إلا نتيجة استعبادها الاقتصادي «ولا يمكن للمرأة أن تتحرر إلا حينها تستطيع الإسهام إلى حد بعيد في الإنتاج ولا يستدعيها العمل المنزلي إلا بصورة طفيفة. وهذا لم يصبح ممكناً إلا ضمن بصورة ملحة».

إن مقاومة وتحفظات النظرة الأبوية الرأسهالية هي التي تحول دون تحقيق المساواة في كثير من البلاد. وحينها يحل المجتمع الاشتراكي في العالم كله فلن يكون هناك رجال ونساء، بل عُمّال متساوون فيها بينهم.

لا شك في أن تحليل «أنجلز» يشكل خطوة إلى الأمام، إلا أنه يهم كثيراً من النقاط المهمة: إن محور التاريخ كله هو الانتقال من نظام المشاع القديم إلى المُلكية الفردية، دون أن يقال لنا كيف حدث هذا الانتقال. بل إن أنجلز يعترف بـ «إننا لا نعرف شيئاً حنى

الآن". فهو لا يجهل تفصيلات التاريخ فقط، بل إنه لا يوحي بأي تفسير له. كما أنه ليس واضحاً أن المُلكية الفردية أدت حتماً إلى عبودية المرأة. إن المادية التاريخية تَعتبر الأشياء التي ينبغي تفسيرها، أموراً مفروغاً منها، فهي تضع دون نقاش، صلة المصلحة التي تربط الإنسان بالمُلكية، ولكن ما هو منشأ هذه المصلحة التي منها تنبع المؤسسات الاجتماعية؟ هكذا تبقى دعوى أنجلز ناقصة وتبدو الحقائق التي يكتشفها محتملة لأنه لا يمكن التعمق فيها دون تجاوز المادية التاريخية التي لا يمكنها تقديم الحلول للمسائل التي عيناها لأنها مسائل تهم الإنسان بأكمله، وليس مفهوم "إنسان الاقتصاد" التجريدي.

من الواضح، مثلاً أن فكرة التملك الفردي لا تكتسب معنى إلا اعتباراً من الوضع الأصلي للكائن. وكيها تظهر، يجب أولاً أن يكون في الشخص ميل إلى فرض نفسه في فرديته الجذرية، ونزعة إلى تأكيد وجوده المستقل المنفصل. ومن المفهوم أن هذا الادعاء يبقى شخصياً، داخلياً، غير حقيقي، ما دام المرء محروماً من الوسائل العملية الكفيلة بتلبية هذا الادعاء تلبية موضوعية: فنظراً لحرمانه من الآلات الملائمة، لم يكن يحس في البداية بسلطته على العالم، وكان يحس بنفسه ضائعاً في الطبيعة والجهاعة، سلبياً مهدداً، تتلاعب به القوى المظلمة، ولم يكن يجرأ على التفكير في نفسه إلا من خلال ذوبانه في العشيرة.

إن اكتشاف البرونز سمح للإنسان باكتشاف نفسه، في تجربة العمل القاسي والمنتج، كمبدع مسيطر على الطبيعة، فلم يعد يخشاها وصارت له الجرأة أمام تغلبه على الصعاب على فهم نفسه كفعالية مستقلة وعلى استكهال فرديته. إلا أن هذا الاستكهال لم يكن ليتحقق لو أن الإنسان لم يشأه أولاً. إن عظة العمل لم يتلقفها شخص سلبي، بل إن الإنسان بنى نفسه بسيطرته على الأرض. إن تأكيد الذات لا يكفي لتفسير الملكية، ففي التحدي والنضال والمعركة الفردية يحاول اكتساب شعور الارتقاء إلى السيادة. وكيها يكتسب التحدي شكل الخصومة الاقتصادية، وكيها يطالب الرئيس ثم أفراد العشيرة، اعتباراً من ذلك، بممتلكات فردية، ينبغي أن يكون في الإنسان ميل أولي آخر: قلنا سابقاً إن الكائن لا ينجح في اكتناه نفسه إلا بالتقمص وهو يبحث عن نفسه خلال العالم تحت صورة أجنبية يجعلها صورته وفي الوقت نفسه حاول كل واحد امتلاك قطعة أرض، وأدوات عمل ومحاصيل. وقد وجد الإنسان ذاته في هذه الثروات التابعة له، لأنه ذاب

فيها. وندرك حينئذ أنه أخذ يعطيها نفس الأهمية التي لحياته، على هذا الضوء يصبح اهتمام الإنسان بملكيته رابطة ونزعة منهومة.

من المستحيل أيضاً أن نستنتج اضطهاد المرأة هو وليد المُلكية الفردية، فهنا أيضاً تظهر عدم كفاية وجهة نظر أنجلز. لقد فهم جيداً أن ضعف المرأة العضلي لم يصبح نقصاً ملموساً إلا في علاقته مع الأدوات الحديدية والبرونزية. إلا أنه لم يرَ أن طاقة عملها المحدودة تشكل عبئاً ملموساً إلا من وجهة معينة. إن الرجل نظراً إلى كونه ذا طموح، يبرز من خلال كل آلة جديدة مطالب جديدة. فحين اكتشف الأدوات البرونزية لم يكتفِ باستثهار البساتين، بل أراد استثهار حقول جديدة واسعة، ولم تنبع هذه الإرادة من البرونز نفسه. إن عجز المرأة جرّ إلى خرابها لأن الرجل استحوذها من خلال سعيه للثروة والتوسع، إلا أن هذا لا يكفي أيضاً لتفسير اضطهادها، فقد كان ممكناً لتقسيم العمل بين الرجل والمرأة أن يكون مشاركة ودية. ولو كانت العلاقة الأولية الأصلية للرجل مع أشباهه علاقة صداقة صرفة، لما أمكن تفسير أي نوع من الاستعباد. إن الاستعباد هو نتيجة لجبروت الشعور الإنساني الذي يبحث عن تحقيق سيادته بصورة فعلية. لو لم يكن نتيجة لجبروت الشعور الإنساني الذي يبحث عن تحقيق سيادته بصورة فعلية. لو لم يكن ألم اضطهاد المرأة.

كما أن أنجلز لا يفسر الصفة الخاصة لهذا الاضطهاد. فقد حاول أن يعزو التعارض بين الجنسين إلى خلاف طبقي. صحيح أن تقسيم العمل على أساس الجنس والاضطهاد الذي ينجم عنه يذكّر بتقسيم العمل في بعض النقاط، إلا أنه لا يمكن الخلط بينها، فلا يوجد أي أساس بيولوجي في التقسيم الطبقي، ذلك لأن العبد يشعر أثناء العمل بالعِداء للسيد. والبروليتاريا الشاعرة بوضعها تشكل تهديداً لمستثمريها وتهدف إلى القضاء على نفسها كطبقة.

إن وضع المرأة مختلف جداً وخاصة بسبب الحياة والمصالح المشتركة التي تربطها بالرجل، وبسبب المشاركة التي تلاقيها ضمن ذاتها. فلا تتمخض نفسها عن ثورة، ولا يمكن لها أن تقضي على نفسها كجنس؛ بل تطالب فقط بإلغاء بعض النتائج المرتبطة بالجنس.

وأخطر من ذلك أيضاً، أنه لا يمكنها اعتبار المرأة كعاملة فقط دون أن نكون مغرضين. إن وظيفتها في التوالد مهمة مثل طاقتها الإنتاجية، سواء في الاقتصاد الاجتماعي أو في الحياة الفردية، وهناك فترات يجدي فيها إكثار الذرية أكثر من العمل بالمحراث.

إن الأخلاق الاشتراكية حقاً، أي الأخلاق التي تبحث عن العدالة دون أن تقضي على الفردية، ستجد نفسها في مأزق أمام المسائل التي يثيرها وضع المرأة. فالمرأة لا تحشر في العملية الجنسية وفي الأمومة زمناً وقوة، بل قيهاً جوهرية. وعبثاً تحاول المدرسة المادية العقلانية تجاهل الغريزة الجنسية واعتبارها كمأساة، فلا يمكن تنظيم الغريزة الجنسية بقرارات.

إن الغريزة الجنسية لا يمكن إلحاقها بالوضع الاجتهاعي لأنها تعبير عن ثورة اللحظة على الزمن والفردية على الجهاعية. فإذا ما أردنا توجيهها، فقد نقضي عليها لأنه لا يمكن التصرف بالعضوية الحية كها نتصف بالمادة الرديئة ولا يمكن ترويضها كها نروض الحرية بالقيود.

لا يمكننا أن نجبر المرأة مباشرة على إعطاء الذرية، إن كل ما يمكننا هو أن نحصرها في أوضاع تجعل من الأمومة المخرج الوحيد بالنسبة لها. فالقانون والأعراف تجبرها على الزواج ويمكن منع الوسائل المستعملة ضد الحبل كها يمكن منع الطلاق. في إحدى الخطب في الاتحاد السوفياتي طلب إلى المرأة أن تُعنى بزينتها لتستهوي زوجها. نرى من ذلك أن من المستحيل اعتبار المرأة قوة مولدة فقط، إنها بالنسبة إلى الرجل شريكة، ومولدة، ومتاع للشهوة، إنها «الطرف الجنسي الآخر» ومن خلالها يبحث الرجل عن ذاته. وعبثاً تحاول النظم الموجهة منع التحليل النفسي والإعلان بأن المواطنين المنضوين بإخلاص تحت راية الجهاعة لا يعرفون المآسي الفردية. الحياة الجنسية تجربة لا يتلقف فيها ما هو عام بها هو فردي. وبالنسبة إلى اشتراكية ديمقراطية تزول فيها الطبقات لا الأفراد تحافظ مسألة المصير الفردي على أهميتها ويبقى للتهايز بين الجنسين أهمية أيضاً لأن العلاقة المخسية التي تربط المرأة بالرجل ليست مثل العلاقة التي تربط المرأة بالمرجل ليست مثل العلاقة التي تربط المرأة بالمرجل ليسبه ها أى شبيه.

لا يمكن إرجاع الصلة التي تربط المرأة بالطفل إلى أية صلة أخرى. ولا تعني المطالبة لها بكل حقوق وكل فرص الكائن الإنساني وجوب الإغفاء عن وضعها الخاص. وفي سبيل معرفة هذه الصلة ينبغي تجاوز المادية التاريخية التي لا ترى في الرجل والمرأة سوى كيانات اقتصادية.

وقد يفسر عالم التحليل النفسي كل المطالب الاجتهاعية للمرأة كظاهرة «احتجاج رجولي». وبالعكس، لا تعبر غريزتها الجنسية، بالنسبة إلى الماركسية، إلا عن وضعها الاقتصادي بصورة متفاوتة التعقيد. إن كل هذه التصنيفات عاجزة عن الإحاطة بامرأة فعلية حقيقية. فوراء المآسي الفردية وتاريخ الإنسانية الاقتصادي، يوجد أساس وجودي يسمح وحده بفهم هذا الشكل الخاص، هذه الحياة في وحدانيتها وفرديتها.

إن قيمة مدرسة فرويد تنجم عن أن الكائن جسم؛ وطريقة إحساسه بنفسه كجسم أمام الأجسام الأخرى تشخص وضعه الوجودي تشخيصاً موضوعياً. كها أن الصحيح في الماركسية هو أن رغبات الكائن الحي تأخذ شكلاً محسوساً بحسب الإمكانيات المادية التي تعرض له، خاصة تلك التي يؤمنها تقدم التكنيك. إلا أننا إذا لم نضف إليها مجموع الواقع الإنساني فإن الغريزة الجنسية والتكنيك وحدهما لا يفسران شيئاً. لذلك تبدو لدى فرويد الموانع التي تضعها «الأنا العلوية» واندفاعات «الأنا» كأشياء ممكنة. وفي عرض أنجلز لتاريخ الأسرة تبدو أهم الحوادث وكأنها تنبع فجأة بحسب أهواء صدفة غامضة.

إننا لا نرفض، في سبيل اكتناه المرأة، بعض مساهمات علم الحياة والتحليل النفسي والمادية التاريخية؛ إلا أن القوة العضلية والعضو التناسلي والأداة لا يمكن تعريفها إلا في عالم من القيم.

الفَطَيِّلُ الْأَلْوَلَ يَعِ

نظرة تاريخية

لقد كان هذا العالم دائماً عالم الرجال، كل الأسباب المعللة لذلك بدت لنا غير كافية. على أننا سنتمكن من أن نفهم كيف تشكل التسلسل والتمايز بين الجنسين إذا ما فحصنا معطيات فترة ما قبل التاريخ، وعلم الأجناس البشرية، على ضوء الفلسفة الوجودية.

بينا سابقاً أن التقاء مجموعتين بشريتين تدفع كل واحدة منهما إلى بسط سيادتها على الأخرى. فإذا كان لكلتيهما إمكانية إبداء هذا الطلب حصلت بينهما علاقة متبادلة دائمة التوتر سواء في الصداقة أو العداوة. فإذا كانت إحداهما متميزة تفوقت على الأخرى وعملت على إبقائها مضطهدة.

وطبيعي أن يكون للرجل إرادة التحكم في المرأة؛ ولكن ما الامتياز الذي أتاح له تحقيق هذه الإرادة؟

تتضارب المعلومات التي يقدمها علماء الأجناس البرية عن الأشكال البدائية للمجتمع البشري تضارباً كبيراً. ومن الصعب خاصة أن نكوّن فكرة عن وضع المرأة في الفترة التي سبقت مرحلة الزراعة. ولا يمكننا أن نعرف فيها إذا كان نمو عضلات المرأة وجهازها التنفسي مساوياً لنمو عضلات الرجل وجهازه التنفسي. فقد كان يعهد إليها بالأعمال الشاقة، خاصة أنها كانت هي التي تحمل الأثقال، على حين كان الرجال يبقون طليقي الأيدي ليؤمنوا الدفاع عن القافلة. على أن النساء كنّ في كثير من الحالات من

القوة بحيث كنّ يساهمن في الحملات الحربية ويبدين من ضروب الشجاعة والقسوة ما يضاهي الرجال.

بالرغم من ذلك، يحتمل أن الرجال كانوا سابقاً كما في الوقت الحالي متميزين بالقوة الجسدية. مثل هذا التفوق كان في العصور البدائية بالغ الأهمية دون شك.

ومهها كان من أمر قوة المرأة آنذاك فإن واجبات التناسل كانت تشكل بالنسبة إليها عائقاً كبيراً. ويحكى أن النساء المحاربات في القديم كنّ يقطعن أثداءهن ليتخلصن من الأمومة. وكن بحاجة إلى حماية المحاربين في سبيل اتقاء شر العدو وضهان معيشتهن ومعيشة أولادهن. وكان من شأن تكرر الحمل والوضع أن يأخذ أكبر قسط من قوتهن ووقتن.

هذا أمر له أهميته العظمى، فبداية الجنس البشري كانت شديدة الصعوبة. وكانت شروط الحياة شاقة على حين كانت المرأة تخلق حاجات متزايدة بإنجابها الأطفال إنجاباً متواصلاً. لئن كانت المرأة ضرورية لبقاء النوع فإنها كانت تخلف النسل بكثرة وكان على الرجل أن يحقق التوازن بين تكاثر النسل والإنتاج.

لم تكن المرأة، إذن، تلعب دور البويضة أمام الحيوان المنوي، بل كانت تساهم في مجهود الدنس البشري للبقاء فقط، وبفضل الرجل كان هذا الجهد يكلل بالنجاح الفعلي.

ما دام التوازن بين الإنتاج والتناسل كان يتحقق؛ ولو كان ذلك أحياناً عن طريق قتل الأطفال والتضحيات والحروب فإن الرجال والفساد معاً كانوا ضروريين بالنسبة إلى بعضهم فيها يتعلق ببقاء الحياة الجهاعية. بل يمكننا أن نفترض أن دور الرجل الحربي والغذائي كان تابعاً في أوقات النعومة والرخاء لدور المرأة كأم. إلا أن الإنسانية لم تسمح للنساء باحتلال المقام الأول حتى في أوقات الحاجة القصوى إلى التوالد. والسبب في ذلك أن الإنسانية ليست نوعاً طبيعياً فقط، وإنها لا تحاول الديمومة كنوع، وأن هدفها ليس التوقف والجمود. إن الإنسانية تميل إلى المجاوزة وتجنح إلى الارتقاء.

لم تكن الجماعات البدائية قط تهتم بالنسل، إذ كانت غير مرتبطة بالأرض ولم يكن لديها فكرة عن الديمومة، ولم يكن أفرادها يتعرفون على أنفسهم من خلال ذريتهم، بل

كان الأطفال يشكلون عبئاً ثقيلاً بالنسبة إليهم. لذلك لم تكن المرأة التي تنجب طفلاً تعرف الكرامة المرتبطة بإنجاب الذرية. إلا أن أهمية الطفل ارتفعت فيها بعد. ولكن الإنجاب والإرضاع، على كل حال، ليسا أنواعاً من النشاط بل وظائف طبيعية لا تستدعي تخطيط الأهداف وتصميم المشاريع. لذلك لم تكن المرأة تجد في نفسها باعثاً على تأكيد أفعال لوجودها. بل كانت تتلقى مصيرها البيولوجي تلقياً سلبياً. أما الأعمال المنزلية المناطة بها فتتفق مع أعباء الأمومة وتتصف بالرتابة والجمود دون أن تنتج شيئاً جديداً. أما الرجل فيختلف في وضعه اختلافاً جذرياً. إنه لا يغذي الجماعة كما تفعل النحل أي بنشاط حيوي بسيط، بل باللجوء إلى أفعال تسمو بوضعه الحيواني. هكذا كان الرجل مبدعاً منذ البداية. وفي محاولته الاستحواذ على ثروات العالم كان يضم العالم نفسه إليه. وكان يحس في هذا العمل بمدى سلطته. كان يضع الأهداف ويمهد للمستقبل. وفي عمله الإنشائي لم يكن يسعى للإبقاء على عالم معين بل كان يفجر الحدود ويرسي قواعد مستقبل جيد معرضاً حياته للخطر. فكان يثبت بذلك أن الحياة ليست الهدف الأسمى مستقبل جيد معرضاً حياته للخطر. فكان يثبت بذلك أن الحياة ليست الهدف الأسمى مستوى الحيوان لأنه يُعطى الحياة وإنها لأنه يغام بحياته.

إننا نمسك هنا بمفتاح اللغز كله. في مستوى البيولوجيا يدوم النوع بالتوالد إلا أن هذا الخلق لا يشكل سوى تكرار للحياة نفسها في صور مختلفة، أما الإنسان فيجاوز الحياة بتأكيد الوجود وبهذه المجاوزة والتسامي يخلق قيماً تنكر على التكرار قيمته. إن الذكر الإنساني، بعكس الحيوان، إذ يحترم النوع يغير وجه العالم فيخلق أدوات جديدة ويبدع ويبني للمستقبل. وهو حين يؤكد نفسه كسيد يلقى مشاركة وإسهاماً من المرأة نفسها لأنها هي أيضاً كائن، يكمن فيها التجاوز وهدفها ليس التكرار بل السمو إلى مستقبل آخر. وإنها لتجد في أعهاق نفسها تأكيداً لادعاءات الذكور. إن مصيبتها تكمن في أنها نذرت من الناحية البيولوجية لتكرار الحياة على حين أن الحياة في عينيها لا تحمل معها أسباب وجودها. المرأة هي أيضاً تعرف القيم التي يقوم الذكر بتحقيقها بصورة فعلية، والحقيقة أن النساء لم يجابهن قيم الرجال بقيم أنثوية. والرجال الراغبون في إبقاء ميزات الذكور هم الذين خلقوا هذا التقسيم.

لقد سمحت لنا النظرة الوجودية أن نفهم كيف أدى الوضع البيولوجي والاقتصادي للجهاعات البدائية إلى تسلط الرجل. فالمرأة أكثر خضوعاً من الرجل لمستلزمات النوع. وقد حاولت الإنسانية دائها التحرر من مصيرها النعي ولما اخترعت الأداة أصبحت إدامة الحياة بالنسبة إلى الرجل نشاطاً وهدفاً على حين كانت المرأة تبقى في مرحلة الأمومة والحمل مقيدة بجسمها مثل الحيوان. ولما كانت الإنسانية تفضل على الحياة بالذات أن يكون لها أسباب للحياة فإن الرجل نصب من نفسه سيداً أمام المرأة. وهدف الإنسان ليس أن يتكرر عبر الزمان بل أن يسود على الحاضر ويمهد للمستقبل. إن نشاط الذكور الذي خلق القيم جعل الوجود نفس كقيمة وقهر قوى الحياة المتخبطة وأخضع الطبيعة والمرأة.

ينبغي لنا الآن أن نرى كيف تخلد هذا الوضع وتطور خلال العصور، وما هو المكان الذي خصصته الإنسانية لأحد جزئيها، هذا الجزء الذي تحدد ضمن ذاتها كـ «جنس آخر»؟ ما هي حقوقه المسلَّم بها؟ وكيف حددها الرجال؟

* * *

كان مصير المرأة، كما رأينا، قاسياً جداً في الجماعات الأولية. وكانت النساء أحياناً مستثمرات من ناحية التناسل حتى الإعياء من قِبَل سيد مستبد ولا سيما في فترات حاجة الجماعة إلى إمكانيات المرأة لرد الأخطار الداهمة. ومن المؤرخين من يدعي أن تفوق الرجال في مثل هذه الفترات كان أقل بروزاً. والحقيقة أن هذا التفوق كان جزءاً من العيش غير مقصود. فلم تكن الجهود تُبذل للتعويض عن جهدها أو لكبح جماحها كما حدث فيها بعد ضمن النظام الأبوي. ولم تكن هناك نظم تؤكد عدم التساوي بين الجنسين لأن الملكية والوراثة والحقوق كانت مجهولة. أما الدين فكان محايداً والإله المعبود لا جنس له.

ولما استقر الرجال في الأرض وصاروا يعملون في الزراعة، بدأت النظم والحقوق بالظهور. فلم يعد الرجل يكتفي بمجابهة القوى المعادية، بل شرع يعبر عن ذاته من خلال الصورة التي يفرضها على العالم. أخذ الرجل إذن يفكر في العالم وفي نفسه. في هذه الفترة أخذ التهايز الجنسي ينعكس في تكوين الجهاعة ويكتسب مظهراً خاصاً. ففي الجهاعات المعتمدة على الزراعة، بدأ الرجل يخلع على المرأة في أغلب الأحيان، سحراً استثنائياً وقيمة

خاصة. ويمكن تفسير هذه القيمة بصورة خاصة بالقيمة الجديدة التي صارت للولد في حضارة تعتمد على الكدح في الأرض. فالرجال، إذ يقيمون في الأرض، يحققون امتلاكهم لها. وظهرت الملكية الشهاعة وهي تتطلب من المالكين ذرية؛ حينئذ أصبحت الأمومة مقدسة، لم يكن هذا يعني أن المرأة كانت تخص كل الرجال بل لم يكن للرجال والنساء معاً من كيان اجتهاعي وديني واقتصدي إلا كجهاعة. أما فرديتهم فبقيت واقعاً بيولوجياً صرفاً. ولم يكن للزواج، بغض النظر عن أشكاله، أي قيمة غيبية. ولم يكن ينجم عنه أي عبودية بالنسبة إلى المرأة التي كانت تبقى مرتبطة بعشيرتها.

ولئن كانت القبائل الجوّالة (البدوية) لا تعرف إلا اللحظة الآنية كمفهوم، فإن الجماعة الزراعية استعاضت عن اللحظة بمفهوم مرتبط بالماضي ومطل على المستقبل. وأخذت الجماعة تشعر بوحدتها وترغب في تمديد وجودها إلى المستقبل فعرفت نفسها في الأطفال.

إلا أن أكثر الأقوام البدائية كانت تجهل دور الأب في الإنجاب فالأولاد بالنسبة اليهم ينحدرون من روح الأجداد المتقمصة في جسم المرأة. أما المرأة فضرورية للإنجاب لذلك أخذت تلعب دوراً أولياً. وكثيراً ما كانُ الأولاد يتبعون عشيرة أمهم وأخذت الملكية الجهاعية تنتقل من خلال النساء؛ بل إن النظام القائم على الأم يتميز بتشبيه المرأة بالأرض والربط بينهها. إذ عن طريقهها تدوم الحياة.

في هذه المرحلة لم يكن الرجل يشعر بقوته، بل يحس بنفسه سلبياً معلقاً بالطبيعة التي تهب الموت والحياة. مثل هذه المعتقدات لا تزال سائدة حتى يومنا هذا عند بعض القبائل المتأخرة.

* * *

لا يعي الرجل نفس أبداً إلا إذا وعى هذا «الجنس الآخر». ولا يكتنه العالم إلا من خلال الازدواج الذي ليس له صفة جنسية في البداية. ولما كانت المرأة مختلفة عن الرجل الذي يعتبر نفسه الأصل فإنها تصنف في زمرة «الجنس الآخر». وإن ذلك ليزداد وضوحاً بازدياد دورها. حينئذ تظهر «الآلهة - الأنثى» التي تعبد من خلالها فكرة الخصب. هذه الألهة تتصف بالتقلب والقسوة شأنها في ذلك شأن الطبيعة، وقد أطلق عليها اسم

اعشتار، في بابل واليزيس، في مصر ... وإذا كانت هذه المرحلة لم تترك لنا أدباً فإن المرحلة النساء فيه تحتل كهاناً المرحلة الأبوية تحفظ في أساطيرها وتقاليدها ذكريات عهد كانت النساء فيه تحتل كهاناً عالياً جداً.

هذه الوقائع أدت إلى افتراض وجود سيطرة حقيقية للنساء في الأزمنة البدائية. وقد عرض هذه الفرضية وباشوفين، ثم أخذها عن وأنجلز، واعتبر الانتقال من عهد سيطرة الأم إلى السيطرة الأبوية والانكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي، والحقيقة أن هذه الفترة الذهبية من تاريخ المرأة ليست سوى أسطورة.

إذا قلنا أن المرأة كانت «الجنس الآخر» فمعنى ذلك أنه لم تكن بين الجنسين علاقة متبادلة: فالأرض والأم والآلهة لم تكن شبيهة بالرجل بل كانت من طينة أخرى، أما المجتمع فكان دائهاً مذكراً والسلطة السياسية كانت دائهاً في أيدي الرجال.

إن نظام القرابة يحدد العلاقة بين فتتين من الذكور. ولا يرتبط الوضع الفعلي للمرأة، بصورة عملية، بهذا النوع من الحقوق أو ذاك. وتذهب المرأة غالباً لتعيش في بيت زوجها وهذا يكفي لإبراز أفضلية الذكر. ولما كانت تحافظ على أولادها بجانبها فمعنى ذلك أن التنظيم الأرضي للقبيلة كان مبايناً لعلاقتها الطوطمية. ومن الطبيعي أن تكون العلاقة الأولى أقوى من الثانية.

وفي النظم الانتقالية، يلاحظ وجود وعين من الحقوق متشابكين! حقوق دينية وحقوق مستندة إلى شغل الأرض. ولا يعود الأولاد إلى عشيرة الأب ولكن هذه العشيرة هي التي تغذيه وتربيتهم. لذلك تنشأ بين الزوج والمرأة والأطفال علاقة سكن مشترك ومصالح مشتركة وحنان متبادل. وتكون العلاقة بين هذه العائلة والعشيرة الطوطمية معقدة كها يشهد بذلك اختلاف طقوس الزواج. على أن التوازن بين الوقائع الغيبية والاقتصادية لم يكن مستقراً وحينها تتاح الفرصة للرجل فإنه يؤكد نفسه كأب. لذلك يميل كل مجتمع إلى شكل أبوي حينها يسمح التطور للرجل بأن يشعر بذاته ويفرض إرادته.

كان سحر المرأة في عين الرجال يأتيها منهم أنفسهم. فهم يركعون أمام ذلك «الجنس الآخر» ويعبدون الآلهة الأم. ولكن هذه الآلهة، مهما بلغت من القوة، تبقى وليدة مفاهيم من صنع الرجال.

تبقى المرأة في حالة الجمود ولا تجسد من المجتمع إلا ناحيته الساكنة المغلقة على نفسها، في حين يتابع الرجل احتكار المهام التي تفتح له في المجتمع المجال على الطبيعة وعلى كل الجماعة البشرية.

إن الحروب والصيد من شأنها توسيع آفاق الوجود وتحقيق خطوات إلى الأمام نحو العالم، والذكر وحده يبقى مجسداً لهذا التجاوز والارتقاء. ولئن لم تتوفر له الوسائل ليتسلط تسلطاً تاماً على الأم – الأرض، إلا أنه يحاول الانفصال عنها والانعتاق التدريجي منها. والامتناع عن الزواج من الأقارب يكتسب منذ القدم بالنسبة للأم نفس المعنى أي أنه تعبير عن الرغبة في الاتحاد مع التباين المختلف، فالخطف وكل مظاهر العنف تأكيد للمفارقة والتباين. أما انخفاض قيمة المرأة فيشكل مرحلة حتمية في تاريخ الإنسانية لأن المرأة كانت تجسد الألغاز المقلقة الكامنة في الطبيعة. فبمقدار ما يتحرر الرجل من الطبيعة يتحرر أيضاً من المرأة. والذي سمح للرجل بغزو الأرض والتمكن من ذاته هو الانتقال من عصر الحجر إلى عصر البرونز.

يبدو المزارع عاجزاً كل العجز أمام تقلبات الطبيعة. أما الصانع فيستطيع أن يكيف الآلة بحسب رغبته وأن يفرض عليها بيديه صورة أهدافه ومشاريعه. إن الرجل، حين يُخضع الطبيعة التي تقاومه، يؤكد ذاته ويشعر بنفسه كإرادة مستقلة ذات سيادة. ويتعلم في الوقت نفسه كيف يتحمل المسؤولية لأن يكيف الأداة رهن إرادته ومهارته. حينئذ تصبح القيم الغيبية في المقام الثاني بينها ترتقي المشاغل العملية إلى المقام الأول. صحيح أن الإنسان لم يتحرر نهائياً من الآلهة إلا أنه يفصلها عنه إذ يبدأ بالانفصال عنها، ومن خلال العلاقة بين يده المنتجة والسلع المصنعة كان الرجل يتمرس بتجربة السببية مما جعل ظهور الحساب والمنطق ممكناً. وانقلبت بالتالي صورة العالم رأساً على عقب.

اكان تأليه المرأة مرتبطاً بالزراعة. أما الإنسان الذي بدأ يعمل في الصناعة فقد دشن عهد إمكان الانتصار على الزمن والمكان، وعهد الضرورة والأهداف والمشاريع. لم تكن المرأة معبودة من الرجل إلا عبادة خوف فلم تكن عبادته عبادة حب. ولم يكن بوسعه استكمال ذاته إلا بتحريرها من صفاتها الألوهية. لذلك أخذ يعتبر المبدأ المذكر «التذكير» أساس القوة المبدعة والنور والفهم والنظام.

هكذا ظهر بجانب الآلهة - الأم، إله ولد أو حبيب. كان في البداية أقل منها ولكه يشببها ويشترك معها ويجسد هو أيضاً مبدأ الخصب. إن هذا يدشّن ظهور الآلهة المزدوجة في مصر إيزيس وحوروس، وفي فينيقيا عشتروت وأدونيس. بعد ذلك خلت الأم الكبرى عن عرش الألوهية وأصبح الإله الذكر هو الأساس.

لم يكن انتصار نظام امتياز الأبوّة نتيجة لصدفة طارئة أو ثورة عاصفة. فمنذ نشأت الإنسانية أتاحت للذكور ميزاتهم البيولوجية أن يؤكدوا أنفسهم كسادة وحدهم وهم لم يتخلوا قط عن هذا الامتياز. إلا أنهم تخلوا جزئياً عن وجودهم وقمصوه في الطبيعة والمرأة وفيها بعد استرجعوه. ولما كان محكوماً على المرأة أن تكون «الجنس الثانوي الآخر، فقد حكم عليها أيضاً أن لا تتمتع بالسلطة إلا بصورة مؤقتة. وهي لم تصطف لنفسها أن تكون معبودة أو مستعبدة، ومكان المرأة في المجتمع لم يكن إلا المكان الذي خصصه الرجال لها، ولم تفرض، في أي زمن من الأزمان، قانونها الخاص بنفسها.

لم تعرف الأزمنة البدائية ثورة تضاهي استبدال الانتساب إلى الأم بالانتساب إلى الأب. فقد استحالت الأم نتيجة لذلك، على مرضع وخادمة. أما سلطة الأب فازدادت رسوخاً. هو الذي يتمتع بالحقوق ويورثها من بعده.

ها هو ذا يعلن على لسان أبولون: «ليست الأم هي التي تحدث ما يسمى طفلها، فهي ليست سوى مغذية للبذرة المزروعة في أحشائها. أما الرجل وحده فهو الذي يحدث الطفل.

لذلك لم تعد المرأة سوى عبدة، بعد ما كُرِّست للإنجاب والأعمال الثانوية، وبعد أن رفعت عنها أهميتها العملية وسحرها الغيبي».

وقد صور الرجال هذا الانتصار كنهاية لصراع عنيف. فمثلت الأساطير الآشورية والإغريقية انتصار قوى الرجولة في عالم الطبيعة والأفلاك.

والحقيقة أن الانتقال إلى الحق الأبوي جرى بصورة بطيئة. ولم يكن هناك صراع أو ظفر أو انكسار. على أن هذه الأساطير تخفي مغزى بعيد الدلالة. فالعلاقة مع «الجنس الآخر» أخذت شكل مأساة فقد أكد الرجل نفسه كشخص، ذي كيان حر، لأن وجود «الآخر» تهديد وخطر. لذلك نرى الديانات القديمة ومجموعات القوانين تنظر إلى المرأة نظرة عداء لأن هذه الديانات ظهرت وسجلت في عهد انتصار حق الأبوّة.

من الطبيعي أن يكون الوضع المخصص للمرأة وضع إلحاق وتبعية. وقد يخيل إلينا أنهم نظروا إليها نظرة حسنة كما ينظرون إلى أطفالهم ومواشيهم ولكن مثل هذا الأمر لم يحدث إطلاقاً. كان المشرعون الذين نظموا اضطهاد المرأة يشعرون تجاهها بالخوف، لذلك استحالت من مقدسة إلى دنسة.

فالمرأة إذن، تعني السلبية المعاكسة للنشاط، والتعدد المهدد للوحدة، والمادة المقاومة للقاعدة، والفوضي المناوئة للنظام.

يقول فيتا غورس: «هناك مبدأ خير انبثق من النظام والنور والرجل، ومبدأ شر خلق الفوضي والظلمة والمرأة».

على أن الشر ضروري للخير، والمادة للفكر، والليل للنهار. والرجل يعلم جيداً أنه بحاجة إلى المرأة ليطفئ شهواته ويديم وجوده. فلا بد إذن من ضمها إلى المجتمع. لذلك تستطيع المرأة أن تتطهر من دنسها الأصلي بالخضوع للنظام المشرع من قِبَل الرجال.

تقول قوانين الديانة المانوية: «تكتسب المرأة المتزوجة شرعياً نفس خصائص الزوج كالنهر الذي يضيع في المحيط».

أما الديانة المسيحية فرغم بُغضها الجسد، تحترم العذراء والزوجة العفيفة المطيعة.

هكذا بقيت المرأة خاضعة لإرادة الرجل حتى اليوم تجعل منها التبعية التامة للرجل مجرد شيء من الأشياء على أن "الجنس الآخر" يبقى مع ذلك محافظاً أما الرجل بسحره الأصلي. فكيف يستطيع الرجل إذن أن يجعل من الزوجة خادمة ورفيقة في الوقت نفسه. هذه مسألة حاول حلها بأشكال مختلفة خلال العصور مما أحدث تطوراً في مصير المرأة.

* * *

بها أن المرأة خُلعت عن عرشها الإلهي بحلول المُلكية الفردية فقد كان مصيرها مرتبطاً خلال الزمن بهذه المُلكية. وأن تاريخها يختلط اختلاطاً بعيداً بتاريخ الميراث. وتصبح أهمية هذا النظام مفهومة إذا تذكرنا أن المالك يقنص وجوده في المُلكية ويتمسك بها أكثر من حياته. فهي تجاوز نطاق الحياة المحدود وتجسد الروح الخالدة.

لذلك يرفض الرجل أن تشاركه المرأة في أملاكه وأولاده. على أنه ليس بوسعه دائماً أن يفرض مثل هذه الرغبة فرضاً كلياً دائماً. ولما كان بالغ القوة في عهد السلطة الأبوية فقد خلع عن المرأة كل حقها في امتلاك وانتقال الملكية، ومن المنطقي أن ينكر عليها ذلك. إذ لم تعد المرأة تُعار، حين الزواج، من عشيرة إلى أخرى، بل صارت تنفصل انفصالاً جذرياً عن عشيرتها وتلحق بعشيرة زوجها أما أولادها فيتبعون أسرة الزوج. لذلك حُرمت من الميراث؛ وبها أنها لا تكتسب صفة الشخص بل تصبح جزءاً من أملاك الرجل حتى أن الأب يستطيع قتل بناته بعد الولادة. وإذا قَبِلَ بالإبقاء عليهم فإنه يعبر عن الرجل حتى أن الأب يستطيع قتل بناته بعد الولادة. وإذا قبِلَ بالإبقاء عليهم فإنه يعبر عن المحائه. والمرأة لا تدخل هكذا في المجتمع إلا إذا منّ عليها الرجل بذلك، ولما كانت المرأة كالمتاع فقد كان حق الرجل أن يتزوج بقدر ما يشاء، تبعاً لإمكانياته الاقتصادية، كها من حقه أن يهجر المرأة حسب هواه. وعلى العكس من ذلك، فإنه يطلب من المرأة عفة تامة.

حين تكون الأسرة والمُلكية الفردية أساساً للمجتمع دون اعتراض تكون المرأة عديمة المركز. وفي النظم التي تجعل المرأة تحت الوصاية، يثير وضع الأرمل مشكلة. فقد يصار إلى التخلص منها بتضحيتها فوق قبر زوجها إلا أنها توضع في أغلب الأحيان تحت تصرف ورثة الزوج.

إلا أن الحق الأبوي لم يكن يطبق بصورته المطلقة. فقوانين حمورابي مثلاً تقر للمرأة ببعض الحقوق. فتأخذ حصة من إرث الأب وحين تتزوج يقدم لها والدها بائنة. إلا أن خير وضع للمرأة كان في مصر القديمة. على أن ذلك لم يكن نتيجة للصدفة، فقد كانت الأرض تابعة للملك والطبقات العليا، أما الطبقات الدنيا فلم يكن لها الحق في التملك بل يحق لها التمتع والاستثار، وتبقى الأملاك والأراضي موقوفة. لذلك حافظت المرأة على مقامها كشخص لأن الأملاك الفردية غير موجودة. وفي اليونان كانت العادات قريبة من العادات الشرقية، إلا أنهم لم يكونوا يطبقون تعدد الزوجات. كانت المرأة في أثينا قاصرة طيلة حياتها حيث يظل زوجها وصياً عليها وإلا فإنها تقع تحت وصاية الدولة عمثلة في الموظفين العامين.

كان اضطهاد المرأة يرجع إلى الرغبة في تخليد الأسرة والمحافظة على الأملاك فمقدار ما تتحرر من التبعية. فإذا أنكر المجتمع المُكية الفردية والأسرة بالتالي، فإن حظ المرأة يتحسن تحسناً كبيراً. ففي مدينة سبارطة الخاضعة لنظام المشاع كانت المرأة معادِلة للرجل تماماً. وكانت الفتيات يربين مثل الصبيان.

وقد عرفت الشعوب البدائية البغاء المقدس. يروي هيرودوت أن المرأة في بابل كانت مضطرة أن تستسلم مرة في حياتها ضمن المعبد. ثم استحال البغاء المقدس إلى بغاء قانوني حين وجدت طبقة الكهنوت فيه وسيلة للاغتناء. ففي الجزر اليونانية مثلاً:

كانت المومسات يستسلمن للغرباء. أما الأموال المحصلة فكانت تخصص للعبادة أي للكهان وبصورة غير مباشرة لتأمين مصاريفهم. وقد جعل صولون من البغاء مؤسسة رسمية فكانت الجواري الأجنبيات يقبضن أجورهن المحددة. أما الأرباح الفائضة فتعود إلى الدولة، ثم انضمت إليهن اليونانيات الفقيرات.

إن أرسطو يعبر عن الرأي السائد حين يقول: «إن المرأة امرأة لنقص فيها. وعليها أن تلزم بيتها كتابعة لزوجها» على أن وضعها البسيط لم يكن ليحول دون التعريض بها. يقول هيبوناكس: «لا تسعدك المرأة في الحياة إلا يومين: يوم الزفاف ويوم دفنها».

* * *

لم يتطور وضع المرأة بصورة متصلة. فالغزوات الكبرى قلبت كل شيء والحقوق الرومانية نفسها تأثرت بعقائدية جديدة: المسيحية. ثم انتصرت في العصور التالية قوانين البرابرة. لقد انقلب الوضع الاقتصادي والاجتهاعي والسياسي وتأثر وضع المرأة بهذا الانقلاب. ولا شك في أن الإنجيل تضمن نفحة من المحبة دفعت المساكين والعبيد والنساء إلى التمسك بالقانون الجديد. وكانت النساء يوم خضوعهن للكنيسة في أيام المسيحية الأولى، معززات نسبياً، وصار بإمكانهن أن يكن شهيدات مثل الرجال. ولكنهن لم يستطعن الإسهام في العبادة إلا بصفة ثانوية. ولئن اعتبر الزواج نظاماً يتطلب الإخلاص من الطرفين فإن المرأة كانت مضطرة إلى أن تكون ملحقة إلحاقاً كاملاً بالرجل. وقد أرسى القديس بول خاصة مبدأ إلحاق المرأة بالرجل استناداً إلى العهد القديم والعهد الجديد. «كها تخضع الكنيسة ليسوع فلتخضع المرأة للزوج».

يقول القديس إمبراوز: «سارت حواء بآدم نحو الخطيئة ولم يسر آدم بحواء نحوها. من قادته المرأة إلى الخطيئة من حقه أن يستُقبل استقبال الأسياد».

ولما شرعت الحقوق الدينية بدا الزواج كاستجابة للضعف البشري؛ فهو لا يتفق مع الكمال المسيحي. واعتباراً من غريغوار السادس، فُرضت العزوبية على القس، وجرى التأكيد على طابع المرأة الخطر. لذلك لا تقبل الحقوق الدينية سوى نظام البائنة الذي يجعل المرأة قاصرة بغير حقوق. فلا يحق لها مثلاً الشكوى أمام العدالة كما لا تقبل شهادتها. وتأثر الأباطرة تأثراً نسبياً بآباء الكنيسة فتشريع جوستينيان يمجد المرأة كزوجة وكأم يخضعها لواجب هاتين المهمتين. ويعود قصورها إلى الوضع الذي تحتله في الأسرة وليس إلى جنسها.

وفي المناطق التي كانت خاضعة للبرابرة، كانت التقاليد الجرمانية هي السائدة، كانت أعرافهم غريبة؛ فلم يكونوا يعترفون برئيس إلا أيام الحروب، أما في أوقات السلم فكانت الأسرة تشكل مجتمعاً مستقلاً. وكانت المرأة دائهاً تحت الوصاية إلا أنها كانت تشترك مع الرجال اشتراكاً وثيقاً في حياة الأسرة.

امتدت هذه التقاليد حتى القرون الوسطى. بيد أن «الفرانك» كانوا في عهد الأسرتين الميروفنجية والكارولانجية ويتزوجون بعدة نساء. ولم تكن ثمة حاجة إلى الحصول على موافقة المرأة لتزويجها. كما كان الزوج يهجرها وفق هواه، وكان له عليها حق الموت والحياة وكان يعاملها معاملة الخادمة.

كانت المرأة محمية من القانون ولكن على اعتبار أنها مُلك للرجل وأم لأطفاله. أما كشخص فلم يكن لها أي حق؛ وأما كأم فكانت تساوي أكثر من الرجل، فالمرأة الولود مثلاً تساوي ثلاثة رجال أحرار، والمرأة العاقر ليس لها أية قيمة.

* * *

ر ولما ازدادت قوة الدولة لم تعد الوصاية على الأطفال والنساء حقاً مرتبطاً بالأسرة بل حقاً عاماً، واحتكر الملك تدريجياً كل السلطات التابعة للأسرة، على أنه لم يكن من شأن هذا التغيير أن يؤدي إلى تحرير المرأة.

42 الجزء الأول: مصير المرأة

أهم ما يميز الحقوق في عهد الإقطاع هو التشابك بين حق السيادة وحق المُلكية، بين الحقوق العامة والحقوق الخاصة، وهذا ما يفسر تقلب وضع المرأة بين الارتفاع والانخفاض في هذا النظام. وترينا كثير من الملاحم الشعرية في القرون الوسطى كيف يتصرف الملك أو السيد الإقطاعي في زواج الأرامل والفتيات. هذه الحضارة الغربية لم تكن تحس تجاه المرأة إلا بالازدراء. فالفارس لا يهتم بالمرأة بل يفضل عليها حصانه. وفي الملاحم الشعرية نرى النساء يقمن هن بالمبادرة.

ادعى بعضهم أن «الحب الرفيع» الذي ظهر في القرن الثاني عشر في جنوبي فرنسا حسن من وضع المرأة. وكثيراً ما وُصف هذا الحب على أنه حب أفلاطوني. وكان ينفس عن وحشية الطباع والعادات الرسمية. وكها يقول أنجلز: «إن لحب بالمعنى الحديث لهذه الكلمة لم يكن يجري قديها إلا خارج نطاق المجتمع الرسمي». وعلى كلّ ليست الأفكار والأشعار هي التي تؤدي إلى تحرير المرأة. ولأسباب مخالفة تماماً تحسن وضعها قليلاً في أواخر العهد الإقطاعي. ذلك أن سلطة الملك حين ازدادت، رفعت عن النبلاء بعض صلاحياتهم فأخذوا يقررون مثلاً أمر زواج تابعاتهم.

إلا أن العناصر التي كانت تتضافر ضد استقلال المرأة كانت من الكثرة بحيث لم يحدث مطلقاً أنها ألغيت تماماً، صحيح أن ضعف المرأة الجسمي لم يعد يتدخل إلا أن تبعية المرأة بقيت مفيدة للمجتمع في حالة الزواج. لذلك بقيت سلطة الزوج بعد زوال النظام الإقطاعي. وهكذا نشاهد نفس التناقض الذي ما يزال موجوداً إلى الآن. فالمرأة الأكثر اندماجاً في المجتمع أي المرأة المتزوجة هي التي تتمتع بأقل قسط من الامتيازات. ولئن كان الزوج وصي الزوجة في عهد الإقطاع، فإن البورجوازية حافظت، حين تشكلها، على القوانين نفسها.

في الحقوق الدينية كما في الحقوق الإقطاعية لا تكون المرأة متحررة إلا خارج نطاق الزواج. فالفتاة والأرمل لهما نفس إمكانية الرجل. أما إذا تزوجت المرأة صارت تحت وصاية الرجل الذي يستطيع التصرف بثروتها بمجرد الزواج وليس بالاستناد إلى عقد لأن مصلحة الأملاك تقتضي أن يكون هناك سيد واحد يسهر على إدارتها. هكذا يضحى بالمرأة المتزوجة منذ عهد الإقطاع حتى يومنا هذا، عمداً، في سبيل الملكية الخاصة. وإن

هذا ليظهر بشكل خاص عند الطبقات الغنية، أما الفقر المتبادل فيجعل من الزواج علاقة متبادلة.

لم تتحرر المرأة بفضل النظام الإقطاعي ولا بفضل الكنيسة، بل بالأحرى ابتدأ الانتقال من الأسرة الأبوية إلى الأسرة الزواجية المشتركة الصحيحة اعتباراً من الرق.

كان رقيق الأرض لا يملكون مع زوجاتهم إلا حق التمتع المشترك بالمنزل والأثاث وأدوات المنزل. فلم يكن للرجل إذن أي سبب يدفعه إلى التسلط على زوجته لأنها لا تملك شيئاً. وعلى العكس من ذلك، كانت علاقات العمل والمصالح التي تربط بينها، ترفع الزوجة إلى مرتبة رفيعة. ولما ألغي الرق بقي الفقر. فكان يُرى، في بيوت الريفيين والحرفيين، الزوجان وهما يعيشان على قدم المساواة. المرأة في مثل هذه الحال، لا يمكن أن تكون متاعاً أو خادماً لأن هذا بذخ لا يتاح إلا للأغنياء. ففي العمل الحر، تحصل المرأة على استقلالها الفعلي لأنها تعود إلى احتلال دور اقتصادي واجتماعي.

والحكايات الهزلية التي تصور المجتمعات البسيطة في القرون الوسطى مجتمعات الريفيين والحرفيين وصغار التجار، نرى الزوج لا يتمتع بأي امتياز سوى ضرب زوجته التي تقابل قوته بحيلتها ومكرها؛ فيصبح الطرفان متعادلين. في حين أن المرأة الغنية كانت تدفع بالخضوع ثمن بطالتها.

وفي القرن السادس عشر جرى جمع القوانين الباقية خلال النظام الملكي القديم هذه القوانين التي كانت متأثرة بالحقوق الرومانية والتي تنظر إلى المرأة نظرة احتقار. فكانت كل الاتهامات التي توجَّه للمرأة كالحهاقة والضعف قد اتخذت أساساً لتبرير نصوص القوانين الموجهة ضد المرأة.

هكذا كان وضع المرأة الفرنسية في النظام الملكي القديم. كانت تبدو في العمل وفي الأمومة كخادمة أكثر من رفيقة. أما الأشياء والقيم والأطفال التي توجدها المرأة فلا تخصها هي، بل تخص الأسرة، وبالتالي الزوج رب الأسرة.

وفي البلاد الأوروبية الأخرى، لم يكن حظها أحسن، لأن مجموعات القوانين الأوروبية شطرت اعتباراً من الحقوق الكنائسية والحقوق الرومانية والحقوق الجرمانية

التي كانت جميعها مجحفة بحقوق المرأة. كل البلاد إذن كانت تطبق المُلكية الفردية والأسرة وتخضع لمستلزمات هذه النظم.

كان من نتيجة استعباد «المرأة الشريفة» في كل هذه البلاد وجود البغاء. لذلك كانت المومسات الموضوعات على هامش المجتمع يقمن بدور أساسي فيه، فالمسيحية تزدريهن ولكنه ترضى بهن كشر لا بد منه.

يقول القديس أوغستان: «احذفوا المومسات، تكدروا المجتمع بالخلاق».

كان تنظيم المجتمع إذن يجعل من البغاء ضرورة. يقول شوبنهاور: «البغايا هن الضحايا البشرية على مذبح الزواج بواحدة».

وقال أحد مؤرخي الأخلاق الأوروبية، ليه كي: «البغايا أعلى نموذج للفجور، وأنشط حراس للفضيلة».

البغايا مجبرات مثل اليهود في ألمانيا النازية، على ارتداء أثواب مميزة تحمل إشارات خاصة.

في مثل هذه الشروط يستحيل على المرأة أو من النادر جداً أن تظهر. ففي الطبقات العاملة، يلغي الاضطهاد الاقتصادي التمييز بين الجنسين، إلا أنه يقضي على كل أمل للشخص مهما يكن جنسه. أما عند النبلاء والبورجوازيين فالمرأة مضطهدة كجنس. وبصفتها جنساً آخراً، ليس لها إلا وجود طفيلي، فهي محدودة التعليم وينبغي حدوث ظروف استثنائية لتفكر في هدف ملموس تحققه.

قليلاً ما كان رأي الرجال في القرون الوسطى في صالح المرأة. صحيح أن «الأدب الرفيع» يشيد بالحب إلا أن الأدب المتأثر بالأوساط البورجوازية كان يهاجم المرأة بـ «خبث» على أن أشد أعدائها هم رجال الدين.

لا التعلم، إلا التعلم التعلم

* * *

يُقال إن الوضع القانوني للمرأة بقي على حاله من مطلع القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. إلا أن وضعها الفعلي عند الطبقات ذات الامتياز قد تطور. فالنهضة الإيطالية كانت عصر الفردية وكانت مناسبة لتفتح الشخصيات القوية بغض النظر عن الإيطالية كانت عصر الفردية وكانت مناسبة لأكثرية كانت تأخذ شكل الخلاعة. أما الأخلاق الجنس. إلا أن الحرية بالنسبة إلى الأكثرية كانت تأخذ شكل الحلاعة. وأما الزدهار السائدة فبقيت بصورة عامة على ما كانت عليه في القرون الوسطى. وأما ازدهار السائدة فبقيت بصورة عامة على ما كانت عليه كانت النساء تُظهر إمكانيات مثل الشخصية فلم يكن ميسوراً إلا لعدد محدود. حينئذ كانت النساء تُظهر إمكانيات مثل الرجال في حالة تكافؤ الفرص، على أن هذه الفرص بقيت في الواقع غير متساوية.

وفي القرن السادس عشر كانت النساء محدودات التعليم، إلا أنهن تقدمن في الميدان الفكري خاصة، خلال القرن السابع عشر. فقد توسعت الحياة الاجتهاعية وازداد دور المرأة في الحلقات الأدبية. ولما لم تكن منهمكة في بناء العالم فقد كان بإمكانها الاستمتاع بالمحادثة والفنون والآداب. ولم يكن تعليم النساء مهما، إلا أنهن كن يحصلن على الثقافة عن طريق المحادثات والقراءات والمعلمين الخصوصيين. وفي القرن الثامن عشر ازداد استقلال المرأة وحريتها، أما العادات فبقيت قاسية شديدة، فلم تكن الفتاة تأخذ إلا قسطاً محدوداً من الثقافة. كما كانت تُزوَّج أو توضع في الدير دون استشارتها.

إن البورجوازية الصاعدة فرضت على الزوجة أخلاقاً شديدة. أما طبقة النبلاء السائرة إلى الانحطاط والانحلال فكانت تسمح للنساء البارزات بالمجون. ثم انتقلت العدوى إلى البورجوازية فلم تعد الأديرة أو المنازل الزوجية تستطيع إيقاف النساء.

هكذا بقيت الحرية، للمرة الثانية بالنسبة إلى أكثر النساء، سلبية ومجردة. فكانت محدودة في البحث عن اللذة. وقليلات كن الذكيات الطموحات اللواتي خلقن لأنفسهم مجالاً للنشاط.

أما حياة الصالونات فقد اتسعت. يقول مونتيسكو بأن كل شيء يمكن عمله في فرنسا بواسطة النساء؛ فهن يشكلن «دولة جديدة ضمن الدولة».

هكذا كان الميدان الثقافي خلال العهد الملكي القديم، أقرب منالاً بالنسبة إلى النساء. على أنه ما من واحدة وصلت إلى القمة وصارت مثل دانته وشكسبير. هذا الأمر يفسر 46 الجزء الأول: مصير المرأة

بوضعهن العام البسيط. فلم تكن الثقافة سوى امتياز تحظى به بغض النظر عن العوائق التي كانت توضع في طريقهن.

* * *

قد ينتظر البعض من الثورة الفرنسية أن تغير مصير المرأة. لكن لم يحدث شيء من هذا. فالثورة البورجوازية احترمت النظم والمفاهيم البورجوازية وكانت تقريباً من صنع الرجال فقط. ومن المهم أن نشير إلى أن نساء الطبقات الكادحة، إبان العهد الملكي القديم، كن أكثر من غيرهن استقلالاً. وكان يُنتظر منهن أن يؤكدن أنفسهن كأشخاص... إلا أن تقاليد الحياء والخضوع كانت تقيدهن. والشعب لم يكن هو الذي قام بتوجيه المشروع الثوري ولم يكن هو الذي قطف ثهار الثورة. أما نساء البورجوازية فكن مندمجات بالأسرة لدرجة حالت دون نشر تضامن فعلي بينهن. ولم يكن يشكلن طبقة قائمة بذاتها تستطيع فرض مطالبها، لأنهن كن طفيليات من الناحية الاقتصادية.

ولن يكون ممكناً للكادحات الحصول على حقوق لم تحصل عليها مطلقاً النساء النبيلات والبورجوازيات الطفيليات، إلا حينها تصبح السلطة في يد الكادحين.

صحيح أن فرنسا كانت متقدمة على غيرها من البلاد من الناحية النسائية، إلا أن من سوء حظ المرأة الفرنسية الحديثة، أن وضعها الاقتصادي قد بت فيه في عهد ديكتاتورية عسكرية؛ لأن مجموعة قوانين نابليون التي ثبتت وضعها خلال قرن كامل قد أخّرت كثيراً من تحررها.

فالزوج يهارس سلطته بشدة على شخص الزوجة وأموالها أيضاً.

ولم تفعل اجتهادات المحاكم، خلال القرن التاسع عشر، سوى ترسيخ شدة قوانين نابليون؛ لأن البورجوازية لم تكن، في أي وقت من الأوقات، في مثل هذه القوة. ولكنها كانت تدرك، في الوقت نفسه، ما تحويه الثورة الصناعية من تهديد لكيانها. لذلك كانت تبسط نفوذها وهي تحس بالقلق، ولم تؤثر الحرية الفكرية المتوارثة عن القرن الثامن عشر في أخلاق الأسرة التي بقيت كها حددها في مطلع القرن التاسع عشر المفكرون الرجعيون الذين طالبوا بمجتمع يسوده التسلسل مع اعتبار الأسرة الخلية الأساسية في المجتمع.

وطالب الفيلسوف (أوغست كونت) بصورة مختلفة اعتماد مبدأ تسلسل الجنسين فبالنسبة إليه تعتبر الأنوثة «طفولة مستمرة» بعد المرأة عن «النموذج المثالي للعرق، بدعوى أن هذه الطفولة البيولوجية تقود إلى ضعف فكري. والدور الوحيد لهذا الكائر العاطفي المنفعل هو دور الزوجة وربة البيت؛ فلا يمكنها بشكل من الأشكال منافسة الرجل. فهو يقول الا يمكن للمرأة أن تصبح من زمرة المؤلفين شأنها في ذلك شأن العُمّال البروليتاريين، ولكنه رفع المرأة إلى مرتبة الألوهية في الجزء الثاني من مؤلفه بعد ما تأثر بحب إحدى النساء.

ويعبر «بالزاك» أيضاً عن نفس المثال الأعلى للمرأة. فهو يقول في «فيزيولوجيا الزواج»: ﴿إِنْ مُصِيرُ المُرَأَةُ وَمِجْدُهُا الوحيدُ هُو فِي دَفْعُ قُلُوبِ الرَّجَالُ عَلَى أَنْ تَخْفُقَ لها، والمرأة بالنسبة إليه متاع منقول يحصل عليه عن طريق العقد. ولا تعتبر سوى ملحق بالرجل. إنه ينطق هنا بلسان البورجوازية التي اشتد عداؤها للنساء بعد مجون القرن الثامن عشر وضد الأفكار التقدمية المهددة لها». ويحث بالزاك الزوج على إبقاء المرأة في حالة الخضوع التام. وعليه أن يرفض تعليمها وتثقفيها وأن يمنع عنها كل ما من شأنه تطوير شخصيتها وأن يفرض عليها ثياباً غير مناسبة وأن يجبرها على نظام يضعف جسدها.

ولكن بالزاك يعوض على النساء، تجاه هذه الشدة، بإحاطتهن بكل التصرفات المهذبة، يقول: «المرأة المتزوجة عبدة ينبغي لنا أن نعرف كيف نرفعها على العرش».

لذلك يبادر إلى تجنيبها الأعمال الشاقة؛ وهذا يعني في الوقت نفسه إعفاءها من كل مسؤولية.

على أن المقاومات العنيدة لا يمكنها إيقاف سير التاريخ، فحلول الآلية في الإنتاج العام يهدم الملكية العقارية ويقود إلى تحرير الطبقة العاملة وبالتالي المرأة.

إن قضية المرأة تأثرت بالأفكار التي تشيد بالمرأة وباسم أنوثتها وتأبى أن تشبهها بالرجل بل تقر لها بالحدس والعاطفة دون العقل.

إلا أن الحركة الإصلاحية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر كانت مؤيدة للحركة النسائية، لأنها تبحث عن العدالة ضمن المساواة. وفي هذا المجال يعتبر المفكر «برودون» استثناء للقاعدة، وليس من شك في أن منشأه الريفي قد أثّر فيه. فهو يهاجم سان سيمون بشدة وبقية من أنصار المُلكية الصغيرة، وبالتالي طالب بإبقاء المرأة في البيت. ويظن برودون أن المرأة تتأرجح بين حالتين «إما سيدة بيت أو خليلة».

برودون هو الذي قطع التحالف بين الحركة النسائية والاشتراكية. وفي كتابه «العدالة» يقول بأن على المرأة أن تظل مرتبطة بالرجل. والرجل وحده مهم كفرد اجتهاعي وأنه ليس بين الزوجين اشتراك قد يفترض المساواة بل اتحاد.

لم تكن هذه المجالات النظرية هي التي أثرت في مجرى الحوادث، فالمرأة استعادت الأهمية الاقتصادية التي فقدتها منذ عصور ما قبل التاريخ. وخرجت من البيت لتساهم في الإنتاج ضمن المعامل. والآلة هي التي سمحت بهذا الانقلاب لأن الفوارق الجسدية بين الذكور والإناث أصبحت لاغية في كثير من الأحيان. ولما كان ازدهار الصناعة الفجائي يتطلب يداً عاملة كثيرة لا يستطيع الذكور وحدهم تأمينها، أصبحت مساهمة المرأة ضرورية.

هذه هي الثورة الكبرى التي حولت في القرن التاسع عشر مصير المرأة وفتحت لها آفاق عهد جديد.

إن ماركس وأنجلز يقدران أهمية هذا الحادث ويعدان المرأة بحرية تفرضها حرية البروليتاريا. وقد بين أنجلز أن مصير المرأة كان دائهاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الملكية الخاصة التي استبدلت الحق المرتكز إلى الأمومة بالحق الأبوي. إلا أن الثورة الصناعية ستعيد إلى المرأة حريتها السلبية.

* * *

كانت المرأة في مطلع القرن التاسع عشر مستثمرة ببشاعة أكثر من العُمّال الذكور. وكان أرباب العمل يفضلون النساء على الرجال. والعبارة القائلة: «يعملون خيراً من الرجال بأجور أخفض» تلقي النور على مأساة العمل النسوي.

يقول بلانكي: «في مدينة ليون، بعض النساء يشتغلن وهن معلقات مستخدمات أرجلهن وأيديهن معاً». وفي عام 1831 كانت عاملات الحرير يشتغلن في الصيف من الساعة الثالثة صباحاً حتى المساء؛ وفي الشتاء من الخامسة صباحاً حتى الحادية عشرة مساءً؛ أي سبع عشرة ساعة في اليوم ضمن ورشات غير صحية لا تدخل إليها أشعة الشمس أبداً.

وكتب درفيل: «المرأة في هذا اليوم إما حيوان للبذخ أو حيوان للجر». إن عادة الرضا والخنوع ونقص التضامن والشعور الجماعي، إن هذه العادة هي التي تركت النساء دون سلاح أمام الإمكانيات الجديدة المتفتحة أمامهن. ونجم عن ذلك أن القانون المنظم للعمل النسائي لم يصدر إلا في وقت متأخر. كن مضطرات إلى القبول بأجور منخفضة، خاصة أنهن لم يكنّ يعرفن الدفاع عن أنفسهن ضد المستثمرين المستغلين. ويجدر الملاحظة أن ارتباط المرأة ببيت والدها أو زوجها كان لا يستلزم منها إلا تقديم عون إضافي. كانت تشعل خارج الأسرة ولكن من أجلها. ولما لم تكن تعمل لتفي بجميع احتياجاتها كانت تضطر إلى قبول أجور أقل من أجور الرجال.

وبها أن نساء كثيرات كن يرضين بأجور منخفضة فإن المعدل العام لأجور النساء كان يتكيف مع أدنى حد وأنسبه لرب العمل.

ولئن أقبل أرباب العمل على استخدام النساء لهذا السبب، فإن هذا السبب نفسه ولد مقاومة عند العُمّال الذكور، لذلك لم ينشأ تضامن مباشر بين قضيتي البروليتاريا والنساء. إن مثل هذا الحادث يجري بصورة مقاربة مع العُمّال السود في أميركا.

يستعمل أرباب العمل الأقليات الأكثر تعرضاً للاستثمار والاضطهاد ضمن مجتمع ما، كسلاح ضد مجموع الطبقة التي ينتمين إليها. وهم يظهرون في بداية الوقت كأعداء. وينبغي ارتفاع مستوى الوعي كي تنجح مصالح السود والبيض، والنساء والرجال في التضامن بدل التناحر والتنافر.

ولم تستطع النساء الدفاع عن مصالحهن الخاصة والتوقف عن تهديد مصالح الطبقة العاملة في مجموعها، إلا حين أدخلن في الحياة النقابية.

* * *

من المسائل الأساسية التي تثار بخصوص المرأة، التوفيق بين دورها في التناسل وعملها الإنتاجي. إن السبب العميق الذي حصر المرأة في العمل المنزلي، في بداية التاريخ،

ومنعها من المساهمة في تعمير العالم هو استعبادها لوظيفة التناسل. وفيها يخص تحديد النسل، قلبت الديانة المسيحية المفاهيم الخُلقية باعتبارها أن الرشيم ذو روح، حينتذ أصبح الإجهاض جريمة ضد الجنين ذاته.

إن تطور وضع المرأة يفسر تضافر العاملين التاليين: المساهمة في الإنتاج والتحرر من عبودية التناسل.

فيها يخص الحقوق السياسية فإن المرأة لم تتوصل إليها في فرسا وإنكلترا وأميركا بسهولة. وإن النساء لينتظرن الحرية من تحرر الغيّال بصورة عامة، ولا يتمسكن بقضيتهن الخاصة إلا بصورة ثانوية. أما البورجوازيات فيطالبن بحقوق جديدة ضمن المجتمع كها هو، ولا يدعين أنهن ثوريات، بل يردن إدخال بعض الفضائل على العادات كإلغاء الشرب والكتب الخليعة والبغاء.

والبلاد اللاتينية مثل البلاد الشرقية، تضطهد المرأة بحكم العادات أكثر بما تشهدها بحكم القوانين. وإيطاليا الفاشستية استبعدت المرأة للسلطات العامة وللزوج. أما في الاتحاد السوفياتي فإن الحركة النسائية كانت أوسع منها في أي بلد آخر. وقد ابتدأت تلك الحركة منذ أواخر القرن التاسع عشر حيث ارتبطت النساء في العمل الثوري أكثر مما ارتبطن بقضيتهن الشخصية. وكانت الثورة هي التي حررت العاملات. ومن الصعب استنتاج وضع المرأة الحالي في روسيا من خلال الشهادات العاطفية المتضاربة، إلا أن الأمر الأكيد، في يومنا هذا، أن السياسة العائلية بعد الحرب تقوم على اعتبار الأسرة خلية المجتمع الأولية والمرأة عاملة وربة بيت معاً.

* * *

إذا ما ألقينا نظرة على هذا الاستعراض التاريخي، ظهرت لنا عدة نتائج، أولها أن تاريخ النساء كان من صنع الرجال؛ لذلك كانت مسألة المرأة دائماً مسألة رجال. فهم الذين أمسكوا دائماً بمصير المرأة بين أيديهم، ولم يقرروا فيه تبعاً لمصلحتها، بل أخذوا بعين الاعتبار أهدافهم الخاصة ومخاوفهم وحاجاتهم. فلم يقدسوا - الإلهة - الأم إلا لأنهم كانوا يخشون الطبيعة، وما أن سمحت لهم الأدوات المعدنية بتحدي هذه الطبيعة حتى

أوجدوا النظام الأبوي. إن النظام الاجتهاعي القائم على المُلكية الخاصة هو الذي جرّ إلى الوصاية على المرأة المتزوجة، والثورة الصناعية التي حققها الرجال هي التي حررت نساء اليوم. والحركة النسائية لم تكن في يوم من الأيام حركة مستقلة، بل كانت إلى حدَّ ما أداة في يد السياسين. والنساء لم يشكلن قط طبقة منفصلة. والحقيقة أنهن لم يحاولن مطلقاً لعب يد السياسين. والنساء لم يتعتبر المرأة كجسد وحياة وجمود ك «جنس آخر» هي دور في التاريخ كنساء. والعقائد التي تعتبر المرأة كجسد وحياة وجمود ك «جنس آخر» هي عقائد ذكور لا تعبر بحال من الأحوال عن المطالب النسائية. إن أغلبية النساء ترضى بحظها دون أن تقوم بأي محاولة عمل، واللواتي حاولن تغيير حظهن والتدخل في مجرى العامل، فعلن ذلك بالاتفاق مع الرجال ومن خلال وجهات نظرهم.

إن هذا التدخل، كان إجمالاً، تدخلاً ثانوياً وعرضياً. فالطبقات التي تتمتع نساؤها بشيء من الاستقلال الاقتصادي وتساهم في الإنتاج هي طبقات مضطهدة، والنساء العاملات كن أكثر تعرضاً للاضطهاد من العُمّال. وفي الطبقات الحاكمة تبقى المرأة طفيلية، وبهذه الصفة تكون خاضعة لقوانين الرجال. وفي كلا الحالتين كان النضال مستحيلاً. إن الحقوق والعادات لم تكن دائماً متطابقة؛ فكان التوازن بينهما يحدث بصورة يستحيل على المرأة أن تكون حرة بصورة فعلية. وفي أوقات تفكك المجتمع، تتحرر المرأة، ولكنها إذ تكف عن كونها تابعة للرجل لا تربح سوى حرية سلبية تأخذ شكل الخلاعة والمجون.

ومهما يكن من تأثير النساء فإن الأصوات النسوية تسكت، حيث يبدأ العمل الفعلي. فقد استطعن إثارة الحروب ولكنهن لم يوحين بخطط القتال، ولم يوجهن قط السياسة إلا إذا أخذت هذه شكل مؤامرات. إن القيادة الحقيقية للعامل كانت دائماً في يد الرجال ولم يكن في أيديهن. إلا أن ظهور نساء مثل «مدام كوري» يثبت بوضوح بأن نقص النساء لم يكن هو الذي حدد تاريخهن العادي البسيط، بل إن تاريخهن البسيط هو الذي كتب عليهن هذا النقص. وإن الإنجازات الشخصية تصبح تقريباً مستحيلة لدى الفئات البشرية المقيدة جماعياً في وضع منخفض.

إن نساء كثيرات يردن اليوم أن ينتصر عندهن، كما في مجموع الإنسانية، التطور على الجمود وأن يمنحن أخيراً الحقوق المجردة والإمكانيات الفعلية التي تضحى الحرية، بدون تضافرهما، نوعاً من التعمية.

إن هذه الإرادة في طور التحقق، إلا أن الفترة التي نمر بها هي فترة انتقال وهذا العالم الذي كان دائماً تابعاً للرجال لا يزال في حوزتهم، وإن الأمر الذي يتحكم بالوضع الحالي للمرأة هو وجود أقدم التقاليد ضمن الحضارة الحديثة التي هي آخذة في التكون. والحقيقة أن وضعها غير متوازن، ولهذا السبب يصعب جداً التكيف معه. المعامل والجامعات تفتح أمام المرأة ولكن الناس لا يزالون يعتبرون الزواج أحسن مهنة للفتاة تغنيها عن كل مساهمة في الحياة الجماعية.

ولا يزال الأهل يربون ابنتهم في سبيل الزواج أكثر من أن يشجعوا تطويرها الشخصي. والفتاة ترى في ذلك من المزايا حتى أنها تتمناه لنفسها. وينجم عن ذلك أنها تكون غالباً أقل اختصاصاً من إخوتها وأقل اهتهاماً بمهنتها، لذلك تبقى أقصر باعاً فيها. حينئذ تصبح الحلقة فاسدة مغلقة فيقوي فيها نقصها الرغبة في إيجاد زوج.

إن العصر الحالي يقتضي من النساء العمل بل يضطرهن إليه، وفي نفس الوقت يغررهن بالبطالة واللذائذ. والنساء لا يزلن إلى الآن في حالة التبعية. وينجم عن ذلك أن المرأة تعرف نفسها وتختار لنفسها لا على أنها موجودة بذاتها بل كما يحددها الرجل. إن كونها «للرجل» عنصر جوهري من عناصر وضعها الواقعي.

الفَطَيْلُ الْخِامِيْنِ

صورة المرأة

إن صورة المرأة النموذجية تلعب دوراً مهماً في الأدب والحياة اليومية. فكل كاتب يعكس في إنتاجه أمزجة وأحوال مجتمعة وخيالاته عن المرأة المثلى إلا أن هذه الصورة النموذجية للمرأة تأخذ شكلاً مبايناً بالنسبة إلى كل فرد، حسب المقام الذي يعطيه لنفسه من حيث التحرر والارتقاء.

فالكاتب «مونترلان» يعتبر نفسه المتسامي المحوم في السهاء، أما المرأة فتركع عند أقدامه. أما «كلوديل» فبالنسبة إليه تقوم المرأة بإدامة الحياة في حين يتكفل الرجل بتمديد وثبة الحياة بالأعهال. وعند الشاعر «بروتون» ينعكس التسلسل: فالعمل والتفكير الواعي اللذان يشكلان ميدان تسامي الذكور هما غيبية سطحية تؤدي إلى الحرب والحهاقة والتنكر لما هو إنساني. والمرأة وحدها تستحق الإجلال لأنها تحمل راية السلم.

أما «ستاندال» فيعتبر المرأة كالرجل من حيث المجاوزة والسمو. وفي العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة تستكمل الحريات.

* *

هناك أنواع مختلفة للصورة النموذجية. فالصورة التي تسمو بأحد الأشكال الدائمة للوضع البشري، وهو انقسام الإنسانية إلى فئتين، هي صورة ساكنة. والإنسان يقذف في سهاء أفلاطونية واقعاً مستمداً من التجربة يستحيل إلى مفهوم. ويستعيض عن الواقع والقيمة والمغزى والقانون التجريبي بفكرة متسامية، واقعة خارج نطاق الزمن، ثابتة، ضرورية تكتسب صفة الحقيقة المطلقة.

هكذا تواجه الفكرة الصورية الوجود الموزع المتعدد للنساء، بالأنثى الخالدة الفريدة. فإذا ما تعارض تعريف الصورة النموذجية مع سلوك النساء الواقعيات فهن المخطئات.

تظهر النساء في الواقع الملموس بأشكال مختلفة، إلا أن كل صورة نموذجية تدعى أنها فريدة. والنتيجة هي وجود صور نموذجية متعددة لا يمكن لها أن تتعايش معاً. أمَّا الرجال فيبقون حالمين أمام التهلهل الغريب لفكرة الأنوثة.

يجب أن نميز بين الصورة النموذجية وإدراك المغزى، فتأمل الجسم المرأة ومقارنته مثلاً بالأزهار لا يعني الانتقال إلى الصورة النموذجية. أما إذا قلنا المرأة هي الجسد والجسد هو الليل والموت فإننا ننقطع عن الأرض.

إن أكثر الصور رسوخاً بالأذهان هي فكرة «لغز المرأة». فلهذه الفكرة مزايا عديدة أولها أنها تسمح لنا أن نفسر دون جهد ما يستعصي علينا تفسيره وبدل أن يقر الرجل بجهله، يقول بوجود لغز خارج شخصه.

الحقيقة أن اللغز متبادل، إلا أن القاعدة العامة تبقى صحيحة هنا أيضاً، فالرجال لا يواجهون الأشياء إلا من خلال وجهة نظرهم، إنهم يجهلون هنا كما في أي مجال المبادلة. ولئن كانت المرأة لغزاً بالنسبة إلى الرجل فإنه ينظر إليها كلغز بالذات.

إن العصور والطبقات التي لها مجال التمتع بالأحلام هي التي نصبت التهاثيل السوداء والبيضاء للأنوثة. صحيح أن أغلب الصور النموذجية ذات جذور في الموقف العضوي للرجل إزاء وجوده الخاص والعالم المحيط به. إلا أن مجاوزة التجربة إلى الفكرة المتسامية قامت به المجتمعات الأبوية عن عمد هادفة من وراء ذلك إلى تبرير ذاتها. فمن خلال الصور النموذجية كانت تفرض على الأفراد قوانينها وأعرافها بطريقة صورية محسوسة. وتحت شكل الصورة النموذجية، كان الواجب الجماعي يفرض نفسه في ضهائر الأفراد محاولاً عن طريقها استبدال التجربة الحية وما تستدعيه من أحكام حرة، بصنم جامد. إن الرجل، في الحقيقة، لا يفقد شيئاً إذا كفّ عن التعمية، وأقلع عن إخفاء المرأة تحت الرموز والطلاسم. كما أن تجربته لا يحل بها الفقر إذا رأت في المرأة كائناً إنسانياً. ولا يعني ذلك إلغاء الشعر والحب والتحلي عن الأحلام، بل يكون من نتيجته إرساء التصرفات والإحساسات على أسس واقعية حقيقية.

الجُنزُّ النَّانِيُ مرامل لَكوينَ المراة

الفَهَطْيِلُ الْأَوْلَ

الطفولة

لا يمكن لأي حدث بيولوجي أو نفساني أو اقتصادي أن ينفرد بتحديد الشكل الذي ستتخذه الأنثى البشرية في قلب المجتمع؛ لكن مجموعة الظروف الحضارية هي التي تكوِّن هذا المنتوج المتوسط بين الذكر والخصى، الذي نسبغ عليه صفة الأنوثة عند المرأة. إن الجسد لدى البنات والصبية لا يخرج عن كونه الإشعاع الذي يعبِّر عن وحدة الشخصية ويميزها عن غيرها كما أنه يشكل الأداة التي تساعد على تحسس العالم وتفهمه. إنهم يتحسسون ما يحيط بهم بواسطة العيون والأيدي وليس بأعضائهم التناسلية فلا فرق في ذلك بين الطفل والطفلة والفتاة والفتي. أما مأساة الولادة الفطام، فإنها تدور على الوتيرة ذاتها بالنسبة إلى مواليد الجنسين فهم يبدون الاهتمام نفسه بالنسبة للأشياء المحيطة بهم ويتمتعون بالمسرات نفسها ويكتشفون أسرار أجسامهم بالفضول نفسه أو عدم الاهتمام ويستمدون نفس المتعة الغامضة من اكتشاف أعضائهم التناسلية. وفي هذا تسعى الفتاة الصغيرة حتى الثانية عشرة من عمرها إلى أن تكتسب نفس متانة الجسم التي يمتلكها إخوتها، وتم عن إمكانيات فكرية مماثلة لإمكانياتهم حتى أنه لا يوجد أي مجال يتعذر على لافتة منافستهم فيه. وإذا كانت الفتاة تبدو لنا قبل بلوغها سن الرشد وأحياناً منذ حداثة طفولتها متميزة بطابع جنسي خاص فهذا لا يعود إلى وجود دوافع فطرية غامضة تؤهلها لحياة السلبية والتبرج والأنوثة،وإنها إلى كون تدخل الآخرين في حياتها يبدا أصلاً منذ السنوات الأولى لطفولتها فيفرض عليها مصيرها لمحتوم.

يظهر العالم للمولود الجديد في البدء، على شكل انفعالات كامنة في ذاته: فهو لا يظهر العالم للمولود الجديد في البدء، على شكل انفعالات كامنة في ذات أحشاء أمه ولا يزال غارقاً في لجة (الكل) كما كانت عليه الحال في زمن إقامته بين ظلمات أحشاء المنفصلة عنه يبرح واقعاً تحت تأثير حرارة جسدها. ثم يتعلم شيئاً فشيئاً تمييز الأشياء المنفصلة عنه ويبدأ بالتفريق بين ذاته وبينها. ولكنه يحس في ذات الوقت بالعزلة والوحدة والانفراد، خاصة بعد الفطام حيث يظهر حينئذ رغبة جارفة في حيازة إعجاب الآخرين بواسطة بعض الحركات والمظاهر ليعوض الفراغ الحاصل لديه من جراء انفصاله عن الجسم المرضع. ويناضل الطفل حين ينمو بوسيلتين ضد انعزاله الأصلي فهو يحاول أن ينفي وجود الانفصال فيتهالك بين ذراعي أمه ناشداً حرارتها الحية مستزيداً من مداعباتها. ثم هو يلجأ إلى الأشخاص الآخرين الراشدين الذين يعتبرهم كالآلهة لأنهم يستطيعون لوحدهم أن يمنحوه ميزة الشعور بوجوده. إنه ليشعر بسحر النظرة التي تحوله أحياناً إلى ملاك صغير وأحياناً أخرى إلى وحش، وحين ينجح في نيل إعجابهم تجد هذه النزعة تأكيداً جسدياً لها في القبلات والمداعبات التي يتلقاها.

لا يوجد هنالك إذن خلال الثلاث أو الأربع سنوات الأولى أي اختلاف بين وضعية البنات والصبية؛ إنهم يحاولون جميعاً إدامة العهد السعيد الذي سبق الفطام فنلحظ لدى الطرفين سلوك التظاهرات ولفت النظر ونصادف لدى الذكور نفس الرغبة التي تشعر بها الإناث في إثارة الابتسامات وحيازة الإعجاب.

في هذا العالم المشع بالغموض والمفاجآت يتعثر الطفل في كل خطوة يخطوها وهذا هو السبب في أن عدداً من الأطفال يرغبون البقاء صغاراً ويخشون النمو والكبر، وكثيراً ما يقعون فريسة لليأس إذا توقف الأهل عن تدليلهم بوضعهم على ركبهم وقبولهم ضمن أسرتهم. لكن الفتاة الصغيرة تتمتع في هذا المجال بامتياز كبير على الفتى، لأن الفتى يُحرم بشكل خاص تدريجياً من القبلات والمداعبات وكأن فطاماً ثانياً أقل عنفاً وأكثر بطأ قد فرض عليه. أما الفتاة الصغيرة فإننا نستمر في تدليلها بعد الفطام ونسمح لها بأن تعيش في ذيل أمها ونكسوها بالفساتين الناعمة ونتسامح معها إذا أرادت أن تكيد لنا ونضحك من حركاتها وتبرجها؛ كها تحميها اللمسات الجسدية والنظرات العطوفة من وحشة العزلة، وفي مقابل ذلك يحرم الصبي من كل مناورات نيل الإعجاب والتمثيليات فنقول له: وإن

الرجل لا يطلب القبل والمداعبات ... والرجل لا يبكي ... ولعل هذا هو السر الذي يدفع كثيراً من الفتيان الصغار إلى توجس الخيفة من الاستقلال الذي تفرضه عليهم حياتهم الجديدة، ويتمنون لو خلقوا فتيات. وقد قصّ موريس ساش يقول: «كنت أتمنى من كل قلبي أن أكون فتاة، وبلغ بي عدم الاهتام بعظمة الرجولة حداً جعلني أبول جالساً مقلداً الفتيات» ومع ذلك إذا ظهر لنا الصبي أقل محاباة من أخواته فإن ذلك يعود إلى الأمال الجسام يعلقها الأهل عليه مستغلين فيه نزعة الرجولة التي تؤلف هذا المفهوم المجرد الذي يتجسد عملياً لدى الذكر في عضوه التناسلي. ولا يشعر الفتى بالفخر والعزة تجاه عضوه التناسلي الصغير إلا من خلال نظرة الناس المحيطين به، فالعادة جرت لدى الأمهات والمرضعات على النظر إلى عضو الطفل التناسلي بعين العطف، قد حفظ لنا الأمهات والمرضعات على النظر إلى عضو الطفل التناسلي بعين العطف، قد حفظ لنا المحببة كها درج بعض النساء على التكلم مع العضو كأنها يمثل بالإضافة إلى شخصية المطفل الصغير شخصاً مستقلاً بذاته. وهكذا فإن العضو التناسلي لا يشكل بالنسبة للذكر المتازأ يستمد منه شعوراً بالتفوق وإنها زيادة في الاعتبار ابتكرها له الآخرون تعويضاً له امتيازاً يستمد منه شعوراً بالتفوق وإنها زيادة في الاعتبار ابتكرها له الآخرون تعويضاً له عن مصاعب فترة ما بعد الفطام لكنه يصبح منذ ذلك الوقت نتيجة للعادات والتقاليد، عبيداً ورمزاً لتفوق الذكر وسيادته المتعالية.

أما مصير الفتاة فهو مختلف تمام الاختلاف إذ لا تكنّ الأمهات والمرضعات لأعضائها التناسلية أي احترام أو عطف ولا يلفتن نظرها إلى هذا العضو الحفي الذي لا نرى منه في الحقيقة سوى غلافه ولا يسمح لنا بأن نمسكه بقبضة يدنا، لدرجة دفعت بعض العلماء إلى القول بأن الفتاة لا تملك عضواً جنسياً. وبذلك تكتشف الفتاة بأن وجودها في العالم يختلف عن وجود الفتى ويكفي أن تجتمع لديها بعض العوامل وتتفاقم كي يتحول هذا الاختلاف في نظرها إلى شعور بالنقص.

من المؤكد أن الوظائف التفريغية وبشكل خاص الوظائف البولية تلفت اهتهام الأطفال بشدة، فالتبول في السرير دليل عن احتجاج الطفل على تفضيل أهله لطفل آخر، وإذا كانت هنالك بلاد درجت فيها العادة أن يبول الرجال وهم قاعدون بينها تقوم النساء بذلك وهن واقفات، فإن العادة استقرت بصورة عامة في المجتمع الغربي المعاصر على أن

تجثو الفتاة بينها يحتفظ الرجل بامتياز الوقوف. ويشكل هذا الاختلاف بالنسبة للفنا بجنو الفاه بيها والمسلم الأشد بروزاً؛ فلكي تبول يجب عليها أن تجثو على قدميها وان الصغيرة الفرق الجنسي الأشد بروزاً؛ فلكي تبول يجب عليها أن تجثو على قدميها وان تتعرى وبالتالي يتحتم عليها أن تحجب نفسها عن عيون الناس.

ويزداد الخجل في الحالات التي تشكو خلالها الفتاة من الانفلاتات البولية غير الإرادية في حالة الضحك العنيف المتواصل مثلاً؛ فالسيطرة هي أقل متانة لديها مر الفتيان؛ لأن الوظيفة البولية تظهر لدى هؤلاء كلعبة مستقلة تتمتع بجاذبية بقية الألعار التي يهارسها الطفل في صباه؛ فالعضو التناسلي للذكر يمكن التحكم فيه وقيادته بكم حرية وهذا ما يجلب اهتهام الفتيات. يروى أن فتاة صغيرة صاحت بدهشة وإعجاب حين رأت صبياً وهو يبول: «يا لها من عملية سهلة مريحة!». وفي هذا يتحدث أبراهام عن «اللذة الطاغية التي تشعر بها المرأة حين تسقى الحديقة بأنبوب الماء»؛ وأنا أعتقد بالاتفاق مع نظريات سارتر وبشلابه أن هذا لا يعني بحكم الضرورة تمثيل العضو التناسلي للذكر بالأنبوب ولا يمكن أن يكون مصدر اللذة والسرور؛ فسقى الماء على هذه الطريقة يظهر للطفل الصغير بشكل المعجزة لأنه يعد تحدياً لقانون الثقالة: وإن قيادة العضو التناسلي للذكر والتحكم فيه يعد انتصاراً صغيراً على قوانين الطبيعة؛ وهو على كل حالة تسلبة يومية يتمتع بها الذكر وتُحرم منها الفتيات الصغيرات. وتلجأ بعض الفتيات الصغيران رغبة منهن في مزاولة تجربة التبول لدى الذكور إلى الانبطاح على ظهورهن في محاولة قذف المادة البولية ونحو الأعلى". كما تلجأ بعضهن إلى محاولة التبول في وضع الوقوف. وكما يقول اكارن هورني، فإن الفتيات الصغيرات يحسدن الصبية على الإمكانية الممنوحة لهم في عرض أعضائهم التناسلية أثناء التبول أمام الناس. ويروى أن فتاة مريضة صاحت فجأة بعد أن رأت في الشارع رجلاً يبول: ﴿إِذَا كَانَ لِي أَنَ أَطَلَبُ هَدِيةً مِنَ الْأَلِمَةُ فَسَأَطُلُبُ منحي إمكانية التبول مرة واحدة في حياتي كما يفعل (الرجل)، ويظهر أن هذا الشعور يعود إلى حرية الفتى في أن يمس عضوه ويستعمله كلعبة بينها لا تستطيع الفتيات أن يفعلن ذلك بسبب تركيبهن العضوي ولا شك أن هذه المجموعة من العوامل التي تثبر الرغبة لدى عدد كبير من الفتيات الصغيرات في امتلاك عضو تناسلي ذكر، هو أمر أكَّله عدد من التحقيقات والأبحاث والاعترافات السرية التي حصل عليها العلماء النفسانبون فمثلاً يورد لنا هقلوك إلياس بعض كلمات إحدى الفتيات التي يطلق علمال من وال 64 الجزء الثاني: مواحل تكور ١١٠٠. ضجة انبعاث الماء وخاصة حين يخرج من أنبوب سقي طويل كان دائهًا بالنسبة لي أمراً مثيراً يذكرني بالضجة التي كان يحدثها أخي والآخرون حين يبولون». وتقص فتاة أخرى أنها كانت تحب بشدة وهي طفلة صغيرة أن تمسك بين يديه العضو التناسلي لأحد رفاقها؛ وفي أحد الأيام وقع في يديها أنبوب للسقى فقالت: «ظهر لي في ذلك الوقت أنه مما يبعث على اللذة والسرور أن أمسكه كما كنت أمسك العضو التناسلي للذكر في حداثتي، لكنها تؤكد مع ذلك أنها لم تكن تشعر بأي إحساس جنسي في ذلك، وإنها يقتصر الأمر على فضولها في التعرف على أداة التبول لدى الفتيان. وأكثر هذه الحالات أهمية هي حالة فلورى التي أوردها هقلوك إلياس: «فلوري امرأة ذكية فنانة ذات حيوية شديدة عادية من وجهة النظر البيولوجية وقد روت لي أن الوظيفة البولية لعبت دوراً كبيراً في طفولتها؛ كانت تلعب مع إخوتها لعبات بولية فترشقهم ويرشقونها بهذه المادة دون أي قرف أو اشمئزاز". «كانت مفاهيمي الأولى حول تفوق الذكور على الإناث، ذات علاقة وثيقة مع الأعضاء البولية. وكنت أعتب على الطبيعة حرمانها لي من عضو مريح وسهل الاستعمال وذي شكل حسن كعضو الرجل، ولم يكن هناك من حاجة بي لتعلم نظرية هيمنة وتفوق الرجال على النساء. فقد كان لدي مَثَل حي، تحت عيني، إن هذه الحالة هي هامة بالطبع لأنها توضح عدداً من العناصر التجريبية في زمن الطفولة، ولكن الأمر لا يتعدى بالتأكيد بعض الظروف الخاصة التي أعطت هذه الظاهرة أهمية ضخمة بالنسب لفلوري. ذلك أن الامتياز البولي لدى الفتيان هو في أكثر الأحيان شيء ثانوي بالنسبة للفتيات الصغيرات اللاتي تلقين تربية طبيعية ولا يمكن أن يؤدي إلى الإحساس بشعور النقص.

إن التركيب الجسماني للذكر يوحي بالقوة لدرجة لا تستطيع معها الفتاة الصغيرة أن ترى جسمها الخاص. ويورد «سوسور» مثلاً على ذلك لفتاة صغيرة تبلغ الرابعة من عمرها محاولة أن تبول على طريقة الفتيان وهي تقول بأنها تريد «شيئاً صغيراً طويلاً قوياً» وهي تؤكد بالوقت نفسه أنها كانت تمتلك «قضيباً» أضاعته الآن، وهذا يتفق تماماً مع التفكير بطريقة «المشاركة» التي وصفها «بياجيه» لدى الأطفال. فالفتاة الصغيرة تفكر بكل براءة أن جميع الأطفال يملكون قضيباً حين الولادة لكن الأهل يلجأون بعد ذلك إلى قطع بعضها لتحويل أصحابها إلى إناث، غير أن حدثاً خارجياً كها تقول «روتش»، كرؤية القضيب مثلاً، لا يمكن أن يؤدي إلى حدوث ردود فعل داخلية: «إن رؤية العضو الذكر

يمكن أن يكون له تأثير انفعالي ولكن بشرط أن يسبق ذلك سلسلة من التجارب الماضية التي يمكن أن تخلق مثل هذا التأثير». فإذا شعرت الفتاة الصغيرة بعدم قدرتها على إشباع رغبتها في ممارسة العادة السرية وتعريض نفسها لأنظار الناس، وإذا تولد لديها الشعور بأنها غير محبوبة وتحظى بتقدير أقل من إخوتها، حينئذ تعكس على عضو الذكر عدم رضائها. إن الناس المحيطين بها يعتبرون أخاها مثلاً متفوقاً عليها، وهو نفسه يعتز برجولته، فينتاب الفتاة الصغيرة الشعور بالحسد ويخيل إليها أن مصيرها هو الفشل في الحياة. وتشعر أحياناً بالحقد تجاه أمها، وفي بعض الحالات النادرة تجاه أبيها، أو تتهم نفسها بأنها هي التي اجتثت عضوها التناسلي، ثم تغري نفسها مفكرة بأن القضيب غبا في جسمها وأنه لا بد وأن يظهر في يوم من الأيام.

من المؤكد أن نقص القضيب لدى الفتاة يلعب في مصيرها دوراً هاماً حتى ولو لم ترغب جدياً في حيازته، إذ أن الامتياز الذي يتمتع به الذكر ينشأ من ملكيته لعضو تناسلي بارز يمكن فحصه وكشف جميع أسراره، فهو يستطيع أن يقيس طوله ويقارن بينه وبين الأعضاء التناسلية لرفاقه كما يستطيع أن يجعله مصدراً للذته ومتعته؛ أما الفتاة الشابة فإنها لا تتمتع بهذا الامتياز، ولذلك فهي تمنح تعويضاً عن ذلك دمية تكون بالنسبة لها بمثابة بديل عن النقص الذي تشعر به إذا قورنت مع الفتي. لكنه يوجد اختلاف كبير في الواقع بين الدمية التي تمثل الجسم بكامله وبين العضو التناسلي للذكر، كما أن الدمية لا تتعدى كونها شيئاً سلبياً وهذا هو السبب الذي يشجع الفتاة على اعتبار ذاتها كفرضية جامدة سلبية. وبينها نجد الصبي يبحث عن نفسه في القضيب بصفته كياناً مستقلاً، نرى الطفلة تدلل دميتها وتزينها كما لو أنها تحلم بأن تلقى الدلال والزينة لنفسها. إنها تعتبر نفسها دمية رائعة. وخلال كلمات الإعجاب والاستهجان، ومن بين الصور والكلمات تكتشف معنى كلمة «جميلة» و«قبيحة»، فهي تعرف أنه لكي تثير إعجاب الآخرين يجب أن تكون جميلة كالصورة؛ ولذلك نراها تحاول أن تشبه الصورة فتتنكر وتنظر إلى نفسها في المرآة وتقارن نفسها مع الأميرات وجنيات الأساطير. وقد زودتنا ماري باشكيرتسيف بمَثَل عن هذا النوع من الفتيات المولعات بالحصول على إعجاب الآخرين فكتبت تقول: «لم يكن عمري يتجاوز الخمس سنوات حين كنت أرتدي مختلف الدانتيلا العائدة لأمي وكنت أتخيل نفسي الراقصة الكبرى (باتيبا) وجميع أهل البيت ينظرون إليّ بإعجاب شديد......

إن هذه الطبيعة النرسيسية «أي ولع الإنسان الشديد بذاته» تظهر لدى الفتاة الصغيرة بصورة مبكرة وتلعب في حياتها كامرأة دوراً رئيسياً أولياً لدرجة أن البعض يعتبرون هذه النزعة وكأنها تصدر عن إحساس أنثوي غامض. لكننا رأينا في الواقع أن الفتاة لا تخضع في تطورها إلى العناصر العضوية لأنها تستطيع أن تتحرر بشتى الطرق من تأثير الاختلاف العضوي الذي يميز الصبي عنها، فالقضيب يشكل حتها امتيازاً بالنسبة للصبي، لكن تأثيره يتضاءل حين لا يعير الطفل أي اهتهام لوظائفه التفريغية. وإذا احتفظ على الرغم من ذلك ببعض التأثير بعد أن يتجاوز الثامنة إلى التاسعة من عمره فذلك يعود إلى أن القضيب أصبح رمزاً لرجولة تتمتع بحد ذاتها بزيادة في الاعتبار اجتهاعياً.

والحقيقة هي أن تأثير التربية والأشخاص المحيطين بالطفل كبير جداً. فجميع الأطفال يحاولون أن يعوضوا وحشة الانفصال التي تتبع الفطام بسلوك يهدف إلى إثارة الإعجاب، ولذلك فإننا نضطر الصبي إلى تجاوز هذه المرحلة ونخلصه من طبيعته النرسيسية بتحويل اهتهامه نحو عضوه التناسلي بينها تبقى الفتاة منشغلة في نفس الاتجاه تساعدها على ذلك الدمية التي لا تقوم مع ذلك بالدور الأساسي. فالصبي بدوره يستطيع أن يتسلى بدمى من نوع آخر كالدب وغير ذلك، وهذا ما يدعونا إلى أن نستنتج؛ أن كل عامل من العوامل: سواء كان القضيب أو الدمية تتضح أهميته وتبرز قيمته من خلال الشكل الإجمالي العام لحياة الأطفال.

وهكذا فإن السلبية التي تميز بصورة رئيسية المرأة «الأنثى» هي ظاهرة تتطور لديها منذ السنين الأولى. ولكنه من الخطأ أن نزعم أن هذه الظاهرة تشكل معطية بيولوجية والحقيقة هي أن القائمين على ترتيبها والمجتمع الذي تعيش فيه كل ذلك يفرض عليها هذا المصير. إن الحظ الكبير للصبي يكمن في طريقة وجوده بالنسبة للآخرين التي تشجعه على أن يعيش لنفسه فهو يتلقى دروس الحياة بحركة حرة تتفتح نحو العالم الواسع ويتنافس بصلابته واستقلاله مع الصبيان الآخرين، فيحتقر البنات ويتصرف بكل حرية واستقلال. وعلى العكس من الصبي، تتعرض المرأة منذ البداية إلى نزاع بين وجودها المستقل واوجودها الآخرين وأن تشكل وجوداً سلبياً وتتخلى بالتالي عن استقلالها؛ إننا نعاملها إعجاب الآخرين وأن تشكل وجوداً سلبياً وتتخلى بالتالي عن استقلالها؛ إننا نعاملها

كدمية حية ونمنع عنها كل قبس من الحرية، وهكذا تتشكل حولها حلقة مفرغة، _{كلما} تضاءلت حريتها في فهم وتحسس واكتشاف العالم الذي يحيط بها، تضاءلت في الوقت نفسه إمكانياتها ولم تعد تجرأ على تأكيد شخصيتها كوجود مستقل. ولا شك أننا لو بعثنا فيها الشجاعة لتسلك طريق التفكير المستقل كان بوسعها أن تُظهر نفس الحماس المتوقد والفضول وروح المبادرة والبراعة التي وجدناها لدى الصبي. وهذا ما يحدث أحياناً حين يشرف الرجال على تربية الفتاة، فتتحاشى بذلك عدداً كبيراً من المشاكل وتتخلص من القسم الأعظم من مساوئ الأنوثة. غير أن العادات تعارض هذا الاتجاه وتمنع معاملة الفتيات تماماً كالصبيان. ولقد أتيح لي أن أتعرف في إحدى القرى على فتيات صغيرات يبلغن 3 إلى 4 سنوات من العمر وكان والدهن يشرف على تربيتهن، فيرتدين السراويل الرجالية. كان جميع الأطفال يستهجنون ذلك فيقولون إنهن فتيات ولسن بصبيان ويحاولون بعد ذلك التأكد من طبيعة جنسهن لدرجة اضطرتهن إلى التوسل كي يرتدين الأثواب النسائية. وباستثناء حالة الفتاة التي تعيش وحيدة منعزلة عن الناس فإنها لن تستطيع أن تعيش وتتصرف كالصبي، حتى ولو سمح لها أهلها بذلك، لأن الأشخاص الآخرين المحيطين بها، صديقاتها وأساتذتها سوف يضغطون عليها كي تقلع عن هذا الاتجاه. فهنالك دائهًا العيّات والجدات وبنات العم على استعداد في كل لحظة لمقاومة تأثير الأب. يقول ميشلة: إن إحدى اللعنات المفروضة على المرأة هي أنها تُترك منذ حداثتها لتعيش في جو يحفل بالنساء. إن الصبي كذلك ينشأ في البداية ويترعرع تحت إشراف أمه؛ لكنها تكنّ الاحترام لرجولته فتتركه طليقاً بعض الشيء بينها تسعى في ضم ابنتها إلى عالمها النسوي.

وسنرى فيها بعد أن العلاقات بين الأم والفتاة معقدة للغاية: فالفتاة بالنسبة للأم تشكل في الوقت نفسه ازدواجاً منها وشخصاً آخر غريباً عنها، والأم تحدب وتعطف على ابنتها في الوقت نفسه الذي تُظهر لها عداءها، إنها تفوض على الطفلة مصيرها الخاص وهذه طريقة تبرز بواسطتها أنوثتها وتؤكدها وتحاول في الوقت نفسه أن تنتقم منها. نحن نجد العملية نفسها لدى اللواطيين والمقامرين وضحاياً المخدرات، فهم يفخرون بالانتهاء إلى جماعة معينة ويشعرون بالخجل مع ذلك في الوقت نفسه. وهكذا نرى أنه إذا عهد بالطفلة إلى النساء لتربيتها فإنهن يعملن بقسوة وتعنت على تحويلها إلى امرأة تماثلهن في الصفات والعادات. حتى إذا كانت الأم كريمة الطباع تسعى بصراحة وإخلاص في سبيل 68 الجزء الثاني: مراحل تكوين الم أة هناء ورفاهية ابنتها، فإنها تفكر عادة بأنه من الأنسب تربية ابنتها بشكل تصبح فيه «امرأة حقيقية» ما دام المجتمع سيقبلها على هذا الشكل بكل سهولة وترحيب.

لا تجد الفتاة والحالة هذه حولها سوى الفتيات الصغيرات، ولا يعهد بها إلا إلى أساتذة من النساء اللواتي يخترن لها الكتب والألعاب التي تعدها وتدربها على أداء دورها كالمرأة ويعلمنها الصفات والطباع النسائية، فهي تتدرب على أصول الطبخ والعناية بالبيت، في الوقت الذي تتعلم فيه كيف تتبرج وتتزين وتظهر بمظهر الحياء والخجل أمام الناس. إنها لا تنفك تسمع من هنا وهناك: قفي مستقيمة، لا تتبختري مثل البطة ولا تقتبسي طرق الصبيان في الحركة، كما يحرم عليها أن تقوم بالحركات العنيفة فلا يجب أن تصارع أو تتضارب؛ وبالاختصار يجب عليها كمثيلاتها من النساء أن تكون خادمة وتمثالاً محبباً إلى النفس. إلا أنه أصبح في يومنا هذا من الأمور العادية - بفضل انتصارات الحركة النسائية - أن تشجع الفتاة على متابعة دراستها ومزاولة الرياضة وغير ذلك من الأمور. لكن أهلها يغفرون لها عدم نجاحها ويشترطون فيها أن لا تهمل في الوقت ذاته شأنها كامرأة، بل إن هذا الشرط يتمتع بالأفضلية لدى الأهل لأن الواجب الأساسي الملقى على عاتقها يبقى في أن تحافظ على أنوثتها.

خلال السنين الأولى تستسلم الفتاة الصغيرة بدون أية مقاومة إلى هذا المصير، فالطفل يحيا في جو من اللعب والأحلام ولا يبالي بالمصير الذي ينتظره، خاصة وأنه بوسع الفتاة أن تعوض شعورها بتفوق الصبيان عليها في الآمال الكامنة في مستقبلها كامرأة هذه الآمال التي تحققت منذ الآن في لعبها. وما دامت الفتاة لا تعرف بعد سوى عالم الطفولة، فإن أمها تظهر لها متمتعة بسلطة أكبر من سلطة الأب. ولذلك فهي تتخيل العالم بشكل تسود فيه سلطة الأمومة، وهذا ما يدعوها إلى تقليد أمها في حركاتها وسكناتها وإلى التمثل بها. وغالباً ما تلجأ إلى قلب الأدوار فتقول: «حين أصبح كبيرة وتصبحين أنت صغيرة» والدمية ليست بالنسبة للطفلة الصغيرة ازدواجاً لشخصيتها وإنها هي طفلة كذلك، فهي تنافع عن نفسها ضد أمها وتتحلى بوقار الأمومة حين توبّخ وتعاقب ثم تغري وتدلل دميتها. وتلجأ أحياناً أخرى إلى ائتهانها على أسرارها وتقوم بتربيتها وتؤكد عليها سلطتها المطلقة، بل إنها كثيراً ما تنتزع ذراعها وتضربها وتعذبها، أي إنها تحقق من خلالها تجربة تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة. يتضح للفتاة الصغيرة أن العناية بالأطفال يقع على تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة. يتضح للفتاة الصغيرة أن العناية بالأطفال يقع على تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة. يتضح للفتاة الصغيرة أن العناية بالأطفال يقع على تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة. يتضح للفتاة الصغيرة أن العناية بالأطفال يقع على تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة. يتضح للفتاة الصغيرة أن العناية بالأطفال يقع على تأكيد شخصيتها وحلمها بالسيطرة.

عاتق الأم، وهذا ما تتعلمه من خلال القصص التي تسمعها والكتب التي تقرأها، كما أن عانق الام، وهدا ما تعلق الله ويمكننا القول بالنتيجة إن وظيفتها «المقدَّرة لها» تُفرض تجربتها الشخصية تؤكد لها ذلك؛ ويمكننا القول بالنتيجة إن وظيفتها «المقدَّرة لها» تُفرض بجربتها السخصية لوك . عليها فرضاً وتُملى عليها إملاءً. وما دامت تربية الأطفال ستصبح في يوم من الأيام من عليها فرضاً وتُملى عليها إملاءً. لصيبه ولا المام الله الحياة ورقات الملفوف أو تأتي بهم اللقالق، خاصة إذا كان لديها الأطفال يولمدون أو يأتون إلى الحياة ورقات الملفوف أو تأتي بهم اللقالق، خاصة إذا كان لديها إخوة وأخوات، وعلى كل حال، فهي تتعلم بعد ذلك أن الرضيع يتشكل في بطن أمها. وَفِي أَيَامُنَا هَذِه، لم يعد الأهل يكتمون أسرار وخفايا الحمل والولادة عن الطفل كما درج الناس على كتهانها في الماضي. أما الفتاة الصغيرة فإنها تعجب وتدهش أكثر مما تخالف نتيج لاكتشاف هذه الظاهرة التي تعتبرها نوعاً من السحر، لأنها لا تلم دفعة واحدة بالتفاصيل الفيزيولوجية لعملية الولادة. فهي تجهل دور الأب وتفترض أن المرأة تصبح حاملاً نتيجا لتناولها لبعض الأغذية، وهذه قصة أسطورية؛ «يروى أن ملكات القصص الخرافية يلدن فتاة صغيرة أو صبياً جميلاً بعد تناول بعض الفاكهة ونوعاً خاصاً من الأسماك».

تأخذ مجموعة هذه المشاكل والقضايا بلب الفتاة الصغيرة وحواسها وتغذي خيالها. وإني أورد فيها يلي حالة نموذجية تشابه في عدة نواحٍ حالة هانس الصغيرة التي حللها فرويد في الوقت نفسه:

بدأت (آنا) تستفهم من أهلها عن مصدر المواليد الجدد وهي لم تتجاوز بعد الثالثة من عمرها؛ وحين بلغت الرابعة رزقت أمها بمولود، ولم تكن آنا قد لاحظت انتفاخ بطن أمها أثناء الحمل لكنها نظرت إليها بعد الولادة بحذر وضيق وانتهت إلى القول: «هل ستموتين يا أماه؟». كانت تتخيل أن الناس حين يموتون يصعدون إلى السهاء ثم يتقمصون هيئة الرضيع. ولذلك فقد زادت دهشتها حين رأت أمها في الفراش بعد الولادة، وقد أصبحت بعد ذلك تشعر بالغيرة تجاه أخيها الصغير فكانت تحدّث نفسها قصصاً غريبة ولا تطبع أوامر أهلها وتهدد باللجوء إلى جدتها لحمايتها؛ كانت تتهم في أغلب الأحيان بالكذب لأنها كانت تشك في عدم إعلامها بحقيقة ولادة أخيها، وكانت الماء ال تسأل والدتها بإلحاح «هل سأصبح امرأة مثلك يا أماه» وأخذت تنادي أثناء الليل أهلها بصراخ عالٍ. وفي يوم من الأيام بدأت تسأل بلهفة «ما هو السبب في أن صوفي تصغرن 70 الجزء الثاني: مواحل تكوين المرأة سناً؟ أين كان فريتز قبل أن يولد؟ هل كان في السهاء..؟ وماذا كان يفعل هناك..؟ ولماذا هبط منها الآن فحسب؟" واضطرت أمها أخيراً أن تشرح لها بأن الأخ الصغير نبت في بطنها كما تنبت النبتة في قلب الأرض. أثار هذا التفسير إعجاب وسرور آنا لكنها استطردت متسائلة: هل خرج لوحده دون مساعدة أحد؟ - نعم. - ولكن كيف يفعل وهو لا يستطيع المشي..؟ - لقد خرج زاحفاً - هل يوجد هنالك إذن ثقب..! (وأشارت إلى صدر أمها)، من أي مكان خرج هل فعل ذلك من خلال الفم..؟ وبدون أن تهتم بالجواب استدارت إلى لعبها يشع من عينها بريق الرضا والطمأنينة. وفي أحد الأيام سألت أباها حين رأته يرقد في السرير: «لماذا أراك مستلقياً في السرير يا أبتاه؟؟؟ هل لديك أنت الآخر نبتة في بطنك...؟» في هذه الفترة بدأت تعاودها أحلامها المزعجة. ومن السهل علينا أن نستنتج بأنها كانت تسأل نفسها عن دور الأب في عملية الولادة. وفي صبيحة أحد الأيام، كان والدها في غرفة التواليت فقفزت على سريره واستلقت متمددة على بطنها وأخذت تحرك ساقيها قائلة: «أليس هذا ما يفعله والدي» ثم سألت والدها قائلة: «ولكن كيف دخل فريتز الصغير بطن أمى . . ؟ من هو الشخص الذي زرعه في جسمها ؟ وأنت من زرعك في بطن أمك؟ ومن أي مكان خرج فرتيز؟ " فقال لها والدها ضاحكاً: "ماذا تعتقدين أنت...؟» حينئذ أشارت بيدها إلى أعضائه التناسلية: «هل خرج من هنا..؟» -نعم. - "ولكن كيف استطاع أن يدخل في أمى؟ هل بذر في بطنها بعض الحبوب؟ "حينئذ أفهمها والدها أن الأب هو الذي يعطى البذار. ظهرت علائم الرضا والسرور على وجه آنا. وفي اليوم التالي، بدأت تتهكم على أمها قائلة: «روي لي والدي أن فرتيز كان ملاكاً صغيراً، وأن اللقلق هو الذي حمله إلينا». وأصبحت بعد ذلك هادئة أكثر من ذي قبل، إلا أنها حلمت في يوم من الأيام بمشاهدة بعض الفلاحين وهم يبولون وبينهم والدها وحلمت كذلك بعد أن شاهدت البستاني يصقل الخزانات بمنجر في يده، أنه يُجري العملية نفسها على أعضائها التناسلية؛ كانت بالطبع منشغلة البال في معرفة دور الأب الصحيح، وعندما اكتملت معلوماتها نهائياً في سن الخامسة، لم تعد تشعر بعد ذلك بأي قلق أو اضطراب.

هذه القصة، لها ميزتها الخاصة على الرغم من أن البنات يتساءلون بشكل أقل عن الدور الذي يلعبه الأب لأن الأهل يتهربون من الجواب على هذا السؤال.

وكلما نضج ذهن الطفل أكثر فأكثر اتسع أفق تفكيره وتوطدت دعائم مبدأ أفضلبن ودم صبح حسل على الإناث. حينئذ لا يعود تقليد الفتاة لأمها حلاً مرضياً بالنسبة إليها، وإذا الذكور على الإناث. حينئذ لا يعود تقليد الفتاة لأمها حلاً مرضياً بالنسبة إليها، وإذا الددور على المراك. كانت الفتاة الصغيرة قد قبلت وظيفتها الأنثوية، فهذا لا يعني أنها تنازلت ورضخت، بل على العكس من ذلك، فإنها كانت تجد في هذا الحل وسيلة لإعلاء شأنها؛ والحصول على مى المسادة؛ فهي تريد أن تكون سيدة لأن مجتمع السيدات يظهر لها متمتعاً بالامتياز، ولكن حين تنتزعها اتصالاتها مع الناس ودراستها وألعابها وقراءتها من محيط الأمومة فإنها تفهم أن أسياد العالم ليسوا النساء وإنها هم الرجال. وهذا الاكتشاف - أكثر من اكتشاف القضيب يعدل بشكل جذري وعيها وفهمها لنفسه وتقديرها لمنزلتها.

يتضح تسلسل أفضلية الجنسين بادئ ذي بدء خلال التجربة العائلية، فهي تفهم شيئاً فشيئاً أنه إذا كانت سلطة الوالد لا تظهر بشكل محسوس كل يوم فإنها هي التي تسود في البيت أولاً وأخيراً. حتى ولو كانت الأم هي التي تسود في البيت عملياً، فإنها تحاول في شتى المناسبات أن تثبت بأن إرادتها هي نتيجة لإرادة زوجها، وذلك على الأقل في الحالات الهامة، فمن خلال إرادته تتحكم هي في إدارة البيت وباسمه تمنح وتعاقب.

إن حياة الأب محاطة بهالة من النفوذ الغامض: فالساعات التي يقضيها في البين والغرفة التي يعمل فيها والأشياء التي تحيط به ومشاغله وهوايته كل ذلك يتخذ في نظر الأطفال صفة القدسية. إنه هو الذي يقوم بإعالة الأسرة وهو المسؤول عنها بصفته رئيسها. وهو يعمل عادة في الخارج وبواسطته يتصل البيت مع بقية الناس، وهذا ما يجعله يظهر أمام أفراد عائلته وكأنه يجسد هذا العالم المغامر الواسع الصعب والرائع. إنه السمو وإنه الإله ! وحينئذ تتغير وضعية الطفل بشكل جذري فلقد كانت مدعوة لأن تصبح في يوم من الأيام امرأة مماثلة لأمها التي لا حدود لسطوتها وسيطرتها، لكنها لن تكون بعد الآن أبداً الأب الذي يتمتع بالسيادة المطلقة، كانت صلتها بأمها تتميز بنوع من المنافسة التي تحثها على تقبل الحياة، أما بالنسبة لأبيها فهي لا يمكن أن تنتظر منه سوى تقديراً سلبياً ودون أن تكون هناك أية حاجة لمشاركتها. إن الصبي يتحسس السيادة الأبوية من خلال شعوره بالتنافس بينها تتحمل الطفلة هذه السيادة بإعجاب سلبي.

لقد بينت من قبل أن ما يسميه فرويد بمركب «الكتر» لا يعبر في الواقع عن رغبة جنسية، وإنها هو تنازل عميق من صاحب العلاقة الذي يرضى بأن يكون مادة في الخضوع والتعذيب، وإذا أظهر الأب حنانه وعطفه نحو ابنته فإنها تشعر أن وجودها له ما يبرره وتصبح حينئذ مزودة بجميع المناقب والصفات التي يصعب على الآخرين الحصول عليها، ومن المحتمل أنها ستشعر بالشوق طوال حياتها إلى هذا الكهال وهذه الطمأنينة.

أما إذا لم يحظ بمثل هذا الحب فستشعر إلى الأبد بأنها مذنبة، أو ستلجأ إلى البحث في مكان آخر عن التقدير وزيادة الاعتبار، وتصبح حين ذلك عديمة الاهتهام تجاه والدها وقد تشعر نحوه بالعداء. غير أن الأب لا يتمتع لوحده بهذا السلطان، فجميع الرجال يساهمون في خلق عظمة الرجولة وليس هناك من مجال للكلام عنهم كر "بديل" عن الأب لأنهم يسلبون لب الفتاة الصغيرة مباشرة بصفتهم رجالاً سواء أكانوا أجدادها أو إخوانها أو أعهامها أو أصدقاء الأسرة ... إلخ.

ولا شك أن التقدير المثير الذي تكنه الفتيات الراشدات نحو الرجل يكفي لكي يرفع مكانته نحو الأعلى. كل شيء يساهم في تأكيد تفوق الرجل على المرأة في نظر الفتاة الصغيرة. فثقافتها التاريخية والأدبية، والأغاني والأساطير التي تسمعها تهدف جميعها إلى تمجيد الرجل. إن الرجال هم الذين بنوا مجد اليونان، والإمبراطورية الرومانية، وفرنسا وجميع الأمم. وهم الذين اكتشفوا الأرض واخترعوا الأدوات التي تسمح لهم باستغلالها وهُم الذين حكموها، ونحتوا التهاثيل، ورسموا اللوحات وألفوا الكتب. ويعكس ذلك أدب الأطفال والميتولوجيا والقصص والروايات والأساطير التي خلقتها كبرياء ورغبات الرجل، فمن خلال عيون الرجال تسبر الفتاة الصغيرة غور العالم وتكشف عن مصيرها. والتاريخ مليء بقصص عظهاء الرجال، كها أن الفتيان هم الذين يدورون حول العالم في قصص المغامرات ويسافرون كملاحين في البواخر. وتقع جميع الأحداث الهامة بواسطة قصص المغامرات ويسافرون كملاحين في المواخر. وتقع جميع الأحداث الهامة بواسطة الرجال. ويؤكد الواقع صحة ما جاء في هذه القصص والأساطير فإذا ما قرأت الفتاة الصغيرة الصحف أو أصغت إلى محادثات الرجال الكبار فإنها تتأكد هذا اليوم كها كانت المواتي في الماضي بأن الرجال هم الذين يقودون العالم ويتحكمون فيه. إن رجالات الدولة تفعل في الماضي بأن الرجال هم الذين يقودون العالم ويتحكمون فيه. إن رجالات الدولة وروساءها، والجنرالات والمكتشفين، والموسيقيين والرسامين الذين تولع بهم الفتاة هم رجال كذلك؛ إنهم رجال يبعثون في قلبها الخفقان من شدة الحاس.

كل شيء يدعو الفتاة لكي تتهالك حالمة بين أيدي الرجال فتنتقل بعد ذلك إلى سماء المجد. إنها تتعلم أنه لكي تصبح سعيدة يجب عليها أن تحظى بحب الرجال ولكي تكون

محبوبة يجب أن تكرس وقتها لانتظار الحبيب الموعود وأمير الأحلام... المرأة هي «جميلة الغابات النائمة» وهي كذلك «بلانش نيج» و«ساندريلا». إنها تلك التي تتقبل وتتحمل، ثم تقص علينا الأناشيد القديمة والأساطير الخرافية. إن الفتى الشاب يذهب مغامراً للبحث عن المرأة؛ فيفلق رأس التنين بسيفه، ويصارع الجبابرة بينها تكون الفتاة سجينة في إحدى القلاع أو القصور، في البستان أو في الزنزانة مقيدة إلى صخرة، حبيسة، نائمة، أُو قلقة: إنها تنتظر. في يوم ما سيعود أمير أحلامي وينقذني .. في أحد الأيام سيأتي على الدرب الطويل الرجل الذي أحبه ... وهذه هي الألحان الشعبية تساهم كذلك في توجيه الفتاة ونبعث فيها أحلام الصبر والأمل. لقد أصبح من الضرورة القصوى بالنسبة للأنثى أن تأسر قلب الرجل ولكي تتوصل إلى ذلك نراها تحاول أن تظهر في حياتها بمظهر الضحية إلى أن يأتي فارس أحلامها فينتشلها من ورطتها. وقد كتبت مدام دو نواي تقول: «كنت أتمنى وأنا لم أزل صغيرة السن، أن أحظى بعظف الرجال وأن أثير قلقهم على وأن أنجو من المآزق بفضلهم، وحتى أن أموت بين أيديهم». توجه الألعاب والأحلام الفتاة الصغيرة، وتطورها شيئاً فشيئاً نحو السلبية في تصرفاتها. لكنها مع ذلك تشعر بأنها نفس بشرية قبل أن تكون امرأة، وهي تعرف منذ الآن أن قبول مصيرها كامرأة يعني تخليها عن استقلالها وتشويه شخصيتها. إن الرجل والحب لا زالا بعيدان عنها في ضباب المستقبل، أما الآن فإنها تبحث مثل إخوتها عن النشاط والحركة والاستقلال. ولا شك أن عبء الحرية ليس بثقيل على الأطفال لأنه لا يستلزم وضع أية مسؤولية على عاتقهم. ولذلك فإن جنوح الفتاة الفطري نحو الحياة وتذوقها للعب والضحك والمغامرة يجعلها تشعر بأن الوسط الذي تعيش فيه مع أمها هو وسط ضيق خانق وتتمنى لو تتخلص من سيطرته وسلطانه.

ومما يزيد في عنف ثورة الفتاة أن أمها تفقد في أغلب الأحيان نفوذها وسمعتها وتتلاشى من حولها هالة السيطرة والنفوذ وتظهر كبقية النساء في وضعها السلبي، تنتظر وتتحمل، وتشكو وتبكي، فتبدو حياتها نموذجاً حياً للتكرار الممل.

تأبى الفتاة الصغيرة في هذه الفترة أن تشبه أمها، ولذلك فإنها تكنّ تقديساً واحتراماً كبيرين للنساء اللواتي يتفادين الوقوع تحت وطأة العبودية النسوية، كالممثلات والكاتبات والأستاذات، كما نراها تشغل نفسها بالرياضة والدراسة وتحاول أن تقلد الذكور، فتتسلق والمسجار وتمزق الثياب، وتختار في أكثر الأحيان صديقة وفيّة تفشي لها أسرارها وتكنّ لها الجزء الثاني: مراحل تكوين المرأة حباً يشبه الحب العاطفي، كما أنها تقاسمها الأسرار الجنسية والواقع أن الفتيات الصغيرات يتبادلن المعلومات التي نجحن في الحصول عليها ويعلقن عليها.

وتستاء الفتاة الصغيرة عادة من قواعد التحفظ والسلوك المفروض عليها، كما تتضايق كثيراً من ثيابها. وقد أثبتت أحد الاستفتاءات أن الأكثرية الساحقة من الفتيان صرحوا بعدم وجود أية رغبة لديهم في التحول إلى فتيات، وصرح أكثر من 75٪ من الفتيات أنهن كن يفضلن لو خُلقن رجالاً؛ وتبرر الفتيات هذا الاختيار بالحجج التالية:

(لا يتألم الفتيان كما تتألم الفتاة في حياتها»، (إن أمي تحبني أكثر إذا كنت صبياً»،
 (يستطيع الفتى أن يقوم بأعمال أكثر أهمية»، (يتمتع الفتى بإمكانيات أكبر في الدراسة»،
 (حينئذ سأتمكن من تسلية نفسي في تخويف البنات»، (ولن أحس بالخوف من الصبيان»،
 (إنهم جميعاً أحرار»، (لا يتضايقون من لباسهم».

وحين تبلغ الفتاة 10-12 من عمرها يمكننا أن نطلق عليها لقب «الصبي الفاشل» وهي لا تتألم من فشلها هذا لأنه يشكل بالنسبة لها حرماناً وظلماً فحسب وإنها لأن النظام الذي يفرض عليها هو في حد ذاته غير صالح للحياة فأيامها تصبح فارغة لا يوجد فيها أي نشاط أو حركة يسود فيها الضجر والتبرم وحدة الأعصاب لذلك نراها تستسلم لأحلامها العاطفية لتعوض مرارة فشلها فتبدأ بفقدان معنى الواقع وتنشد التعزية في عواطفها النرسيسية «عبادة الذات» فتتخيل نفسها بطلة قصة تعجب بجهالها وتشكو من واقعها المؤلم. ومن الطبيعي جداً أن تصبح نتيجة لذلك مولعة بالزينة والتبرج والكوميديا، كها تتضاعف هذه المساوئ في فترة البلوغ فتكثر حالات نفاذ الصبر وأزمات والكوميديا، كها تتضاعف هذه المساوئ في فترة البلوغ فتكثر حالات نفاذ الصبر وأزمات الغضب ومشاهد الدموع. إن الفتاة تولع بشكل خاص بالبكاء، وسبب ذلك يعود إلى ميلها للظهور بشكل الضحية. وقد روى المونسينيور دوبانلوب يقول: «تحب الفتيات الصغيرات البكاء حباً شديداً لدرجة أن إحداهن كانت تذهب للبكاء أمام المرآة للتمتع بشكل مضاعف بلذة منظرها وهي تبكي».

إنها والحق لتجربة غريبة بالنسبة لإنسان كان يحس بنفسه كشخصية مستقلة، يتصرف بحياته بكل حرية فيكتشف فجأة بأنه مكبل بقيود التبعية. إنها لتجربة غريبة لمن يفترض كونه «واحداً» مستقلاً متمتعاً بكافة صفات الشخصية فيكتشف أن الميزة الرئيسية لطبيعته هي الشعور بالنقص تجاه الآخرين. وهذا ما يحدث للفتاة الصغيرة عندما تتمرس في مدرسة الحياة فتشعر بأنها امرأة، وإن الوسط الذي تنتمي إليه مغلق عليها من كل جانب، محدود الأفق يسيطر عليه عالم الذكور. ومهما اتبعت من أساليب التحرر والمغامرة فسيكون دائهاً فوق رأسها سقف يمنعها من الارتفاع وستنتصب من حولها جدران تحد من حركتها وتقطع عليها السبل. إن آلهة الرجل يقطنون بعيداً عنه في أقاصي السموات . لدرجة لا يشعر بوجودهم؛ أما الفتاة الصغيرة فإنها تعيش بين آلهة على صورة البشر!

لقد تقرر مصيرها ! فستصبح زوجة، وأماً، وجدّة، وستشرف على العناية ببيتها وبأطفالها كها تفعل أمها تماماً، إنها لم تتجاوز بعد الثانية عشرة من عمرها ومع ذلك فإن تاريخها مكتوب في السماء بحروف من نار، وعلى مرّ الأيام، ستكتشف مستقبلها السلبي دون أن تساهم في بنائه، وإنها لتشعر بالفضول الممزوج بالخوف حين تفكر بهذه الحياة التي تحددت طبيعتها منذ الآن والتي تنقاد نحوها انقياداً أعمى في كل لحظة تعيش فيها.

ولا شك أن مصيرها المحتوم يدفعها لأن تهتم أكثر من إخوتها بأسرار وخفايا الحياة الجنسية، هذه الأسرار التي تشعر شعوراً مبهماً بأنها تهدد جسمها وكيانها. لقد تبدد سحر الأمومة، وسواء اكتشفت أسرار الحياة الجنسية بصورة مبكرة أو متأخرة، فإنها تعلم أن الطفل لا يظهر مصادفة في بطن أمه، وأنه لا يخرج منها بفضل العصا السحرية، وأنها لتفكر بقلق في هذه الأمور، إذ لم يعد يبدو لها من الأمور المحببة الرائعة أن تتولد في أحشائها أجسام طفيلية. نعم إن السؤال يدور ويدور في رأسها: كيف يخرج الطفل ! وحتى لو أنها لم تسمع من قبل بآلام الولادة فلا بد أن تكون قد قرأت كلمات الإنجيل: استلدين في الألم، إنها تشعر منذ الآن بآلام الولادة دون أن تتوصل إلى تحديد طبيعتها، فتفخيل عدداً غريباً من العمليات في بطنها، وإذا ما افترضت بأن الجنين سيُقذف من الخلف فهذا لن يكون من بواعث طمأنينتها. وقد روي بأن بعض الفتيات الصغيرات أصبن بانقباض عصبي في الأمعاء إثر تصور طريقة الولادة، كما أن الشروح الحقيقية الصحيحة لأسرار التوالد لا تقدم أية مساعدة للطفلة لأن صور الجروح والتمزق والنزيف لا تنفك تراود مخيلتها كالكابوس. وقد روت الكاتبة الشهيرة «كوليت» أن أمها وجدتها مغمياً عليها بعد أن قرأت في كتب «أميل زولا» وصفاً مفصلاً لعملية الوضع. توحي الصفات الفيزيائية للحمل والوضع، بأنه لا بد وأن يحدث «شيء جساني» بين الزوجين. إن كلمة «الدم» التي تتردد كثيراً في بعض التعابير مثل «أولاد من نفس الدم، دم أصيل، دم ممزوج» توجه أحياناً غيلة الطفلة فتفترض أن الزواج لا يتم إلا خلال احتفال تجري فيه عملية نقل الدم بين الرجل والمرأة. لكن «الشيء الجسهاني» يبدو مرتبطاً في أغلب الأحيان بعمليات التبول والتفريغ بصورة خاصة، فيفترض الطفل أن الرجل يبول ضمن جسم المرأة، ولذلك فإنه ينظر إلى الجهاع كشيء «وسخ» ويتساءل مع نفسه: كيف يقبل الراشدون القيام بمثل هذه العملية الوسخة؟ لكنه لا يجد أي معنى للأجوبة الغامضة التي يسمعها أو يقرؤها ويبدو له أن كل شيء خيالي بعيد جداً عن الواقع. بل إن الخوف يداهمه في بعض الأحيان حين يشتبه أن أهله وأصدقاءه وأساتذته يقومون بمثل هذا العمل. وفيها يلي اعترافات طفلة عن خواطرها حين اكتشفت هذه الحقيقة:

الحين حدثوني الأول مرة عن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، صرحت بأن هذا مستحيل الأنه لو كان الأمر كذلك لوجب على والديّ أن يقوما بها، وأنا أقدرهما لدرجة الا أتصور معها إقدامهما على مثل هذه الأمور. لكني أردد بأنه الا يمكن أن يقدما على ذلك أبداً فهي عملية مقرفة للغاية. ولكني أدركت بعد مدة كم كنت مخدوعة عندما اكتشفت ما يقوم به والداي ... كانت لحظة فظيعة مؤلمة وكنت أخفي وجهي تحت الغطاء وأسد أذنى متمنية أن أكون على بُعد آلاف الكيلومترات من مكاني !» .

كيف يمكن للطفل أن ينتقل من صورة أناس وقورين يرتدون الثياب، أناس يرددون كل يوم على مسامعه تعاليم الحشمة والتحفظ والوقار؛ إلى صورة وحشين عاريين يتعانقان ويتصارعان؟ إن في هذا تشكيك في هيبة الراشدين يزعزع مكانتهم ومنزلتهم الكبيرتين. وكثيراً ما يرفض الطفل بعناد هذا الاكتشاف المقيت فيقول: "إن أهلي لا يفعلون ذلك»، ويحاول في بعض الأحيان أن يضفي على العملية صورة محتشمة كها صرحت بذلك إحدى الفتيات مثلاً: "حين يريد المتزوجون أن يرزقوا أطفالاً فإنهم يذهبون إلى الطبيب فيخلعون ثيابهم ويسترون أعينهم بشريط من القهاش كي لا يروا شيئاً، ثم يربط الطبيب الزوجين إلى بعضهها ويمد لهما يد العون لكي تسير الأمور على ما يرام»، أي إن الفتاة حولت في مخيلتها العمل الجنسي إلى عملية جراحية، لا شك أنها لا

تجلب شيئاً من المتعة لكنها تشكل عملاً مشرفاً في حد ذاته يعادل الزيارة التي يقوم بها كل بجلب شيئا من المتعه بحمله سمن الشك يتسلل إلى قلب الفتاة على الرغم من الرفض إنسان إلى طبيب الأسنان. لكن الشك يتسلل إلى قلب الناء النام النام المنان. إسان إلى طبيب الرسان. على والله الله التي خلفتها فترة الفطام في نفسها، لأنها في والهرب وتحدث فيه ظاهرة مؤلمة تعادل الآلام التي خلفتها فترة الفطام في نفسها، لأنها في واهرب وحدث ميد تنسر المراجعة المحسب، كما كانت هي الحال بعد الفطام، وإنها تشعر هذه الحالة لم تفقد عطف أمها عليها فحسب، كما كانت هي الحالة لم تفقد عطف أمها عليها فحسب، كما كانت هي الحال. وكأن عالمها الخيالي الذي كان يحميها قد انهار من حولها، فتجد نفسها بدون سقف فوق تحديد تفاصيل هذه اللغة المبهمة التي ترزح تحتها بشكل كامل، فالمعلومات التي حصلت عليها متناثرة وغير مرتبطة فيها بينها والكتب متناقضة وحتى الشروح الفنية لا تستطيع أن تزيل الظل الثقيل الحالك السواد، فهنالك مائة سؤال بدون جواب: هل يؤلم العمل الجنسي أم يبعث في النفس اللذة والنشوة؟ وكم من الوقت يستغرق؟ خمس دقائق أم طوال الليل! هل يقوم الناس بالعمل الجنسي كل يوم أم نادراً؟ ومتى تحمل المرأة وكيف ... إلخ. إن الولد يحاول أن يفهم كل ذلك بقراءة الكتب ومراجعة القواميس وسؤال الرفقاء في جو يسوده الظلام والاشمئزاز. قد أجرى الدكتور «ليجان» استفتاء لدى بعض الفتيات فيها يتعلق بمعلوماتهن عن الحياة الجنسية فقالت إحداهن: «من أين يخرج الأطفال؟ لقد تعلمت الجواب على هذا السؤال في المدرسة وشعرت حينئذ بأن ذلك يجب أن يثير القرف والاشمئزاز. ولكن كيف يأتون إلى الدنيا! كنا نتصور ذلك كشيء غريب وحشي، خاصة منذ أن صادفنا ونحن ذاهبات إلى المدرسة في يوم من أيام الشتاء رجلاً أرانا أعضاءه التناسلية وقال لنا وهو يقترب منا: «ألا يبدو لكم هذا لطيفاً يستهوي القضم؟؛ وقد بلغ اشمئزازنا من هذا الموضوع بعد هذه الحادثة حدّاً لا يُحتمل، وبقيت حتى سن الحادية والعشرين أتصور أن الأطفال يأتون إلى الدنيا من خلال السُّرّة».

وقالت فتاة أخرى: انتحت بي فتاة من زميلاتي جانباً وسألتني: «هل تعرفين من أين يخرج الأولاد؟، وحين أجبت بالنفي قالت: لي: «يا لك من غبية .. إن الأولاد يخرجون من بطن الأمهات، ولكي يأتوا إلى الدنيا يجب أن تقوم النساء بشيء مقرف تماماً مع الرجل! ثم فسرت لي معنى كلماتها بالتفصيل اغير أني لم أصدق ما قالته لي إلى أن حدث في يوم من الأيام ونحن نِيام في نفس الغرفة مع والدينا، أن سمعنا ما لم أصدقه يجري بينها، فغمرني الحياء وأصبحت أخجل من والدي وأشعر بالحسرة على اكتشاف هذه يجب أن نضيف على ذلك، بأنه حتى ولو تلقى الأطفال تعليهاً مناسباً حول هذا الموضوع، فإن حُسن نية الأهل الأساتذة في تفهيم الأطفال دقائق العمل العاطفي لن تجدي نفعاً، لأنه لا يُفهم إلا عن طريق المهارسة الحية. ولا شك أنه بوسع الكُتّاب والعلماء أن يكشفوا النقاب نظرياً عن خفايا التوالد، لكنه من الصعب عليهم أن يبينوا بنفس الوضوح أسرار الشهوة الجسدية والحب الجنسي. كيف يمكننا أن نشرح لطفل لا يتمتع بأي إحساس جنسي، معنى ولذة القبل والمداعبات؟ يحدث كثيراً في جو الأسرة أن يبادل أعضاؤها القبل، وفي بعض الأحيان بواسطة الشفاه، فلماذا يثير هذا اللقاء النشوة والشعور بالارتخاء؟ لا شك أن شرح هذه الأمور للأطفال يعادل القدرة على وصف الألوان للعميان، وما دام الطفل يفتقر إلى هذا الشعور بالانفعال والرغبة الجسدية اللذين يعطيان الوظيفة العاطفية معناها ووحدتها، فإن مختلف عناصرها تبقى غريبة مبهمة مثيرة لاشمئزازه.

تتعرض الفتيات كثيراً في هذه الأيام بسبب انتشار عادة التعري أمام الملأ إلى رؤية الأعضاء التناسلية للصبية والرجال في وضع الانتصاب وعلى كل حال فلا بد وأنهن لاحظن الأجزاء الجنسية للحيوانات، فتثور ثائرتهن حين يفهمن أنه لكي تتحول الفتاة إلى امرأة يجب أن ينفذ فيها عضو الرجل. ومن المؤسف أن عضو الحصان هو الذي تقع عليه أنظارهن أكثر من غيره، وهذا ما يدعونا إلى تفهم أسباب فزع وهلع الفتيات أمام هذه المناظر. إنهن يتعرضن للخوف من الوضع والخوف من عضو الذكر، ومن الأزمات التي تتهدد المتزوجين، ويغمرهن الاشمئزاز لهذه الأعمال الوسخة العديمة المعنى ... كل ذلك يدفع الفتاة الصغيرة لأن تصيح: «لن أتزوج مطلقاً»، وهذا يشكل أمنع دفاع تقوم به الفتاة ضد الألم والجنون والحياء.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن التحول لا بد أن يتحقق في سن البلوغ الذي لا تفهم البنت الصغيرة أي معنى له ولكنها تشعر في قرارة نفسها بأن بعض الأشياء هي في سبيل التبدل والتحول في علاقات جسمها مع العالم الخارجي. إنها تصبح حساسة تجاه بعض الأشياء التي تحتك بها وتجاه أنواع خاصة من الروائح التي كانت لا تهتم بها في السابق، وتمر في رأسها الصغير بعض الصور الغريبة كها أنها لا تتبين جسمها وشكلها إلا بصعوبة أمام المرآة، إنها تشعر في قرارة نفسها وبوجود شيء مضحك فيها. وقد وصفت مارغريت كندي في معرض حديثها عن إحدى بطلات قصصها «تيسا» هذا الاضطراب الغريب:

وفجأة شعرت بعمق أنها تعيسة للغاية، وكانت عيناها تنظران بهلع في ظلمة القاعة التي رب. سبر بسس . يتسرب إليها ضوء القمر من خلال الباب المفتوح. لم تعد تيسا تستطيع المكوث طويلاً في يتسرب إليها ضوء القمر من خلال الباب المفتوح. يسرب، بيه سر سر س الظلام فنهضت بقفزة واحدة وهي تصيح بصوت حاد: -أوه كم أكره العالم كله - زم ركضت بهلع وبغضب نحو الجبال لتختبئ فيها يتبعها إحساس حزين بغرابة ما ينفعل في نفسها، وكانت تهمس قائلة وهي تتعثر على الطريق الوعرة: «كم أود أن أموت، أريد أن أكون ميتة الآن.

كانت تعلم أنها لا تفكر بتنفيذ ما تقول، فلم تكن لها أية رغبة في الموت لكن عنف كلهاتها كان بمثابة ترضية خاصة لها ...

إن ما يحدث في هذه الفترة المضطربة هو أن جسم الطفلة يتحول إلى جسم امرأة ويصبح مثيراً للمشاعر الجنسية، وباستثناء حالات الاضطراب الغددي حيث تبقى الطفلة في مرحلة الطفولة، فإن أزمة البلوغ تدخل في حياة الفتاة حوالي الـ 12 أو 13 من

تبدأ هذه الأزمة بشكل مبكر لدى الفتاة، وتؤدي إلى حدوث تغيرات جذرية هامة في حياتها، وتشعر خلال هذه المرحلة بالقلق والاستياء، ففي اللحظة التي ينمو فيها ثدياها وشعرها، يتولد لديها إحساس بالخجل والحياء ينقلب في بعض الأحيان إلى شعور بالعزة والكرامة، وتبدي الفتاة بشكل مفاجئ حياءها فترفض أن تظهر عارية أمام أخواتها أو أمها، وتتفحص نفسها بدهشة ممزوجة بالفزع، وتراقب بقلق انتفاخ هذه النواة الصلبة المؤلمة بعض الشيء التي تظهر تحت حلمتي الثديين، ولا شك أن هذه الآلام الخفيفة ليست شيئاً مذكوراً أمام عذاب الحروق وألم الأسنان، لكن الطوارئ والأمراض والآلام كانت دائماً شيئاً غير عادي في حياة الإنسان. هنالك أشياء تحدث في داخل هذا الجسم الفتيّ، إنها أشياء لا يمكن أن توصف بالمرض، ولكنها مقررة بموجب قانون الحياة نفسه، ومع ذلك فهي صراع وألم وأحزان. ولا شك أن الفتاة قد نمت منذ الولادة حتى البلوغ رع لكنها لا تشعر بهذا النمو إلا في فترة البلوغ، كان جسمها يظهر لها يوماً بعد يوم كشيء ملموس واقعي تام. أما الآن فإنها تتشكل وتتحول وهذه الكلّمات نفسها تكفي لتبعث فيها شعور بالهلع، لأن الظواهر الحياتية لا يمكن أن تبعث الشعور بالطمأنينة، إلا إذا

وجدت في حالة التوازن. لكن براعم صدرها المتفتحة تدفع الفتاة إلى الشعور بغموض كلمة .. الحياة، إنها ليست ذهباً ولا لؤلؤاً ولكنها مادة غريبة غير ثابتة في حركة مستمرة تتفاعل في قلبها بعض المواد الكيهاوية غير الصافية. لقد تعودت على شعر طويل يتهدل كالحرير على جسمها ولكن هذه النبتة الجديدة تحت إبطها وفي أسفل بطنها تحوِّلها إلى شكل وحش أو شكل الطحلب المتناثر على سطح الماء. وسواء كانت تعلم ما يخبئ القدر لها أو لم تعلم فإنها تكتشف في هذه التبديلات والتغييرات حقائق تنتزعها من نفسها. وها هي تجد نفسها الأن تسبح في بحر الحياة الذي يتجاوز في مداه وجودها نفسها، ومن بعيد نراها تتحسس صلة التبعية التي تربطها إلى الرجل، إلى الطفل، إلى القبر. ويخيل للفتاة أن نمو الثديين على هذا الشكل البارز هو في حد ذاته أمر عديم الفائدة وغير مرغوب فيه. أما الذراعان والساقان والبشرة والعضلات وحتى إليتاها المستديرتان اللتان تقعد عليهما، كل ذلك كان له حتى الآن استعمال واضح صريح باستثناء العضو التناسلي الذي كانت تعتبره العضو المستعمل للتبول، كان هذا العضو غريباً بالنسبة إليها ولكنه خفي غير مرئي بالنسبة للآخرين. وإنها لتود لو اختفت من بين الناس كي لا يلحظوا تطورها وحالها الجديدة، فإن الخوف ليتملكها من أن تصبح جسماً ينبض بالعاطفة الجنسية وأن تبرز محاسنها. ينعكس هذا الخوف والاشمئزاز لدى عدد كبير من الفتيات فيعملن على أن تصبح أجسامهن نحيلة؛ ويمتنعن عن الأكل خشية السمنة وتصبح الأخريات خجولات بشكل مَرَضي، فالدخول إلى الردهة وحتى الخروج إلى الشارع هو عذاب بالنسبة إليهن، إلى غير ذلك من المضاعفات التي تتولد لدى الفتاة في فترة البلوغ. أما الأهل فيساهمون في تثبيت الخجل والخوف من مظهرها الجسماني الجديد، وهذا ما يحمل الفتاة على التصرف بخشونة، وتحمرٌ وجنتاها في كل مناسبة. وقد روى «ستيكل» أن إحدى الفتيات كانت تحمر خجلاً بصورة مَرَضية وعنيفة، لدرجة أنها خلال عام كانت تحمل ضهادات حول وجهها مدعية أنها مصابة بوجع الأسنان. وتهمل الأم في أغلب الأحيان لفت نظر ابنتها إلى احتمال مجيء الطمث لديها، الأمر الذي يزيد في ارتباكها وتعاستها وغالباً ما تكشف الأم لفتاتها عن أسرار الحمل والولادة وحتى العلاقات الجنسية لكنها لا تنبئها بأية معلومات عن الدورة الشهرية، وهذا يعود إلى أن الأم نفسها تشعر بالاشمئزاز من هذه العبودية النسوية. كما أن الفتيات يحسبن أنهن مصابات بمغص في البطن أو نزيف مميت أو

مرض مخجل حين يجدن في ثيابهن بقعاً تثير الشك. وقد بينت نتائج التحقيقات التي مرض مخجل حين يجدن في ثيابهن بقعاً تثير الشك. وقد بينت نتائج الميركية (36) لا يعرفن أجراها هافلوك أليس سنة 1896 أنه من بين (125) تلميذة أميركية (189 أي أن أكثر شيئاً عن الدورة الشهرية، و(39) أخذن عن الموضوع مبادئ أولية بسيطة، أي أن أكثر من النصف كن في حالة الجهل التام. وتقول هيلين دوتش إن الأمور لم تتبدل عها كانت عليه سابقاً في عام 1946، فيضرب لنا هافلوك مثلاً حالة الطفلة التي رمت بنفسها في السين لأنها كانت تعتقد أنها مصابة بمرض مجهول، كها يروي لنا ستيكل في كتابه «رسائل السين لأنها كانت تعتقد أنها مصابة بمرض مجهول، كها يروي لنا ستيكل في كتابه «رسائل إلى أم» قصة طفلة حاولت الانتحار حين داهمتها الدورة الشهرية ورأت الدماء تسيل على ساقيها، لأنها اعتقدت بأن هذه الظاهرة ليست سوى عقاب لها عن الذنوب التي تدنّس روحها، ومن الطبيعي أن الخوف أصاب الفتاة فخيّل إليها أنها تفقد حياتها. ويقول كلاين وغيره من رواد المدرسة البسيكاناليزية الإنكليزية إن الدم يمثل في عيني الفتاة الجروح وغيره من رواد المدرسة البسيكاناليزية الإنكليزية إن الدم يمثل في عيني الفتاة الجروح التي أصابت الأعضاء الداخلية.

تجري الأمور بشكل مماثل بالنسبة لجميع الفتيات الصغيرات وينتاب أغلبهن الهلع والخوف لأنه يتحتم عليهن إفشاء سرّهن إلى الآخرين. وقد قصت عليّ صديقة لي أنها كانت تعيش بدون أم بين أبيها وإحدى المعلمات فأمضت ثلاثة شهور بين الخوف والخجل تخفي سرّها وشوائبها إلى أن فُضخ أمرها. حتى الفلاحات اللواتي ينتظر منهن أن يكنّ على جانب من الخبرة بسبب حياتهن الخشنة قرب عدد من أصناف الحيوانات الأخرى، فإن وقع الدورة الشهرية عليهن يهائل ما يحصل لفتيات المدن من خوف وارتباك، وقد تعرفت إلى مزارعة شابة ظلت خلال فصل الشتاء الطويل تغسل ثيابها خفية في الساقية المتجمدة مرتدية قميصها المبتل بالماء، كي تخفي سرّها الذي تخاف البوح به وإني لأستطيع أن أضرب أمثلة كثيرة مماثلة على هذه الحالات النفسية المعقدة.

غير أن الإقرار والاعتراف بهذا السر أمام الآخرين لا يعني خلاص الفتاة. ولا شك أن الأم التي صفعت بحدة ابنتها التي سألتها بعض الأمور قائلة: «أيتها الغبية إنك لا زلت صغيرة السن»، هو أمر استثنائي في حد ذاته لكن أغلبية الأمهات لا تعطي الفتاة الإيضاحات الكافية فتبقى مغمورة بالارتباك أمام هذه الوضعية الجديدة التي خلقتها الدورة الشهرية الأولى: فهي تتساءل فيما إذا كان المستقبل يخبأ لها مفاجآت مؤلمة أخرى أو

تتخيل بأنها منذ الآن تستطيع أن تصبح حامل بمجرد الاحتكاك بأي رجل، الأمر الذي يجعلها تشعر نحو الذكور بهلع وذعر شديدين. وحتى إذا أردنا أن نجنبها هذه المتاعب والاضطرابات، وذلك بتزويدها بالشروح الكافية، فإننا لن نعيد السلام إلى قلبها بهذه السهولة قبل البلوغ. وكان بوسع الفتاة أن تتخيل قبل البلوغ مع بعض سوء النية أنها مجردة عن الشعور الجنسي بل يمكنها ألا تفكر على الإطلاق، وقد يحدث لها أن تحلم بأنها ستفتح عينيها في صبيحة أحد الأيام لتجد نفسها قد تحولت إلى رجل، أما الآن فإن الأمهات والعيّات يتهامسن وعلائم الفخر بادية على وجههن: «إنها لفتاة كبيرة الآن». نعم لقد ربحت جماعة الأمهات المعركة، إنها تنتمي إليهن الآن. وها هي تنضم إلى نفر بأنها أصبحت شخصاً كبيراً وأن حياتها ستتعرض إلى انقلاب كبير.

الفكفيلئ القابق

الفتاة المراهقة

تعرضت الفتاة خلال طفولتها إلى مختلف أنواع الضغط والحرمان، ولكنها مع ذلك كانت تتحسس في قرارة نفسها وجود شخصية مستقلة لها، ففي علاقاتها مع أهلها وأصدقائها، في درايتها وفي ألعابها في كل ذلك، كانت تكتشف في نفسها تجاوزاً: فلم تكن تفعل سوى الحلم بسلبيتها المستقبلة. غير أنها اكتشفت حين أدركها البلوغ أن المستقبل لا يتقرب منها فحسب، وإنها يستقر في جسمها ويصبح واقعاً ملموساً، منعتقة من ماضيها الطفولي يتراءى لها الحاضر الآن كمرحلة انتقالية لأنها لا تلمح فيه أي هدف يمكن أن يستثير شعورها ومخيلتها. وبشكل عام، تمضي الفتاة شبابها في الانتظار والترقب. إنها تنتظر الرجل، لقد اكتفت الفتاة طوال حياتها بتفوق الرجل عليها وهذه السمعة التي يتحلي بها الذكور ليست سراباً صبيانياً في خيالها بل تستند على أسس اقتصادية واجتهاعية. هؤلاء الرجال هم أسياد العالم في جميع الأحوال، وكل شيء يوجه المراهقة نحو هذا الاعتقاد ويقنعها بأن مصلحتها تقضي عليها بأن تكون تابعة للرجل، فالأب فخور بنجاح ابنته لدى الرجال والأم ترى في ذلك أملاً في تأمين مستقبل مزدهر لابنتها والرفيقات يعجبن برفيقتهن التي تحظى بأكبر قسط من إعجاب الذكور. ففي المعاهد الأميركية تقاس منزلة الطالبة بعدد المواعيد التي تحصل عليها من الرجال. إن الزواج لا يشكل فقط مهنة مشرفة أقل تبعاً من غيرها، وإنها يسمح للفتاة بأن تتمتع بكامل منزلتها الاجتهاعية، وأن تحقق آمالها الجنسية في أن تكون عشيقة وأماً في آنٍ واحد. ومن المتفق عليه إجماعاً أن الحصول على زوج هو أكبر مشروع بالنسبة للفتاة. ولا شك أن الزواج يحرر الفتاة من منزل أهلها

ومن سيطرة أمها ويفتح أماها المستقبل بواسطة استسلامها السلبي الراضي بين ذراعى السيد الجديد. فهناك من يدعي أن الفتاة حين تستسلم بهذه الطريقة وتتخلى عن شخصيتها، فإن ذلك يعود إلى كونها أقل منزلة جسمانياً ومعنوياً من الفتيان الذين لا تستطيع منافستهم. ولا شك أن البلوغ يطور جسم المراهقة فيصبح أكثر ضعفاً من قبل، أما الأعضاء الأنثوية فهي أكثر دقة ونعومة كها يشكل الثديان بالنسبة للفتاة حملاً ثقيلاً لأنهما يذكرانها في كل حركة عنيفة تقوم بها، وكثيراً ما يسببان لها الآلام. ويخلق عدم توازن إفراز الهرمونات لديها قلقاً عصبياً مستمراً، كما تسبب لها أزمة الدورة الشهرية ألماً لا يُحتمل: أوجاع في الرأس، أوجاع في العضلات، آلام في البطن، كل ذلك يجعل من العسير على الفتاة أن تقوم بأعباء أعمالها العادية، وبالإضافة إلى هذه الآلام الجسمانية تحس الفتاة في أغلب الحيان باضطرابات نفسية فتصبح عصبية المزاج سريعة التأثر، وتفقد السيطرة على جهازها العصبي وجهازها السمباتي وتحدث لديها اضطرابات في دورة الدم وبعض التسمهات الذاتية بشكل يضع بين الفتاة والعالم غشاوة من الضباب المحرق يجثم عليها فيخنقها ويفصلها عما حولها. ومن خلال هذا الجسد الناحب السلبي ترى الفتاة العلل المحيط بها وكأنه حمل ثقيل يكاد يخنق أنفاسها. إنها مضطهدة ومغمورة بالآلام غريبة عن ﴿ نفسها بسبب شعورها انفصالها عن العالم الذي تعيش فيه.

إن الذكر يلجأ إلى المشاجرة وتبادل اللكمات حين يتعرض للإساءة أو إلى أية محاولة لإذلاله وإخضاعه فهو لا يسمح بالتجاوز عليه من قِبَل الآخرين، والعنف هو الدليل ﴿ الحي الذي يبرز فيه شخصيته وإرادته. ولا شك أن رفض العنف بشكل جذري يعني رفضَ كلُّ حقيقة موضعية والانحباس في الشخصية الخيالية؛ وإن الغضب والثورة اللذين لا يتجسدان في العضلات يظلان ضرباً من ضروب الخيال. إنه لحرمان مخيف أن لا يستطيع الإنسان تسجيل خفقات وضربات قلبه على سطح الأرض. ففي جنوبي الولايات المتحدة لا يمكن للزنجي بأي شكل من الأشكال أن يستعمل العنف تجاه البيض، وهذا هو مفتاح «الروح السوداء» الغامضة الغريبة؛ وهذه الحقيقة تفسر تصرفات وسلوك الزنجي السلبية في المجتمع الذي حكم عليه أن يعيش فيه مقيداً سجيناً. وهكذا يتخذ العالم بالنسبة للمراهق وجهاً يختلف عن العالم الذي تعيش فيه المراهقة، حيث تُحرم عواطفها من كل فعالية آنية. ويولِّد هذا الضعف الجسماني لدى الفتاة شعوراً بالنقص يجعلها بصورة عامة خجولة منكمشة على نفسها، فهي لا تؤمن بقوة جسمها التي لم يتسنً لما ممارستها ولا تجرأ على القيام بأي عمل من أعهال المبادرة فلا تثور ولا تبتكر بل تترك نفسه في عالم يسوده الاستسلام والخضوع. إنها تقبل نظام الحياة المفروض عليها كها هو دون أي تغيير أو تبديل. ولقد أتيحت لي فرصة التعرف إلى فتاة شابة تلقت تربية الرجال وكانت تتمتع بقوة جسهانية استثنائية. وكانت تعتقد أنها تماثل الرجال قوة واقتداراً، وعلى الرغم من أنها كانت جميلة، وأن العادة الشهرية كانت تعرضها شهرياً لشتى الآلام العنفة، فإنها لم تكن تعي أو تسلم بأنوثتها فكانت تتصرف بنفس العنف والاندفاع وتقوم بنفس الأعهال التي يقوم بها الشباب ولم تكن تتردد في الدخول في مشاجرات على طريقة الصبيان. لكن تجربتين مؤلمتين تعرضت لهما في تلك الفترة كانتا بالنسبة إليها دافعاً لكي تسلم وتؤمن بأن القوة هي بجانب الذكور فانهارت ثقتها بنفسها حين اضطرت إلى الاعتراف بقوة الذكور، وكان هذا بداية عهد جيد تطورت خلاله نحو حالة الأنوثة والسلبية وقبول صلة التبعية.

وهكذا نرى بأن الحالة البيولوجية للمرأة تشكل بالنسبة إليها حاجزاً يحول دون شعورها بشخصيتها المستقلة. إن الضعف العصبي وعدم التوازن الدموي لا يحول بينها وبين مارسة أية مهنة: فبين الذكور أنفسهم يوجد عدد مختلف من الطبائع والإمكانيات، والاضطراب الذي يصيب الفتاة خلال يومين من كل شهر حتى ولو كان مؤلماً لا يمكن أن يعد عائقاً لها، والواقع هو أن عدداً كبيراً من النساء توفقن بين حالتهن كنساء وبين عملهن في الحياة، فنرى المرأة تمارس مختلف المهن الصعبة وتسافر وترهق نفسها كالرجال، ومع ذلك فإن ضعفها الجسماني لا يسمح لها بمزاولة أصناف العنف. فلو كان بإمكانها أن تشت شخصيتها وتتصرف كها تريد في المجتمع الذي تعيش فيه، فتهارس السباحة وتتسلق الجبال وتقود الطائرات وتناضل ضد العناصر الطبيعية وتتعرض للأخطار والمغامرات، الجبال وتقود الطائرات وتناضل ضد العناصر الطبيعية وتتعرض للأخطار والمغامرات، عنه. إذا استطاعت أن تفعل كل ذلك، فإنها لن تشعر بهذا الخجل أو بهذا الضعف الذي تكلمت عنه. إذا الحالة الاجتماعية العامة للفتاة هي التي لا تترك لها أي مجال لإبراز شخصيتها وإثبات وجودها بل تؤكد على العكس مركب النقص الذي بدأت تشعر به منذ طفولتها.

بل إن هذا المركب يجثم على حياتها من ناحية أخرى فيعيق تطورها الروحي والفكري. وقد لوحظ أن الفتاة تبدأ، اعتباراً من بلوغها، في التأخر عن الرجال في الميادين

الفكرية والفنية. هنالك عدة أسباب لذلك، وأهمها أن المراهقة لا تصادف من حولها التشجيع الذي يحظى به إخوتها، بل على العكس من ذلك، يشجعها الأهل والأصدقاء السجيع الذي يسى . . . ويتحتم عليها نتيجة لذلك أن تقوم بالإضافة لعملها المهني على أن تظهر بمظهر «المرأة»، ويتحتم عليها نتيجة لذلك أن تظهر بمظهر «المرأة»، ى - حرب مر بالواجبات التي تفرضها عليها أنوثتها فتؤدي الأعمال المنزلية والواجبات الاجتماعية التي ب الله على الطالبة والعاملة؛ الأمر الذي يؤدي إلى إجهادها جسمانياً لا تتردد الأم في فرضها على الطالبة والعاملة؛ ومعنوياً. إننا نطلب من الفتاة أن تبقى في البيت وأن تتصرف بشكل لائق، فلا نشجعها طويلة، أو سفرة على الأقدام، أو على الدراجة، أو يهارسن لعبة بريئة كالبليادرو، أو الكرة... إلخ. وإذا سارت المرأة في الطريق فالجميع ينظرون إليها ويراقبونها وإذا ما خطر للطالبات التنزه مجتمعات في الشوارع كما يفعل الطلاب، فإن هذا يثير دهشة المارة إذا رأوا هذه الجهاعات تتبختر في الطريق وتضحك أو تأكل تفاحة أو تتكلم بصوت عالي، كل هذا يعدّ إثارة. وقد يتعرضن للسباب أو إلى شتى أنواع الإهانات البذيئة إذا ما سوّلت لهن أنفسهن الاستمرار في هذا اللهو البريء. ويروى أن بعض الفتيات اللواتي لم تكن أعهارهن تتجاوز الرابعة عشر كن يؤكدن أن الصبيان هم أسعد حظاً منهن، وهذا الاعتقاد يشجع على الكسل والخمول.

ولقد روي أن فتاة اعتادت أن تحمل على أحد الرجال بسبب جبنه وحين لفت نظرها إلى أنها نفسها جبانة أجابت: «أوه إن المرأة شيء آخر».

إن السبب العميق لهذا الشعور بالانهزامية يكمن في أن المراهقة لا تعتقد أنها مسؤولة عن مستقبلها، فلا تحمُّل نفسها أكثر من طاقتها ما دام مصيرها معلقاً بمصير شخص آخر، إنها لا تربط مصيرها بمصير الرجل لأنها تشعر بضعف تجاهه، بل تقبل على العكس بفكر ضعفها تجاهه لأن مصيرها مرتبط بمصيره.

يختلف رد فعل الفتاة المراهقة على وضعها الجديد، من فتاة لأخرى، «فالمرأة الصغيرة؛ التي تعد نفسها لكي تكون أماً، تستسلم بسهولة تامة إلى نتائج التحول الفجائي الذي طرأ عليها ومع ذلك فقد تكتسب هذه ، من ظروف حياتها، ميلاً إلى السلطة يدفعها إلى الثورة ضد سيطرة الذكور فنراها مستعدة لتأسيس أسرة تخضع للسيطرة الأموية لا

لكي تصبح وسيلة للمتعة الجسدية، والقيام بأعباء المنزل. وهذه الحالة نصادفها لدى الفتيات البكر اللواتي تحملن أعباء ومسؤوليات هامة وهن صغيرات. وحين تكتشف «الصبي الفاشل» في نفسها شخصية المرأة، تحس في بعض الحالات بخيبة أمل شديدة يمكن أن تقودها مباشرة إلى مزاولة السحاق.

مقابل هذا الشعور بالنقص تكتشف المراهقة مدى سلطان وضعها السلبي الذي تعيش فيه، فيمتزج بالخجل الذي يوحيه إليها جسدها، عاطفة الزهو والإعجاب بنفسها. هذه اليد التي أثارت انفعالها، وهذه النظرات التي اضطربت لها نفسها إنها هي نداء ورجاء، فيتراءى لها جسدها وكأنه يتمتع بفضائل سحرية، إنه كنز، إنه سلاح، وهي فخورة به. وإذا بها تبدأ بالتبرج والتزين فتصفف شعرها ، وتدرس ابتسامتها من خلال المرآة، ثم تولع بجسمها وكأنه جسم إنسان آخر فتداعبه وتقبل أجزاءه وتمعن النظر في صدرها وساقيها، ونحن نراها تنشد العزلة كي تنعم في التلذذ بمفاتن جسمها، وتعبر عن ولعها بنفسها. وهي تحاول بواسطة بعض الحركات المعقدة تمجيد جسمها من خلال الإطناب والمديح اللذين تلقاهما من الذكور، ولقد أصبح من نافلة القول الإشارة إلى أن الفتاة تريد أن تكون جميلة كي تحظى بإعجاب الرجال وأنها تحاول أن تحظى بالإعجاب لتتأكد من جمالها. وفي عزلة غرفتها أو في المنتديات، حيث تسعى للفت الأنظار إليها، لا تفصل الفتاة رغبتها في الرجل عن حبها لذاتها. ولقد رُوي أن فتاة كانت مولعة بنفسها منذ الخامسة من عمرها، فكانت تعجب بيديها ووجهها ورشاقتها، وكانت تقول: «إنني بطلة نفسي ...، وكانت تطمح في أن تصبح مغنية لكي ينظر إليها الجمهور بإعجاب. وقد وقعت في الحب منذ الثانية عشرة من عمرها فحلمت مثلاً بأن الدوق (هـ) الذي تحبه، دون أن يكون قد تكلم معها مرة واحدة، يركع تحت قديمها: اسيبهرك جمالي وستحبني ... ولا تليق إلا بالمرأة التي آمل أن أكونها".

ولا يتجسد تقديس الذات بعبادة الفتاة لجسمها، وإنها تتمنى أن تمتلك وتشعر بنفسها من كافة الوجوه. وهذا هو هدف اليوميات الخاصة التي تفرغ فيها أحاسيس روحها العميقة السرية. وتتكلم الفتاة مع دفتر مذكراتها كما كانت تتكلم في الماضي مع دميتها، فهو الصديق وكاتم السر، تخاطبه كما لو كانت توجه الكلام إلى شخص حقيقي. وإننا لنلمح من بين السطور بعض الحقائق الخفية المجهولة عن حياة الفتاة الخاصة، وكثيراً وإننا لندمح من بين المستور. وإننا لندمح من بين المستور. ما تكتب الفتاة على غلاف دفتر يومياتها العبارات التالية: "يُقرأ بعد موتي" أو "يُحرق بعد ما نحتب العداه على عبر الفتاة إلى إخفاء وكتهان أمور حياتها الخاصة منذ السنوات القليلة التي موتي». ويبدأ ميل الفتاة إلى إخفاء وكتهان أمور موي.. ويبد بين تسبق سن البلوغ ويتعاظم هذا الميل شيئاً فشيئاً حتى تصل الفتاة إلى درجة الانعزال التام م من الله مثل «ناتاشا» بطلة تولستوي أو قديسة مثل «ماري لينيرو» أو تكتفي باعتبار نفسها روعة من روائع الدهر. وهنالك على الدوام اختلاف كبير بين هذه البطلة والصورة الحقيقية التي يعرفها بها أهلها وأصدقاؤها، وهذا ما يدفعها إلى الاعتقاد بأنها غير مفهومة فتزيد من عزلتها، وتتخيل نفسها مختلفة عن الآخرين، وأعلى منزلة منهم وأن المستقبل كفيل بأن يعوضها عن ضعفها الوقتي.

إلا أن هذه العبادة الانعزالية التي تكّنها الفتاة لنفسها، لا تفي بحاجاتها. ولا بدلها كي تشبع رغباتها من أن تعيش في نفس إنسان آخر، فتنشد العون لدي رفيقات صباها، لأن صديقة القلب تساعدها على الهروب من جو الأمومة التي تعيش فيه لتكتشف العالم الخارجي، وخاصة عالم الجنس. وتتعرى الفتيات أمام بعضهم البعض كما ولدتهن أمهانهن ويقارنّ بين محاسنهن وخاصة صدورهن. ولعلنا لا نزال نذكر مشهد قصة «فتيات بالبزة الله العسكرية، التي يكشف لنا عن ألعاب الفتيات الغريبة حيث تتبادلن المداعبات الجنسبة، وما أوحت كوليت في كتابها «كلودين في المدرسة»... فإن هناك ميولاً سحاقية لدى غالبية الفتيات، وهذه الاتجاهات لا تتميز إلا بعض الشيء من مظاهر حب النفس النرسيسية فهي تجد لدى الطرف الآخر نعومة جسمها نفسها، وتقاطيع جسمها التي يرغب فبها الرجال. وبالمقابل تعبر الفتاة بواسطة عبادتها لنفسها عن عبادة وتقديس الأنوثة بصورة عامة. ولا شك أن هذا هو السبب في ازدهار عادة «الصداقات الخاصة» بين الفتيات في المعاهد والمدارس والمعامل وتتصف بعض هذه الصداقات بالروحية الخالصة، بينها يكون البعض الآخر منها جسدياً بحتاً. ويقتصر الأمر في الحالة الأولى على تبادل الأسرار ببن الصديقتين وتطلع الفتاة صديقتها على دفتر مذكراتها كدليل على منزلتها لديها. وكثيراً ما تلجأ الفتاة إلى تقديم دليل حسي عن حبها لصديقتها، فنحن نرى مثلاً في قصة تولستوي أن ناتاشا تحرق ذراعها بوساطة مسطرة محمّرة كالجمر لتثبت حبها لصونيا. وتطلق الفناة بصورة خاصة على صديقتها شتى النعوت والصفات الرقيقة المثيرة كما تتبادل معها رسائل تطفح بالعواطف الفياضة. وقد أورد «مندهوس» في كتابه «روح المراهقة» عدداً من هذه الرسائل: «عزيزي سوزان: كم أنت جميلة يا صديقتي، كم أنت جميلة! وقد كنت كالخطيبة الإلهية السحرية تشبهين أزهار الوديان. إن منزلتك عندي تفوق منزلة الفتاة العادية، لأنك كنت رمزاً لعدد من الأشياء الجميلة الرفيعة ... وهذا هو السبب يا سوزان البيضاء في أني أحبك حباً صافياً مجرداً يتضمن نوعاً من العاطفة الدينية»

وتعترف فتاة أخرى في يومياتها فتحدثنا عن شعورها بانفعالات أقل رفعة وتجرداً: اكنت هنالك تلتف حول خصري هذه اليد البيضاء الصغيرة بينها كانت يدي مسترخية على كتفها المدور وذراعي فوق ذراعها العاري الدافئ ... ملتصقة بنعومة ثديها وأمامي فمها المتفتح عن أسنانها الجميلة ... كنت أرتعش وأحس بأن وجهي يلتهب ...».

وقد تبحث الفتاة عن مصدر آخر من مصادر إشباع عواطفها في طور المراهقة، فيقع اختيارها في كثير من الأحيان على إحدى معلماتها التي تكبرها سناً، والتي لها قسط كبير من التجربة في الحياة، وتصلح لكي تعوضها عن الرجل الذي تعجب به ولكنها تخافه وتخشاه. وتفضل الفتاة أن تكون صديقتها الكبيرة عزباء، لا علاقة لها بالرجال، لأنها تحرص على ألا يكون موضوع حبها وتقديسها خاضعاً لزوج أو عشيق. وتدور غالبا حوادث هذه الحب الغريب في الخفاء، أو على الأقل بشكل عذري، لكن الانتقال إلى عارسة العلاقات الجنسية العملية هو أسهل في هذه الحالة، مما لو كانت العلاقة بين فتاة ورجل. ذلك أن جسم المرأة لا يبعث الوجل في قلب الفتاة الصغيرة لأنها قد اعتادت عليه ملأة لدى الفتاة الصغيرة لا يتميز بصورة عامة بالعنف ولا تشترط المداعبات السحاقية عمليتي إزالة «البكارة» والاختراق، كما هي الحال في علاقات الرجل بالمرأة. وهكذا فإن الفتاة الصغيرة تشبع عطشها للجنس دون أن تصاب بأية تحولات جديدة مزعجة أو تشعر بأي تنازل من طرفها، وهذا ما تعبر عنه هذه الأبيات الشعرية لـ «رونيه فيفيان» تشعر بأي تنازل من طرفها، وهذا ما تعبر عنه هذه الأبيات الشعرية لـ «رونيه فيفيان» حيث تصف فيها علاقات «النساء اللواتي حلّت عليهن اللعنة» مع عشيقاتهن:

أجسامنا هي لأجسامكن مرآة أخوية

قبلاتنا الهلالية تتصف بالنعومة الشاحبة أصابعنا لاتؤذي مطلقاً زغب الوجنتين وفي وسعنا حين ينحل الزنار أن نكون في الوقت نفسه عشيقات وأخوات.

والواقع هو أن الفتاة المراهقة، توجه أول حب لها نحو المرأة، لأنها تخشى العنف والاغتصاب ولا بد بالطبع أن تسفر كل علاقة بشرية عن وقوع الخلافات وكل حب عن حدوث بعض مظاهر العنف. وقد تتطور العلاقة بين الفتاة والمرأة فتصبح حباً ملتهباً، ولكن الفتاة بصورة عامة لا تنظر إلى علاقتها هذه إلا كمرحلة انتقالية تتلقى خلالها مبادئ الحب الجنسي وتلعب فيها أدوار الغيرة والغضب، والكبرياء والفرح، وكأنها تقلد بذلك ما تحلم بحدوثه في المستقبل خلال علاقتها مع الرجل الذي لم تسنح لها الفرصة في مخالطته، والتي لم تزل تنتظر مجيئه.

يسلب الرجل لبّ الفتاة إعجاباً، لكنه في الوقت ذاته يبعث فيها شعور الخوف والتوجس. ولكي تستطيع أن توفق بين هذه العواطف المتناقضة، تلجأ إلى التفريق بين شخصية الذكر الذي يخيفها وبين الصورة الوهمية المشعة التي تقدسها بورع وخشوع. ولذلك فإن الفتاة تتصرف في هذه المرحلة من حياتها بكل خشونة وفظاظة مع رفاقها الذكور، وتعبد من بعيد عدداً من الرجال الذين لا يمكن أن تقوم بينها وبينهم علاقة جنسية عملية. كممثل السينها، أو بطل ميت أو حي، وفي بعض الأحيان، يقع اختيارها على رجل يتمتع بمنزلة فكرية أو اجتهاعية دون أن يوحي مظهر جسمه في نفسها أي ميل جنسي، كأستاذ مسن مضحك، أو رجل دميم الخلقة، متواضع المركز الاجتهاعي.. الخ، فتحبه بشكل تشبع فيه غرائزها النرسيسية دون أن تضطر إلى إنشاء علاقات جنسية معه. وقد أورد (هـ. دوتش) قصة فتاة جميلة مثيرة لإعجاب الفتيان، يمكنها بكل سهولة أن تقيم علاقات عاطفية مع الشبان المحيطين بها، لكنها مع ذلك فضلت منذ الثالثة عشرة من عمرها أن تحب فتى عادياً يبلغ عمره (17) عاماً لم يوجه إليها بحياته أية كلمة. فحصلت الفتاة على صورته وسجلت عليها بنفسها الإهداء، وظلت خلال ثلاث سنوات تقص في مذكراتها تجاربها الخيالية معه: كانا يتبادلان القبل؛ وكثيراً ما تحدث بينهما

خلافات خيالية، فتنهمر بنتيجتها الدموع من عيني الفتاة إلى درجة الاحمرار ثم يتصالحان، ويهديان الزهور لبعضهم ... الخ. وحين يغير حبيبها عنوانه تكتب إليه رسائل تحفظها في غرفتها ثم تجيب عليها بنفسها.. ولا شك أن هذه القصة تعبر بوضوح عن رغبة الفتاة في تحاشي التجارب الجنسية الحقيقية الواقعية التي كانت تخيفها وترهبها.

تعتز الفتاة بلفت اهتهام الذكور وإثارة إعجابهم وقد تثور ثائرتها إذا انجذبت نحوهم وأعجبت بهم. لقد تعلمت الحياء والخجل في سن البلوغ وسيظل الحياء خلال حياتها ممزوجاً بحب إثارة الإعجاب والزهو بنفسها، فنظرات الشباب تشبع رغبتها وتجرح شعورها في الوقت نفسه. ولا تود أن تقع العين على جسمها إلا بالقدر الذي تود إظهاره، ومن هنا تنشأ هذه التناقضات في تصرفات الفتاة التي تحب الرجال، فهي تبالغ في فتحة ثوبها العليا وتتعمد إبراز ساقيها لكنها لا تلبث أن تحمر خجلاً وتثور غضباً حين تقع عليها عيون الرجال. وإنها لتلهو وتتفنن في إثارة رغبة الرجل لكنها لا تلبث أن تتراجع باشمئزاز حين تشعر بذلك، إن رغبة الذكر تجاهها هي إهانة وإطناب لها في الوقت نفسه، وهذا هو معنى الحياء الأصلي الذي يتداخل بشكل محير مع مختلف وسائل التبرج وشتى وسائط التفنن في إثارة الإعجاب.

تستطيع الفتاة أن تقوم بحركات وتصرفات مثيرة مدهشة حين لا تشعر بأن مبادراتها تكشف عن سلبيتها وضعفها، ولكن حين تشعر بذلك نراها تخاف وتنكمش على نفسها. إنها تبدأ في التخلي عن إرادتها لكنها لا تلبث أن تتصلب وقتل الرغبات وقد تشعر أحياناً بالنشوة الجنسية من خلال جسمها الذي لم يبلغ بعد مرحلة التوازن، وكأنها لذة رقيقة مسرة، وأحياناً أخرى كأنها شيء مزعج مكرب. وقد تثير القبلة انفعالها في البدء ثم لا تلبث أن تضحكها فجأة، وأنها لترضى منح الرجل قبلة لكنها لا تتردد في أن تمسح فمها باشمئزاز بعد ذلك. وكثيراً ما تبدو مبتسمة رقيقة عذبة، ثم تتحول فجأة فتصبح متهكمة عدائية، وهي تبذل في كل مناسبة الوعود بدون حساب ثم تنسى الوفاء بها بكل مساطة. لم تعد الفتاة تقبل في هذا الطور من حياتها أن تكون طفلة، لكنها ترفض في الوقت نفسه أن تصبح راشدة ناضجة، فهي تنقم تارة على تصرفاتها الصبيانية، وتثور تارة أخرى لاستسلامها كامرأة، إنها في وضع يضطرها على اتخاذ موقف الرفض المتسمر.

هذه هي الميزة الرئيسية للفتاة في هذه المرحلة من حياتها. وهي تعطينا تفسيراً كامه هذه هي الميره الرئيسي . لتصرفاتها وسلوكها في المجتمع. إنها لا تقبل المصير الذي يعدّه لها المجتمع والطبيعة التصرفاتها وسلوكها في المجتمع والطبيعة لتصرفاتها وسلودها في أسب المسلم المنطبيعة التقة في قرارة نفسها بشكل لاتجرا ولكنها لا ترفضه مع ذلك بصور إيجابية لأنها مزعزعة الثقة في قرارة نفسها بشكل لاتجرا ولكنها لا ترفيد على العالم الخارجي فتكتفي بالهروب من الواقع أو الاحتجاج عليه على الدخول في صراع مع العالم الخارجي ومعارصة بسورة و رويا الاندفاع في حياتها الجديدة لكنها تخشى في المقابل أن تقطع والتردد. فهي تتلهف على الاندفاع في حياتها الجديدة لكنها تخشى في المقابل أن تقطع والبردد. لهي سنه صلاتها مع ماضيها، وهي تتمنى أن تحصل على فارس أحلامها لكنها تخاف أن تصبح صلاتها مع ماضيها، وهي تتمنى أن تحصل على فارس مريسته. وراء كل شعور بالخوف تكمن الرغبة في التهالك عليه، فالاغتصاب يثير هلعها الشديد لكنها تحنّ إلى الاستسلام.

وتشكل الرغبة في الهزء والسخرية مظهراً من مظاهر معارضة الفتاة المراهقة لحالتها، وكثيراً ما نرى فتيات المدارس ينفجرن مقهقهات ضاحكات حين يسمعن القصص العاطفية، أو حين يتحدثن عن مغاز لات الرجال لهن، أو حين يلمحن عاشقين في حالة العناق. ولقد أتبحت لي الفرصة في التعرّف إلى بعض التلميذات اللواتي يقصدن عن عمد حديقة لوكسمبورغ ويتجولن في ممر العشاق للضحك لا أقل ولا أكثر، كما أن البعض الآخر يذهبن إلى الحمامات التركية لتتاح لهن فرصة الضحك والتهكم على السيدان ذوات البطون الضخمة الثقيلة. ولا شك أن هذا الميل إلى التشهير بأجسام النساء والتهكم على الرجال والضحك والهزء من الحب، ما هي إلا وسيلة من وسائل إنكار الحياة الجنسة والطعن بها، كما تهدف من وراء هذا الضحك والمرح إلى التغلب على ضيق المرأة واندفاع عواطفها، فهي تلعب بالصورة وبالكلمات لتبدد عن ذهنها الإغواء وسحره الخطير.

ويلاحظ غالباً لدى الفتاة في هذا الطور من حياتها بعض الأهواء الغذائية الغريبة فهي تأكل رصاص الأقلام، ورؤوس القطع الخشبية، وبعض الحيوانات البحرية الحبة، وتبتلع عشرات حبات الأسبرين، وقد تبتلع الذباب والعنكبوت. وقد تعرفت إلى إحدى النهاب والعنكبوت. وقد تعرفت إلى إحدى الفتيات التي كانت منهمكة في تحضير مزيج كريه من القهوة والنبيذ الأبيض ثم نمبر نفسها على ابتلاعه، وفي أحيان أخرى، كانت تلجأ إلى تناول قطع السكر بعد غطسها في الخل... وتلجأ الفتاة في بعض الحالات إلى إصابة فخذها بجروح بواسطة موسى الحلاقة وإلى حرق جسمها بوساطة لفافة تبغ مشتعلة ... إلخ.

تعد هذه الحالات السادية استباقاً للتجربة الجنسية وتمرداً عليها، فهي تفكر بأن تحمل هذا العذاب يضاعف مقاومة الجسم ضد كل طارئ في المستقبل بها في ذلك ما يحدث في ليلة الزواج، إنها تعلم بأنها معدة لتكون فريسة مسلوبة الإرادة، ولذلك فهي تطالب بالحرية حتى في حقها في تحمل الألم والشعور بالاشمئزاز. وهي حين تفرض على نفسا آلامها الرضوض والحروق والجروح، تحتج بذلك ضد عملية الاختراق التي ستزيل بكارتها. وقد تبلغ ثورة الفتاة ضد وضعها السلبي حداً يدفعها إلى ارتكاب أعمال خطيرة حِداً. فعدد كبير من الفتيات العذاري مصابات بمرض السرقة، ويمثل هذا المرض ميل الفتاة المراهقة إلى مخالفة القوانين والاعتداء على كل ما يقدسه الناس. إنها حين تأخذ أشياء لاحق لها بها تؤكد بكل وقاحة استقلالها وتفرض شخصيته تجاه الأشياء المسروقة والمجتمع الذي يحرّم السرقة، كما أنها ترفض بعملها هذا الخضوع للنظام السائد.

يحدث كذلك كثيراً أن تهرب الفتاة بعيداً عن منزل أبويها فتغيب ثلاثة أيام أو أكثر ثم تعود من تلقاء نفسها، وهذا العمل لا يعبر عن رغبتها في قطع العلاقات نهائياً مع أهلها وإنها هو تمثيلية يحلو لها أن تمثلها لتثبت شخصيتها المستقلة تجاه ذويها. وقد يصاحب هذا الهروب مضاعفات خطيرة، فتتخيل الفتاة نفسها غانية وتلعب هذا الدور، فتتبرج وتتزين بشكل يلفت النظر، وتطل من النافذة موجهة نظرات الإغراء إلى المارة، كما تترك في بعض الحالات البيت وتقوم بتمثيل الدور عملياً. إن هذا السلوك يعبر في الغالب عن اشمئزاز الفتاة من الإحساس الجنسي وشعورها بالإثم بسبب ما تحس به فتقول لنفسها: ما دمت أفكر بهذه الأمور وأحس بهذه الرغبات فإن الغانية لا تقل منزلةً عني لأني مثلها غانية.

وفي بعض الأحيان تشعر برغبة شديدة في الانعتاق من هذه الوضعية التي تعيش فيها، فتسعى إلى التحرر قائلة لنفسها: لننته من هذه الأمور، ولنذهب إلى أقصى حد ممكن، إنها تريد أن تثبت لنفسها أن الحياة الجنسية ليس لها أية أهمية لديها، فتعرض نفسها لأول رجل تصادفه في طريقها.

إلا أن الفتاة لا تقتصر على المعارضة السلبية لحالتها المفروضة عليها فرضاً، بل تسعى في الوقت نفسه إلى تعويض ما ينقصها في الحياة، وسدَّ الفراغ الحاصل في حياتها الجديدة، فتلجأ إلى التمثيل والخداع والتلاعب، ولعل هذا هو السبب في اتهامها بالمراءاة

والكذب واختلاق الحكايات والقصص. والواقع أن المجتمع هو الذي يفرض عليها التكتم والتمثيل والكذب.

حين ببلغ المرابع المرابع المرابع المحتمدة - تنبه الحس الجنسي. أولى الاضطرابات الجنسية - الحمى مؤلة: البلوغ - الدورة الشهرية - تنبه الحس المحتمد عن الماد الماد الماد المحتمد مؤله. البلوح المحارث الله منزاز - التجارب البشعة وكل ذلك اضطرت إلى كتمانه في قلبها الأولى - المخاوف - الاشمئزاز - التجارب البشعة وكل ذلك اضطرت إلى كتمانه في قلبها الاولى - بمساو . فتعلمت أن تحتفظ بأسرارها لنفسها بكل عناية. ولا شك أن مجرد اضطرارها إلى إخفاء مناديلها الصحية والتكتم حول مواعيد دورتها الشهرية يدفعها إلى الكذب والتمثيل. يقص علينا (بورتر) أن فتيات أميركا اللواتي كن يعشن حوالي عام 1900 كن يتصنع المرض فيبتلعن مزيجاً من الملح والليمون لإيقاف دورتهن الشهرية رغبةً منهن في الذهاب إلى الحفلات الراقصة؛ لأن الفتاة تخاف من أن يشعر الشبان بحالتها من خلال الهالة الزرقاء المحيطة بعينيها التعبتين، ومن الرائحة التي قد تنتشر في بعض الأحيان. إنه لمن الصعب في الواقع أن تلعب الفتاة دور المعبودة والجنية والأميرة الحالمة حين تحس بوجود قطعة من القهاش الدامية ما بين فخذيها. إن التبرج والتزين وتجاعيد الشعر المزيفة وحوامل الثديين المنفوخة بشكل مبالغ فيه هي عبارة عن أكاذيب، حتى إن الوجه نفسه يظهر وكأنه قناع، فترى تعابير الفتاة تتغير من موقف إلى آخر بشكل يدعو حقاً إلى الإعجاب، فتتحول نظراتها فجأة من التحديق والتركيز إلى الاسترخاء والظهور بمظهر الفتاة المنتظرة لفتى أحلامها، المستسلمة لمصيرها المحتوم وابتسامة عذبة تدور على شفتيها: إنها تنتظر وجميع حركاتها وسكناتها وابتساماتها تعبر عن الدعوة والنداء، إنها لم تعدسوي زهرة معروضة أو ثمرة حان قطافها.

والرجل لا يفتأ يشجعها على ضروب الإغواء والإغراء لأنه يجب أن يكون فريسة لهما ولو أبدى بعد ذلك استياءه واتهم المرأة باصطناع وتمثيل هذه الطرق الملتوية. إن المرأة حين ترى بأن جميع الطرق مسدودة في وجهها، وأنها لا تستطيع أن تفعل وإنها يجب علبها أن تكون، تشعر وكأن لعنة تجثم على صدرها. إنها تعلم بعدم وجود أية مسؤولية على عاتقها وأن لا أهمية لها في عالم الرجال الذي تعيش فيه: وما دامت لا تستطيع أن تقوم بأي عمل جدي فإنها تضطر إلى حَبْك القصص والأقاويل فتنهك نفسها كالطفل الصغبر بمشاهد الغضب والثورة والدموع وتتصنع المرض، وتظهر الاضطرابات المستبرية لتلف

الأنظار إليها وتثبت أنها شخص له قيمته في الحياة. ثم هي تتدخل في مصير الآخرين لأن كل سلاح جيد بالنسبة إليها، فتفشي الأسرار وتخترع الأقاصيص وتخون وتغتاب، إنها بحاجة لخلق جو المأساة فيها حولها لتشعر بأنها تعيش ما دامت لا تستطيع أن تستمد العون من حياتها الداخلية. وقد تتطرف فتتمسك بكل شيء بعناد وإصرار دون أية مهادنة أو مساومة، فتولع بها هو نهائي ومطلق لأنها ما دامت لا تستطيع أن تتصرف في مستقبلها فهي تنشد التوصل إلى ما هو مطلق وخالد. «لن أتنازل مطلقاً، وأريد أن أحصل دائهاً على كل شيء الهذا ما كتبته الماري ليفروا. إن هذه الإمبريالية الصبيانية لا يمكن أن تصادف سوى لدى الشخص الذي يحلم بمصيره لأن الحلم يبدد الزمن ويحطم العقبات وهو بحاجة إلى التضخيم والمبالغة لتعويض واقعيته المنعدمة. إن الفتاة تود لو تحصل على كل شيء بسبب عدم وجود أي شيء يرتبط بها ويتبعها، ومن هذه الطبيعة تستمد الفتاة تجاه الراشدين والرجال بصورة خاصة صفة «الولد الشيطان». إنها لا تقبل أي تحديد يفرضه عليها شخص آخر ضد دخولها إلى عالم الواقع بل هي تتحداه وتدفعه إلى تجاوز تلك الحدود، وهكذا فإن هيلت تنتظر من سولنس أن يعطيها مملكة «من كتاب سولنس البناء لابسن». إن غزو هذه المملكة لا يقع على عاتقها ولذلك فهي تريدها مملكة بدون حدود وتطلب منه بأن يشيد لها أكبر وأعلى قلعة في الوجود وأن يصعد إلى القمة: إنه يتردد في التسلق خوفاً من الإغماء أما هي التي ستبقى على سطح الأرض تنظر إليه وهو يتسلق فإنها ترفض هذا الضعف البشري منه ولا تقبل مطلقاً أن تصنع الحقيقة حدوداً لأحلام العظمة التي تشعر بها.

يتبين لنا مما تقدم أن جميع المساوئ والعيوب التي تلتصق بالمراهقة ليست سوى تعبير صادق عن وضعها الاجتهاعي وإنه لوضع مؤلم أن تشعر الفتاة بسلبيتها وتبعيتها في سن الأمل والطموح، في السن التي تتفتح خلالها إرادة الحياة لدى الإنسان ليبني لنفسه مكاناً على سطح الأرض. ففي هذه الفترة الحافلة من العمر تتعلم بأن الانتصار محرم عليها، وأنه يجب عليها أن تتخلى عن شخصيتها المستقلة؛ وأن مستقبلها يتوقف على إرادة ومشيئة الرحال.

إلا أنه يحدث في بعض الأحيان أن هذه الفتاة التي تهرب من خلال الطرق الملتوية من واقعه المؤلم، تنسجم مع واقعها في النهاية وتظهر صفات خاصة تجعلها تبرز إلى المجتمع بوجه وشخصية جديدين فحياتها المتكتمة القلقة المليئة بالمتناقضات والتعقيدان المجتمع بوجه وشخصية جديدين فحياتها الداخلية تطوراً أكثر عمقاً من حياة إخوتها وتصبع تغذي تفكيرها وتوسع وتتطور حياتها الأمور النفسية أكثر من الذكور الملتفتين نحو تحقيز أكثر تحسماً لحركات قلبها وتتفهم الأمور النفسية أكثر من الذكور الملتفتين نحو تحقيز الأهداف الخارجية. وقد تستطيع أن تعطي لهذه الثورات التي تصارع بها العالم شكار الأهداف الخارجية. وقد تستطيع أن تعطي والتقيد بالتقاليد وحين تشعر يوماً بعد يوم عميقاً مهيمناً فهي تتحاشى فخاخ الحب والتقيد بالتقاليد وحين تشعر يوماً بعد يوم بغموض شروط حياتها تدفعها شجاعتها إلى إعادة النظر في التفاؤل السائد حولها والقبم بغموض شروط حياتها تدفعها شجاعتها إلى إعادة النظر في التفاؤل السائد حولها والقبم الجامدة والأخلاق المليئة بالنفاق والرياء.

تنصرف الفتاة حين لا يقدر لها أن تصادف الحب، إلى التمتع بمظاهر الفن والشعر وبسبب كونها متأثرة لا مؤثرة تقضي الفتاة أوقاتها في التأمل والتحسس والتسجيل؛ ونجد الألوان والابتسامات لديها أصداء عميقة. ذلك أن مستقبلها ومصيرها منقوشات خارج حياتها الداخلية، في المدن المشادة وعلى وجوه الرجال المختلفين. إنها تتذوق بشكل أشد عمقاً وعاطفية من الرجال لأنها تقف موقف المتفرج من العالم المحيط بها، فعوضاً عن أن تتم بتأثيرها على الأشياء تنصرف إلى سبر غورها واكتشاف معانيها، ومن النادر أن تشعر في قرارة نفسها بنفحة خلاقة، إذ تنقصها غالباً الوسائل التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها لكنها تظهر في محادثاتها ورسائلها ومحاولاتها الأدبية، حساسية نادرة لا مثيل لها. تتهافت الفتاة الشابة بحاس نحو الأشياء لأنها لم تحرم بعد من جميع عناصر تفوقها، ونما يزيد في اندفاعها أن القيود الاجتماعية لا تسمح لها في أن تنجز أو تبتكر شيئاً دائماً يشهد بقوة إبداعها وهذا ما يدفعها إلى الشعور بحب غريب تجاه الطبيعة فتقدسها أكثر من الفتى المراهق.

إن الطبيعة المتمردة المجردة عن الإنسانية تلخص بكل وضوح كل ما هو كائن، والمراهقة التي لم تقتطع بعد أي جزء من العالم المحيط بها، تشعر بفضل هذا الفراغ في حياتها بأن العالم كله هو مملكتها، وهي حين تمتلكه تشعر بالكبرياء وكأنها تمتلك نفسها. وقد وصفت لنا كوليت في عدد من كتبها هذه الاتجاهات لدى الفتاة المراهقة:

«كنت منذ ذلك الوقت أحب الفجر الذي منحتني إياه أمي، حباً جنونباً ففلا استطعت أن أحصل منها على موافقتها في أن أستيقظ في الساعة الثالثة والنصف من كل صباح فأذهب وبيدي سلة خالية نحو الأراضي المزروعة القريبة من النهر، نحو أشجار الفاكهة المتنوعة.

في الساعة الثالثة والنصف والكون نائم تحت زرقة السهاء الصافية ووسط الجو الرطب البارد، كنت أنحدر في الطريق الرملية وطبقات الضباب تغمر ساقي ثم لا تلبث أن صعد شيئاً فشيئاً نحو صدري الممتلئ لكي تبلغ بعد ذلك شفتي وأذني ثم تلمس أنفي وتغمر جميع أجزاء جسمي...

على هذه الطريق وفي هذه الساعة كنت أشعر وأقدِّر قيمتي وثمني كإنسان بشري وكنت أعيش لحظة من لحظات عمري السعيدة فأشعر بالفرح يغمرني من كل جانب لأني كنت حرة طليقة كالطبيعة نفسها».

تطفح مختلف النصوص الأدبية بوصف وتحليل شعور الفتاة المراهقة تجاه الحقول والغابات. والواقع هو أن إرادة الأم والقوانين والعادات والتقاليد تسود في المنزل الأبوي والفتاة لا تنشد سوى التخلص من هذا الجو الذي تشعر وكأنه يضغط على أنفاسها ويحرمها من حريتها فهي تريد أن تصبح شخصاً يتمتع بالسعادة، لكن قيود المجتمع لا تبيح لها أن تدخل عالم الراشدين إلا بتحولها إلى امرأة تابعة لغيرها. ولذلك فهي تدفع بتنازلها ثمن حريتها. لكنها تشعر في عالم النباتات والحيوانات بأنها إنسان بشري كامل متحرر من قيود الأسرة ومن روابط التبعية نحو الذكور، يتمتع بالسيادة والحرية. إنها لتجد في مجاهل الغابات صورة حية لعزلة نفسها وفي الأفق الواسع الممتد حول السهول شكلاً محسوساً لسموها وتفوقها، إنها هي هي نفسها في هذه الأرض اللامتناهية هذه القمم المنتصبة نحو السهاء وهذه الطرق الذاهبة إلى المستقبل المجهول. ومن قمة الهضبة تستطيع الفتاة أن تشرف على ثروات الأرض المتناثرة تحت قدميها المعروضة لها من خلال نبض الحياة المنبعث عن المياه الجارية ومن خلال تموج الأنوار المرتعشة ... إنها لتشعر بالسعادة تغمرها والدموع تسيل من مآقيها وبلذة كانت لا تزال تجهلها حتى الآن. فالروائح والألوان تتكلم لغة غامضة تثبين الفتاة مع ذلك منها كلمة واضحة وضوح الشمس: «الحياة».

لم يعد الجسم في قلب هذه الطبيعة الرائعة عيباً مخجلاً، بل إنها لتتبين في هذه الرغبات الجامحة التي كانت تكبتها تحت أنظار أمها، النسغ الذي يصعد في جذوع الأشجار، كلا إنها لم تعد ملعونة لأنها تشعر بقرابتها لأوراق الأشجار وأزهارها، إنها في

الوقت نفسه الروعة والجال، والروح والحياة، وجودها حتمي منتصر، كحتمية وجود الوقت نفسه الروعة والجال، والروح والحياة التي تعيش فيها، من أعماق عزلتنا المربعة الأرض نفسها. ومن خلال حالة العبودية التي تعيش الدور الذي تلعبه أغلبية الذكور. تستطيع الفتاة أن تلعب دوراً هاماً في الحياة يفوق بكثير الدور الذي تلعبه أغلبية الذكور. فنراها توحي الشعراء وتصنع البطولات، ذلك أن إحدى الوسائل التي تنتهجها الفتاة فنراها توحي الشعراء وتصنع البطولات، ذلك أن المحدودة.

يتضح لنا من هذه اللمحة التي أتينا على ذكرها حول أزمة الفتاة في سن البلوغ أنها يتضح لنا من هذه اللمحة التي أتينا على ذكرها حول أزمة الفتاة وردود الفعل تمر في مراحل عصيبة من حياتها. لكن هذه الحالات العصيبة المختلفة وردود الفعل الغريبة لا تنطبق على جميع الفتيات بوجه عام فهنالك نساء يبقين أطفالاً طيلة حياتهن، كما قد يستغرق السلوك الذي شرحناه مدة طويلة يصاحب الفتاة مع تقدمها في العمر. ومع ذلك فهنالك فرق كبير بين الفتاة المراهقة العاطفية التي يبلغ عمرها 15 سنة وبين «الفتاة الشابة الكبيرة» فهذه الأخيرة تنسجم أكثر من الأولى مع الواقع ولا تتصرف بشكل خيالي غير واقعي ولا تشعر بالانقسام في داخل نفسها. وقد كتبت «ماري باشكرتسيف» حيث بلغت 18 سنة من عمرها تقول: «كلها تقدمت نحو شيخوخة شبابي زاد عدم اهتهامي وغمرني عدم الاكتراث. لم يعد هنالك شيء يخفق له قلبي وقد كان يخفق لكل شيء».

وكتب "إيرين ريليوت" تقول: "لكي نكون مقبولات من الرجال يجب أن نفكر كما يفكرون، وإلا فإن نصيبنا يكن العزلة المؤلمة. وأنا الآن بعد أن لاقيت ما لاقيت أحب أن أعيش في قلب المجتمع لا على هامشه وأن أحيا دون أن أضطر إلى الانتظار وأحلم بالحبيب المنتظر". وكتبت كذلك فيها بعد: "من كثرة ما لاقيت من آيات الغزل والإعجاب والإطراء... إلخ، أصبحت طموحة بشكل مخيف ولم أعد أشعر بالسعادة الرائعة المذهلة التي كنت أحس بها في الخامسة عشرة من عمري، بل إنها أصبحت نوعاً من الثهالة الباردة الجامدة أثار بواسطتها من الحياة وأصعد في معارجها. إني أغازل وألعب حتى الحب، لكني لا أقع فريسته.. ومع مرور الزمن اكتسبت ذكاء أكثر فأكثر وتحليت ببرودة الأعصاب وهدوء البال. إني أضيع قلبي، وفي فترة شهرين فقط تركت طفولتي إلى غير رجعة المعرود البال. إني أضيع قلبي، وفي فترة شهرين فقط تركت طفولتي إلى غير رجعة المعرود الناس المعرود المعرود الناس المعرود المعرود الناس المعرود المع

لا بد وأن تنتهي الفتاة إلى قبول أنوثتها، وفي أكثر الأحيان، تشعر بالسعادة لأنها تنعم مجاناً ودون مقابل للذائذ والانتصارات في لهوها وغزلها ولعبها قبل أن تستقر نهائباً في

100 الجزء الثاني: مراحل تكوين المرأة

ثنايا مصيرها المحتوم وهذا ما تصفه (ف. ولف) عن إحساسات فتاة لعوب متبرجة خلال إحدى حفلات السهرة.

«كنت أشعر وكأني ألمع في الظلام؛ وساقاي الملساوان يحتكان ببعضهما البعض ينعومة بينها كانت أحجار عقدي الباردة تداعب عنقي. إني مستعدة ... وشعري يتمتع بالسحر المنشود، وشفتاي قانيتان كما يجب. إني مستعدة للانضهام إلى هذه الجماعات من الرجال والنساء التي تصعد السلم: مررت أمامهم معرضة نفسي لأنظارهم كها تعرضوا هم أنفسهم لأنظاري ... وفي هذا الجو المعطر المتلألئ كنت أتفتح كما تتفتح الزهرة من خلال أغصان الأشجار ... وكنت أشعر أني أملك إمكانيات لا حدود لها في نفسي؛ فقد كنت أتبدل في كل لحظة من فتاة لعوب إلى أخرى ضاحكة، ومن وضع الإغراء إلى وضع المتأمل الحزين، منتحية نحو اليمين وعيوني تلمع تحت الأنوار .. قلت لهذا الفتى الشاب «ادن مني ...» فدنا، واتجه نحوي. إنها من أروع لحظات حياتي وأشدها إثارة. كنت أرتعش وأتموج. ألا نبدو رائعين ونحن جالسان سوية نتسامر؟ أنا بثوبي الجميل من الساتان وهو ببذته الرائعة باللونين الأسود والبيض؟ إن رفيقاتي يستطعن الآن أن يحدقن وينظرن نحوي، وللرجال كذلك أن يفعلوا .. لأني أستطيع أن أرد للجميع نظراتهم، فأنا منهم وفيهم، لأني دخلت عالمي العجيب من بابه المفتوح الذي لا يزال ينفتح بدون توقف. ولربها تبدلت حياتي تبدلاً جذرياً في المرة القادمة التي سينفتح فيها .. نعم إن الباب ينفتح على مصراعيه. «أوه.. ادن مني» قلت لهذا الفتى الشاب وأنا أنحني نحوه كزهرة مذهبة كبيرة. «ادن!» قلت له، وإذا به يتجه نحوي ..» .

كلما تقدمت الفتاة في العمر، زادت وطأة سلطة الأم عليها. فإذا كانت تقوم في البيت بالأعباء المنزلية، فإنها تتضايق بسبب قيامها بدور المعاونة لأمها وتود لو كان لها بيت خاص وأولاد تشرف على تربيتهم. أما إذا كانت تعمل خارج البيت فإنها تستاء من معاملة أهلها لها كعضو من أعضاء العائلة العاديين وتود لو عوملت كفرد له شخصيته المستقلة.

وتتطور الفتاة مع مرور الزمن فتصبح أقل رومانتيكية من قبل، وتنصرف إلى التفكير بالزوج أكثر من التفكير بالحب، ويصبح أقصى ما تتمناه أن تحصل في هذا العالم على وضعية ثابتة فتتزوج وتعيش حياة النساء.

وهذا ما كان يخالج ذهن «بروسارن» في كتاب «سارن» لماري ويب: «كنت أفكر بأني إذا لم أتزوج، فإن مصيري مؤلم بدون أي شك، فجميع الفتيات يتزوجن. إن الفتاة عودة تمتلك بيتاً خاصاً لها حين تتزوج، وقد تحصل على مصباح تنيره في المساء ساعة عودة رجلها من عمله، أما إذا لم يكن لديها سوى الشمعات، فهذا سيان، لأنها تستطيع وضعها بقرب النافذة، وحينئذ يقول الرجل: «إن امرأتي في البيت لأن الشمعات مضاءة». ثم يأتي يوم تلد فيه الزوجة طفلاً جميلاً، فترسل الدعوات لحضور حفلة التعميد، ويهرع الجيران يوم تلد فيه الزوجة طفلاً جميلاً، فترسل الدعوات لحضور حفلة التعميد، ويهرع الجيران إليها ملتفين حولها كما يلتف النحل حول ملكتهم. كنت أقول لنفسي حين تسوء الأمور بالنسبة لي: لا بأس يا «بروسارن»! سيأتي يوم تصبحين فيه ملكة ضمن خليتك الخاصة».

إن الحصول على زوج يصبح بالنسبة لجميع الفتيات من مختلف النزعات أمراً حيوياً هاماً. وتتحول هذه القضية إلى مشروع مستعجل خطير، وتفقد «صديقة القلب» مكانتها الممتازة، لأن الفتاة ترى في رفيقاتها منافسات لها في نضالها للحصول على الزوج، الأمر الذي يجعلها ضيقة الأفق، تلجأ إلى المناورات، وتظهر بمظهر الخشونة والأنانية. وإذا ما تأخر أمير أحلامها عن الظهور، تصبح الفتاة غريبة الطباع، منعزلة عن العالم متعجرفة مليئة بالحسد لقرينتها.

لاشك أن طباع وسلوك الفتاة الشاب تعبر عن وضعيتها الاجتهاعية: فإذا تغير هذا الوضع يتغير وجه المراهقة وأصبح يبدو لنا مختلفاً تمام الاختلاف. وقد أصبح في وسع الفتاة في يومنا هذا أن تمسك مستقبلها بين يديها، عوضاً عن تركه للرجل يتصرف به كها يشاء. فإذا أتيح لها ممارسة الرياضة، أو الانصراف إلى الدراسة، أو التدرب على مهنة من المهن، أو مزاولة بعض النشاط السياسي والاجتهاعي، فإنها تتحرر من التفكير في الرجل ولا تشغل نفسها إلا قليلاً جداً بالمشاكل العاطفية والجنسية. ومع ذلك فإنها تصادف صعوبات تفوق ما يلاقيه الرجل الشاب، وذلك في محاولتها التي تقوم بها لفرض نفسها وإرادتها على المجتمع كفرد مستقل. لقد قلت بأن الأسرة والعادات الاجتهاعية لا تشجع وارادتها على بذل جهودها في سبيل الوصول إلى حريتها، وأضيف إلى ذلك بأنه حتى ولو اختارت الاستقلال في حياتها فلا بد أن تترك فيها مكاناً للرجل وللحب؛ وسينتابها الخوف في الغالب إذا كرست نفسها لعمل من الأعمال، من أن تفشل في حياتها كامرأة،

وهذا الشعور موجود في قرارة نفسها على الدوام؛ يضع الحدود أمام تماديها في الحصول على الاستقلال. إن المرأة العاملة تحرص على التوفيق بين عملها وبين حياتها كامرأة، وهذا لا يتطلب منها أن تكرس وقتاً كبيراً لزينتها وتبرجها وإنها يؤدي إلى تجزئة مصالحها الحيوية إلى شطرين. فالطالب يشغل وقته على هامش برامجه الدراسية بشتى التسليات الفكرية التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج مدهشة، لكن أحلام الفتاة تتجه اتجاهاً آخراً فتفكر بزينتها وجمالها، وبالرجل وبالحب، ولا تكرس سوى الحد الأدنى من وقتها لدراستها ومستقبلها. وإن السبب في ذلك لا يعود إلى ضعف في تكوينها العقلي أو إلى عدم إمكانيتها في تركيز ذهنها، لكنه ينحصر فقط في كونها مضطرة على الدوام إلى تجزئة مصالحها وأهدافها؛ التي تتوافق بصعوبة بالغة فيها بينها.

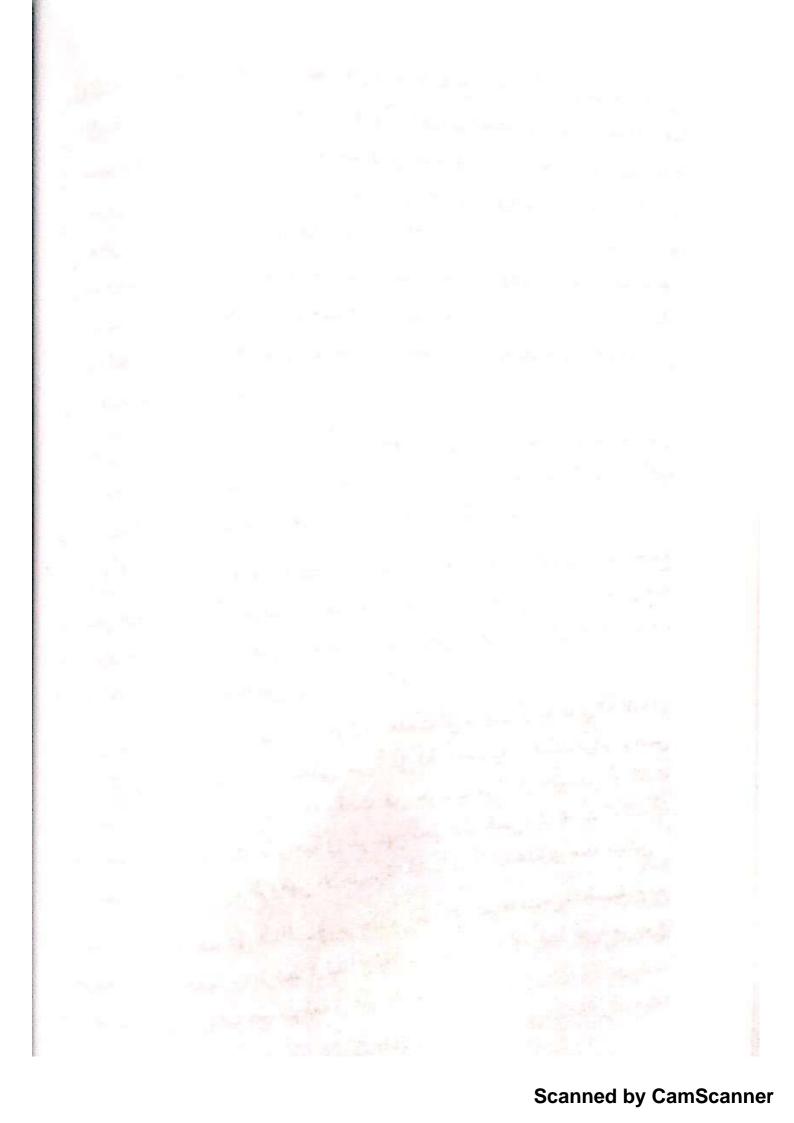
كثيراً ما تعتري الناس الدهشة أمام السهولة التي تتخلى فيها الفتاة عن الموسيقى والدراسة والمهنة، إذا وجدت زوجاً مناسباً لها: الأمر الذي يدل على أنها لا تعلق أية أهمية على هذه المجالات الفكرية فلا تشعر بأية خسارة في حالة تخليها عنها.

وإلى أن تتحقق المساواة الاقتصادية التامة بين الرجل والمرأة، وإلى أن يكف المجتمع عن النظر إليها كمتعة أو غرض في خدمة الرجال أسياد المجتمع، إلى أن تتحقق هذه الأمور فإن حلم النجاح السلبي في كنف الرجل سيظل هدفها الأول في الحياة، وسيحد على الدوام من نجاحها الشخصي في الحياة العملية.

حين تبدأ الفتاة حياتها كراشدة لا تكون قد تعلمت كل ما يجب أن تتعلمه في الحياة، وإنها يلزمها أن تتلقى بشكل تدريجي أو فجائي تدريباً على الحياة الجنسية .. هنالك فتيات يرفضن بشدة التدرب على الحياة الجنسية إذا وقعت لهن حوادث مؤلمة في طفولتهن أو كانت تربيتهن السيئة تهدف إلى بث الكراهية في نفوسهن نحو عالم الجنس، كما يحدث كذلك أن تضطر بعض الفتيات بسبب ظروفهن الاجتماعية الخاصة إلى البقاء عذارى طيلة حياتهن.

لكن الفتاة تصادف على الغالب في مرحلة من مراحل عمرها التجربة الجنسية، ومع أن الطريقة التي تواجهها بها ترتبط ارتبطاً وثيقاً بهاضيها، فإنها تجد فيها تجربة من نوع جديد، تعرض لها في ظروف غير متوقعة وتتأثر بها تأثيراً شديداً.

هذه هي المرحلة التي يجب علينا الآن معالجتها.



الفَطَيْلِ الثَّالِيْن

التدرب الجنسي

يبدأ التدرب الجنسي لدى المرأة، كها هي الحال لدى الرجل، منذ أيام الطفولة الأولى. لكن التجارب الجنسية للفتاة الشابة ليست امتداداً لنشاطها الجنسي السابق، وإنها تكون في أغلب الأحيان عنيفة وغير متوقعة وتشكل بالنسبة لها حادثة جديدة لا تمت بأية صلة للهاضي. ومن المعروف أن المشاكل الجنسية تعرض لها جميعها دفعة واحدة خلال فترة التدرب وتتخذ شكلاً حاداً ومستعجلاً. فإما أن تنتهي الأزمة بسلام، فلا تترك أي أثر في حياة المرأة، أو أن تتطور تطوراً خطيراً في بعض الحالات، فتؤدي بالفتاة إلى الانتحار والجنون. ومها يكن الأمر فإن مستقبل ومصير الفتاة معلق على الطريقة التي تستقبل بها الحياة الجنسية، وقد أجمع علماء النفس على الأهمية الكبرى لفترة التدرب الجنسي في حياة المرأة، هذه الفترة التي تترك جذوراً عميقة في جميع مراحل حياتها المقبلة.

هنالك اختلاف كبير بين الرجل والمرأة تجاه الحياة والعمل الجنسيين. فالرجل يجب في العملية الجنسية تأكيداً لشخصيته وامتداداً لتفوقه، لأنه يلعب الدور الرئيسي بينها تكتفي المرأة بالقيام بدور الفريسة التي تتلقى المبادرات الجنسية للرجل بكل استسلام وخضوع. الواقع أن الحياة الجنسية للمرأة هي أكثر تقيداً لأنها تعكس وضعيتها الاجتماعية، وهي تتميز بتعارض عضوين من أعضائها التناسلية: البظر والمهبل. ففي مرحلة الطفولة يكون الأول مركز الإحساس الجنسي النسوي بينها يستمر النظام البظري على حاله بعد فترة البلوغ، دون أن يلعب أي دور في عملية الجماع الطبيعية أو في نظام

التوالد. ويكتسب المهبل الأهمية الأولى بعد سن البلوغ لأنه واسطة اختراق جسمها من البلوغ لأنه واسطة اختراق جسمها من قبّل عضو الرجل، ولأنه وسيلة الإخصاب والتوالد، لكنه لا يتحول إلى مركز جنسي قبّل عضو الرجل، ولأنه وسيلة الإخصاب عند المتعلق الذكر.

جرت العادة على أنه يحق للرجل أن «يأخذ» المرأة في أي وقت يشاء، لكنها لا جرت العادة على أنه يحق للرجل أن عضوه في حالة الانتصاب. وما دامت المرأة متعة تستطيع أن تفعل مثله إلا إذا كان عضوه في حالة الانتصاب. وهو السلبية، للرجة وغرضاً للرجل فإن وضعها لا يغير شيئاً مذكوراً من دورها الطبيعي وهو السلبية، للرجة أن عدداً من الرجال لا يأبهون فيها إذا كانت المرأة التي تشاركهم سريرهم ترغب في الجماع أو أنها تستسلم إليه تلبية لرغبته. كما يمكن للمرأة أن تخصب وتنجب الأولاد ولو أنها لم تشعر بأية لذة. ولا يشكل الحمل بالنسبة لها نهاية الدورة الجنسية، وإنها بدايتها، وهي تتحقق بتهامها بكل بطء وألم في الولادة والإرضاع.

وهكذا فإن الجو الذي تستيقظ فيه انفعالات المرأة الجنسية يختلف تمام الاختلاف عن الجو الذي يصادف الفتى. وردود فعل المرأة الجنسية شديدة التقيد حين تواجه الرجل لأول مرة. وليس بصحيح ما يقال من إن العذراء لا تعرف الشهوة الجنسية، وأن الرجل هو الذي يوقظ حساسيتها، فأغلب الفتيات يطلبن بحرارة المداعبات قبل أن تمسهن بد الرجل، لكن الأمور تبدو كذلك لأن انفعال العذراء لا يستجيب لرغبة معينة، لأنها لا تعرف تماماً ماذا تريد، وإنها لتشعر حين تواجه الذكر بالرغبة في المداعبة، لكنه لا يبدو لها مرغوباً بعضلاته القوية وجلده الخشن، بل يثير في نفسها الاشمئزاز، وكثيراً ما يكون رد الفعل قوياً، فتتجه الفتاة نحو السحاق أو تتعلق برجل مخنث تستطيع معاملته معاملة المرأة.

نفهم جيداً من هذه الشروط التي أتينا على ذكرها، أن أول احتكاك عملي للمرأة مع الحياة الجنسية ليس بالأمر السهل، وقد رأينا أنه قد تحدث في كثير من الأحيان، خلال أبام الطفولة والصبا، بعض الحوادث التي تترك في نفس المرأة ميلاً شديداً لمقاومة كل ما هو جنسي، كما تخلق التربية المحافظة والخوف من ارتكاب الذنوب والشعور بالإثم نحو الأم حواجز معينة لا سبيل إلى تخطيها. أما العادات فهي تضع البكارة في مستوى عال لدى بعض الأوساط لدرجة تشعر فيها الفتاة بأن فقدان بكارتها بدون زواج يعتبر خطيئة كبرة بعض الأوساط لدرجة تشعر فيها الفتاة بأن فقدان بكارتها بدون زواج يعتبر خطيئة كبرة

ومصيبة لا تعادلها مصيبة، ولا يمكن لليلة الزواج الذي تستلم خلالها الفتاة إلى رجل لا تعرفه في أغلب الأحيان، أن تعد بحد ذاتها تجربة سهلة. إن التحول إلى امرأة يعني قطع الصلات مع الماضي دون أي أمل في العودة إليه، وهو لا يكتفي بوضع الحواجز بين الأمس والغد، وإنها ينتزع الفتاة من عالم الخيال الذي كانت تعيش فيه، ويلقي بها فجأة وسط العالم الحقيقي. لقد داومت الفتاة خلال فترة الخطوبة على العيش في عالم الأحلام، ولو تخللها بعض اللهو والمغازلات البدائية، وكان خطيبها يتكلم معها بلهجة رومانتيكة... وها هي فجأة تحت أنظار عيون حقيقية، وفي قبضة يدين حقيقتين، وإن ما يرعبها ويبعث الذعر في نفسها هي واقعية تلك النظرات وتلك القبضات.

ومما يزيد في تبعية المرأة للرجل، أنها لا تستطيع الاستغناء عنه إذا أرادت اكتشاف أسرار جسمها، فهو الذي يمسك زمام المبادرة في أغلب الأحيان، فيغازلها ويداعبها، بينها تتلقى غزله وعروضه بكل استسلام وسلبية، وسواء كان زوجها أو عشيقها فإنه هو الذي يقودها نحو المخدع حيث لا يوجد أمامها مفر من الاستسلام والخضوع. ولو فرضنا جدلاً أن المرأة أقرت ورضخت لسلطة الرجل في تفكيرها، فلا بد من أن ينتابها الهلع في اللحظة الحاسمة التي يجب عليها أن تتلقى تلك السلطة عملياً وتتحملها، إنها لتخاف في أول الأمر من هذه النظرة التي تكاد تبتلعها وإذا كان الحياء مُكتسباً في أغلب الأحيان، فإن جذوره مع ذلك عميقة لدى المرأة، وحين تخجل من عرض جسدها وينتابها الشك في مان جذوره مع ذلك عميقة لدى المرأة، وحين تخجل من عرض جسدها وينتابها الشك في هذا الموضوع. ولذلك فإن وضعية الذكر تكتسب أهمية بالغة وتنتج عنها تأثيرات عميقة في حياة المرأة، فإذا ما أبدى الرجل حماسه ورقته تجاهها، فإنه يبعث في قلب المرأة ثقة تامة في حياة المرأة، فإذا ما أبدى الرجل حماسه ورقته تجاهها، فإنه يبعث في قلب المرأة ثقة تامة لا تنساها ولو بلغت الثهانين من العمر، وعلى العكس من ذلك، إذا أساء العشيق أو الزوج التصرف فقد يؤدي ذلك إلى تولد شعور بالنقص لديها، وقد ينتهي بها الأمر إلى الوقوع في برائن أمراض عصبية لا حصر لها.

وإذا كانت النظرة خطرة فإن الأيدي تشكل تهديداً أشد خطورة، لأن المرأة لم تكن قبل زواجها بصورة عامة قد تعرفت إلى عالم العنف، ولم تتعود على حوادث المشاجرات التي تحفل بها حياة الرجل في صباه، إنها لم تتعود على كل ذلك، وفجأة تشعر بنفسها ملقاة

في قبضة الرجل، وجسده فوق جسدها في وضع يمثل تفوقه وامتيازه عليها. لم يعد أمامها في قبضة الرجل، وجسده فوق جسدها في وضع يمثل تعرض لها كالاغتصاب القسري، من بجال للحمل والتراجع والمناورة... لقد استسلمت له، وسيتحكم بها وفق مشيته، ويحدث كثيراً أن تعتبر الفتاة أول تجربة جنسية عملية تتعرض لها كالاغتصاب القسري، إذا أظهر الرجل عنفاً يقرب من حدود الوحشية. ففي بلاد الريف حين تكون الطباع خشنة جافة، كثيراً ما تفقد الفتاة بكارتها نصف راضية ونصف غاضبة، في قعر إحدى المفرات بين عواطف الخوف والحياء. وكثيراً ما تصاب الفتاة بخيبة أمل شديدة بعد ليلة الزواج الأولى، ولو كان زوجها لطيفاً رقيقاً معها، لأنها كانت تتمنى التمتع بالنشوة في شفتيها وصدرها، وتود لو تشعر بلذة وسرور من نوع جديد بين ساقيه، وإذا بعضو الذكر يخترق جسمها في مناطق لم يكن مدعواً إليها، وقد وصف العلماء دهشة الفتاة العذراء التي كانت تحلم في أن تجد تحقيقاً لرغبانها الجنسية بين ذراعي الزوج أو العشيق؛ فإذا بها تشعر بلم شديد مفاجئ غير متوقع في عضوها التناسلي، وحينئذ تتلاشى الأحلام وتبدد الانفعالات ويأخذ الحب شكل العملية الجراحية!

غير أن الألم لا يلعب الدور الرئيسي في التجربة الجنسية الأولى، وإنها يشكل الاختراق بحد ذاته عاملاً هاماً في نفس المرأة، ويمتد تأثيره بعيداً، فالرجل لا يستعمل في عملية الجماع سوى عضو من أعضائه الحارجية، أما المرأة فإنها تصاب في أعهاق أحشائها الداخلية. إن الفتاة لا تمتلك في أغلب الأحيان سوى جسمها، وهو أغلى كنز لديها، ولذلك فإن الرجل حين يدخل فيها "يأخذه" منها، وإنها لتشعر من جراء ذلك بالإهانة والانحلال والانهزام، فالمرأة تكون أثناء الجماع "تحت" الرجل. إن جسمها يداعب ويخترق ويتحمل الجماع، بينها يقوم الرجل بالدور الإيجابي. ولا شك أن عضو الرجل لبس عضلة تخضع للإرادة، لكنه مع ذلك يتبع توجيهات الرجل، فيتوقف ويذهب ويعود، ثم يعاود الكرّة. وخلال ذلك، يتمتع الرجل بصلاحية تحديد نوعية الجماع ومدته وتكراره إنها لتشعر بكونها ألة، أما الحرية فهي متمركزة بأجمعها لدى الجانب الآخر، وهذا ما يُعبَّر المناف المرأة تشبه الكمان والرجل بمثابة القوس الذي تهتز عليه أوتارها. وقال بلزاك: "تشبه المرأة في بجال الحب القيثارة، التي تفشي سرّها إلى الشخص الذي يعرف كيف يعزف عليها". إن الرجل كها تقول الأمثال الدارجة يتلذذ مع المرأة "ويمنحها اللذا" وهذه الكلمات تبين انعدام دور المرأة في الجماع.

يجدر بنا أخيراً أن نشير إلى أحد العوامل التي تعطي الرجل وجهاً عدائياً وتحول العملية الجنسية إلى عمل خطير، إنه خطر الحمل وإنجاب الأولاد. والواقع هو أن الطفل غير الشرعي يعتبر في أغلب المجتمعات الحالية عائقاً اجتهاعياً واقتصادياً للمرأة غير المتزوجة، وقد حدث أن بعض الفتيات أقدمن على الانتحار حين علمن بأنهن حاملات، كما لجأ بعضهن إلى قتل أطفالهن، ولا شك أن خطر الحمل يكبح بشدة العواطف الجنسية ويدفع عدداً كبيراً من الفتيات إلى المحافظ على بكارتهن حتى الزواج. أما إذا تجرأت المرأة على تخطي هذه الحدود فإنها تبقى دائهاً قلقة مترددة وتلجأ إلى اتخاذ الاحتياطات لمنع الحمل؛ الأمر الذي يجعل العملية الجنسية اصطناعية والإحساس باللذة ضعيفاً.

وقد تؤدي هذه المشاكل والمصاعب بالمرأة إلى الجنون والأمراض؛ وفيها يلي قصة وردت على لسان فتاة من مدينة ڤينا تشرح فيها بصراحة المشاكل التي صادفتها في مستهل حياتها الجنسية:

«في السادسة عشرة والنصف من عمري عملت في أحد المكاتب، وبعد عام حصلت على أول إجازة. كانت فترة سعيدة من حياتي، لأن الجميع كانوا يغازلونني. وكنت أميل إلى أحد زملائي في المكتب، وقد ذهبنا معاً إلى الحديقة العامة حيث أجلسني قربه وأخذ يقبلني قائلاً بابتهال:

- افتحى شفتيك.

ولكنني كنت أغلقهما بتشنج، وفي هذه الأثناء أخذ يفك أزرار سترتي فوددت لو تركته يفعل لولا أنني تذكرت بأن ثديي لم يتكورا بعد.

وذات يوم من نيسان/ إبريل دعاني صديق متزوج إلى مصاحبته للمعرض وبعد أن تناولنا الخمر على مائدة العشاء فقدت تحفظي فاستأجر عربة رغم احتجاجي ودفعني إليها، وما كادت الخيل تتحرك حتى أخذ يقترب مني شيئاً فشيئاً ويداعبني بيده فأخذت أدافع عن نفسي بكل قواي ولم أدرِ إذا كان قد توصل إلى تحقيق غرضه. وفي اليوم التالي طلب مني أن أراه كثيراً فقبلت بفضول شديد. وكان يداعبني مداعبات جريئة بإصبعه في موطن عفتي ولقد أولج ذات يوم إصبعه فصرخت من الألم.

وذهبت بعد ذلك في إجازة مع صديقة لي فدعانا سائحان إلى نزهة معهما وأثناء وذهبت بعد ذلك في إجازة مع صديقتي ولكنها دفعته بيدها فالتفت نحوي وقبلني ونحن النزهة حاول أحدهما أن يقبل صديقتي ولكنها وقد استنكرت فعلته وإقدامه على قذارة جالسان، ثم أخذ يغمر موطن عفتي بالقبلات وقد استنكرت فعلته وإقدامه على قذارة كهذه.

وبعد يومين ذهبت معه إلى لايبزيغ، وفي إحدى الغابات المنعزلة خلع معطفه وبعد يومين ذهبت معه إلى لايبزيغ، وفي إحدى الغابات المنعزلة خلع معطفه وطرحني أرضاً وسدّ فمي بمنديله وأخذ يقضي وطره فحسبت أن ساعتي قد دنت وطرحني أرضاً وسدّ فمي بمنديله وأخذ يقضي وطره فحسبت أن ساعتي قد دنت وشعرت بالغثيان في معدتي.

وحين انتهى من العملية، أخذ يغمر وجهي بالقبلات لكني كنت لا أرى أو أسمع شيئاً، وحين حاول إعادة الكرّة ونحن وحدنا في مقصورة القطار فتحت الباب وأخذت أجري وأصبح هلعاً وخوفاً منه، فها كان منه إلا أن ضحك مني وتركني لشأني وهو يصفني بالغبية التي لا تعرف كيف تستفيد من الأشياء الطيبة. حين وصلت إلى ثينا ذهبت إلى المغسلة لأني شعرت بأن شيئاً حاراً يجري بين ساقي، فاكتشفت وأنا أرتعد خوفاً آثار الدم. كيف أستطيع أن أخفي ذلك عن أهلي؟ لكن حالتي النفسية دلت علي واضطررت إلى أن أقص الحادثة على أمي التي لم تجد فيها شيئاً رهيباً مزعجاً».

وقد ترددت في النهاية علاقاتها مع الرجال لكنها أصبحت باردة ولم تعد تشعر شيئاً، إلى أن أحبت رجلاً تزوجها وزالت برودتها.

هنالك أمثلة كثيرة تكشف عن النتائج الخطيرة التي تنجم عن عنف ووحشية الرجل حين يضاجع المرأة لأول مرة في حياتها، والطريقة الوحيدة لتفادي هذه الحالات هي تدريب الفتاة بدون أي عنف أو مفاجأة أو بدون تحديد موعد معين لمباشرة العملية الجنسة. وفي هذا المعنى لا يمكن إلا أن نوافق على حرية التصرف الممنوحة للفتيات الأميركيات.

لا تحصل المرأة في بداية حياتها الجنسية، مقابل تنازلها واستسلامها، على لذة عنيفة وأكيدة. ولا شك أنها تضحي بسهولة بحيائها وكبريائها إذا انفتحت أمامها أبواب الجنان ولكننا رأينا أن إزالة البكارة ليست امتداداً للعاطفة الجنسية في فترة الحداثة، وإنها هي حادثة منفردة، وأن اللذة المهبلية لا تحصل بعد إزالة البكارة بشكل آلي. فقد دلت الإحصاءات التي قام بها عدد من العلماء أن 4٪ على الأكثر من النساء يشعرن باللذة

110 الجزء الثاني: مراحل تكوين المرأة

المهبلة منذ الجماع الأول و5% لا يشعرن بها إلا بعد عدة أسابيع أو أشهر أو بعد عدة سنين. وتلعب العوامل النفسية في هذا المجال دوراً رئيسياً فتمنع مقاومة المرأة للاشعورية ظهور اللذة ثم تتفاقم هذه الحالة بسبب عدم حصولها على تعويض مقابل تنازلها واستسلامها، فيدخل الزوجان في حلقة مفرغة قد تؤدي بالمرأة إلى البرود الجنسي. غير أن الرجل يستطيع منحها ترضية بإثارة اللذة البظرية التي تؤدي على الرغم من التأكيدات المعاكسة إلى تهدئة أعصابها وإشباع لذتها. لكن عدداً كبيراً من النساء يرفضن ذلك، لأنه إذا كانت المرأة تتعذب من أنانية الرجال الذين لا يفكرون إلا في إشباع شهواتهم، فإن رغبة الرجل الصريحة في منحها اللذة تصدم شعورها. يقول ستيكل: "إن إثارة اللذة لدى الآخر تعني السيطرة عليه، وإن الاستسلام إلى شخص ما يعني التنازل عن الإرادة، والمرأة تقبل اللذة بسهولة إذا كان مصدرها طبيعياً كها هي الحالة في الجهاع العادي الناجح...».

يكتسب موقف الرجل والحالة هذه أهمية بالغة، فإذا كانت عواطفه عنيفة قاسية، فإن المرأة تشعر وكأنها تتحول بين ذراعيه إلى شيء أو غرض، غير أنه إذا بالغ في التحكم بعواطفه فإنه يُحدث مفعولاً معاكساً لديها. وفي كلتا الحالتين يثور كبرياء المرأة وتحاول لكي توفق بين استسلامها القسري ورغبتها في الشعور بكيانها، أن تجعل من الرجل فريسة لها، وقد تقع في براثن البرودة الجنسية من فرط إصرارها على القيام بدورها في الجماع. ويعود الأمر في معالجة هذه الوضعية إلى حذاقة الرجل الذي يستطيع أن يوحي للمرأة بأن العملية الجنسية هي مشاركة بينه وبينها ولا يهدف منها إلى السيطرة عليها.

وحتى لو توصلت المرأة إلى تخطي هذه الصعوبات وعرفت خلال مدة من الزمن اللذة المهبلية فإنها لا تكون قد وصلت إلى نهاية متاعبها لأن التوقيت الجنسي بينها وبين الرجل غير منسجم، فهي أكثر بطئاً منه في الشعور باللذة.

يقول تقرير «كينسي» أن ثلاثة أرباع الذكور يبلغون ذروة اللذة، خلال دقيقتين من بدء العلاقة الجنسية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن النساء ذوات المستوى العالي يلزمهن 15-10 دقيقة من التحريض النشيط كي يبلغن الذروة، وإذا اعتبرنا كذلك أن عدداً كبيراً من النساء لا يبلغن طوال حياتهن ذروة الشعور باللذة الجنسية، أدركنا بأنه يجب أن يكون

الرجل ذا كفاءة استثنائية، لإطالة النشاط الجنسي وتأخير مرحلة التفريغ، فيتمكن حينئز من خلق الانسجام مع شريكته.

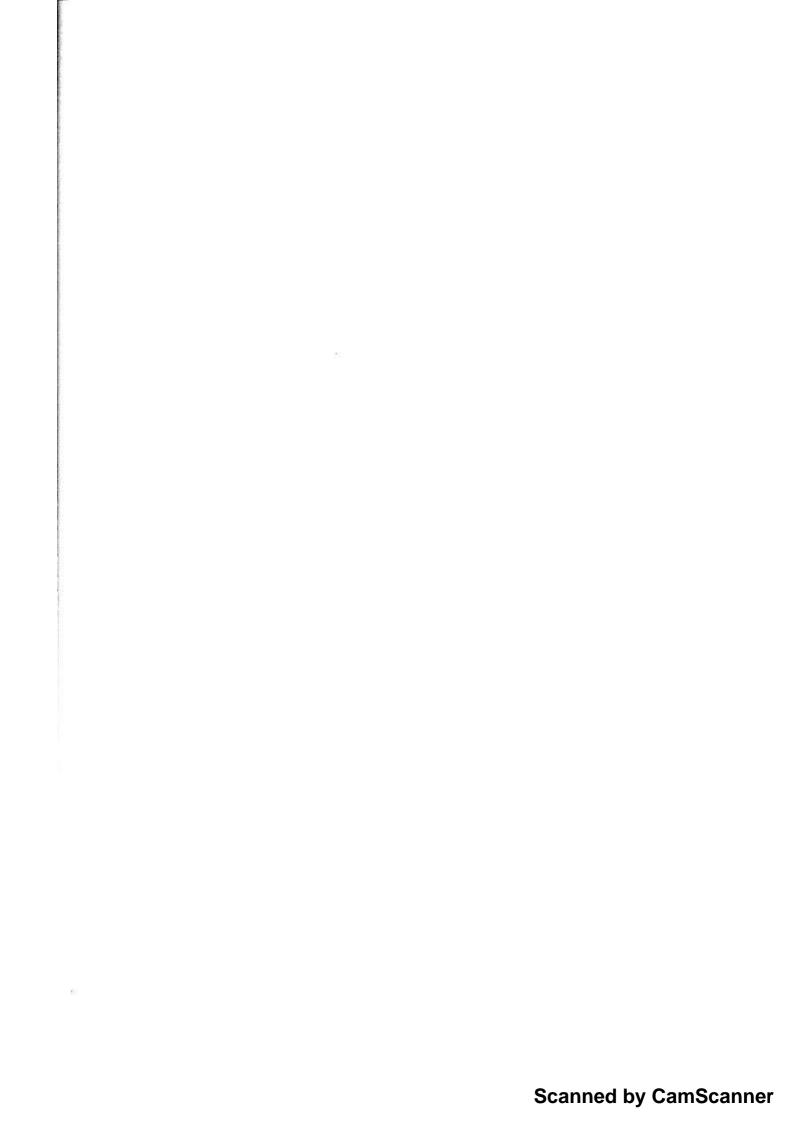
يظهر أن الزوج في الهند يدخن الغليون خلال الجماع ليسلي نفسه عن الشعور باللذة ويطهر أن الزوج في الهند يدخن الغليون خلال الجماع ليسلي غرار كازانوفا، ويبلغ ويطيل أمد لذة زوجته، أما في الغرب فإنه يفتخر بعدد «المرات» على غرار كازانوفا، ويبلغ ذروة فخره واعتزازه بنفسه حين يحصل من شريكته على كلمة «شكراً»! ويشتكي الرجال في بعض الحالات من كثرة طلبات ورغبات النساء العنيفة فيقولون عن زوجاتهم أو يعض الحالات من كثرة طلبات لا سبيل إلى سد حاجتهن.

والواقع هو أن اللذة لدى المرأة تختلف تمام الاختلاف عنها لدى الرجل، وقد قلت سابقا إن العلم لم يتوصل لمعرفة ما إذا كانت اللذة المهبلية تنتهي إلى الارتخاء التام كما هو الحال لدى الرجل، فمها لا شك فيه أن الجهاع بالنسبة للرجل له نهاية بيولوجية معينة: التفريغ والقذف. أما في حالة المرأة فالأمر على العكس، إذ يكون الهدف في البدء غير معين ومن طبيعة نفسية لا فيزيولوجية، إنها تريد الحصول على الانفعال واللذة بصورة عامة لكن جسمها لا يعطيها أية نتيجة واضحة للعمل العاطفي، ولهذا فإن لذة الجهاع لا تنتهي مطلقاً لدى المرأة. إن لذة الذكر تتصاعد كالسهم وحين تصل إلى مستوى معين تتحقن وتموت فجأة في الذروة، أما اللذة الأنثوية فإنها تنتشر في جميع أنحاء الجسم ولا تتمركز دائماً في الأعضاء التناسلية، ولا تشكل التقلصات المهبلية لديها سوى تموجات تسير على وتذوب دون أن تصل إلى درجة الانعدام التام. ولا يحد من الإمكانية الجنسية للمرأة إلا التعب العصبي أو القلبي أو الإشباع النفسى.

يرتكب الرجل خطأ كبيراً حين يحاول أن يفرض على شريكته طريقته في الجهاع ويتهالك على منحها اللذة القصوى. ولا تؤدي هذه الطريقة في أغلب الأحيان إلا إلى تحطيم شكل اللذة التي تعيشها المرأة على طريقتها. وقد تشكل بعض الاختلاجات المتمركزة في المهبل أو في الجملة التناسلية والصادرة عن الجسم بأكمله، نهاية لدى بعض النساء، وقد تحصل هذه الاختلاجات بشكل دوري فتشبه اللذة القصوى لدى الرجل، لكن المرأة العاشفة يمكن أن تجد في ذروة اللذة لدى الرجل نهاية تهدئ أعصابها وترضي رغباتها، كما يمكن أن تتلاشى اللذة الجنسية بشكل مستمر دون أي انقطاع وبشكل يرضي المرأة.

إن الظروف التي تجري خلالها الحياة الجنسية للمرأة لا تتوقف على ما بيناه أعلاه فحسب وإنها على حالتها الاقتصادية والاجتهاعية بصورة عامة، ولا شك أنه من السخف دراستها دون أخذ هذه العوامل بعين الاعتبار. لكننا نستخلص من دراستنا بعض النتائج الهامة: إن التجربة الجنسية هي إحدى التجارب التي تكشف للإنسان بشكل عام إبهام وتعقيد شروط حياته. كها تكتسب بالنسبة للمرأة طابعاً دراماتيكياً، لأنها تكتشف نفسها أولاً كغرض ومتعة أمام الرجل، ولأنها لا تجد في اللذة استقلالاً وتأكيداً لشخصيتها وإنها يجب عليها أن تناضل باستمرار للحصول على حريتها كشخص له كيانه في الوقت الذي تقوم به بوظيفتها الجسدية.

وسواء انسجمت في دورها السلبي أم لم تنسجم، فإنها تشعر على الدوام بالحرمان كفرد له فعاليته، ولعل من عجائب الأمور، أن الرجل يعيش في عالم مليء بالنعومة والرقة في عالم المرأة، بينها تتيه المرأة على غير هدى في عالم الذكور الخشن القاسي. إن يديها لتحن إلى ضم الجسد الناعم واللحم الغض، وإنها لتتمنى في جميع فترات حياتها أن تمتلك كنزا ماثلاً للكنز الذي تمنحه للذكر. وهذا يفسر لنا بقاء بعض الميول السحاقية لدى عدد كبير من النساء. ويتأكد هذا الميل لدى بعضهن لأسباب معقدة فنراهن لا يقبلن بإعطاء مشاكلهن الجنسية الحل الكلاسيكي المعترف به رسمياً لدى المجتمع، فيتعرضن إلى السحاق. ولذلك يجب علينا أن ندرس الآن حالة النساء اللواتي يتبعن الطريقة المنبوذة.



الفَطَيِّلُ الْأَلْوَايِّغِ

السحاق

يتصور الناس خطأ المرأة السحاقية مرتدية على رأسها شالاً خشناً والعقدة مربوطة في عنقها. ويعتقدون أن رجولتها ليست سوى عبارة عن شذوذ يعكس عدم التوازن الهرموني لديها. والواقع هو أن عدداً كبيراً من السحاقيات يتمتعن بأنوثة نادرة، كها أن عدداً كبيراً من السحاق. وقد أكد علماء النفس والجنس عدداً كبيراً من النساء المسترجلات يرفضن فكرة السحاق. وقد أكد علماء النفس والجنس ما بينته المراقبة العادية؛ بأن الأغلبية العظمى من «السحاقيات» المنبوذات من المجتمع لا يختلفن مطلقاً عن بقية النساء.

يفرق العلماء عادة بين نوعين من السحاقيات ويطلقون على النوع الأول «السحاقيات الذكور» وهن اللواتي يقلدن الرجل في حياته الجنسية، و«السحاقيات الإناث» على النوع الثاني اللواتي يقمن بدور الأنثى في عملية السحاق. لكني أرى لأسباب عديدة أن هذا التقسيم اعتباطي ولا ينطبق مع الواقع.

إن تعريف السحاقية «الذكر» برغبتها وإرادتها في «تقليد الرجل» يسبغ عليها صورة غير واقعية. وقد بينت قبلاً كيف يخلق العلماء النفسانيون المتناقضات بتبنيهم الفئات «الذكرية - الأنثوية» كها يعرّفها مجتمعنا الحالي. والواقع هو أن الرجل يمثل في يومنا هذا فكرة الإيجاب والحياد في الوقت نفسه، أي فكرة الذكر، والإنسان البشري، بينها تكتفي المرأة بتمثيل الفكرة السلبية أي الأنثى. فإذا تصرفت المرأة في الحياة كإنسان بشري قالوا إنها تقلد الرجل، وفسروا نشاطها في ميادين الرياضة والسياسة والثقافة ورغبتها في النساء

كميول ذكرية كامنة لديها. إن سوء التفاهم الرئيسي الذي يرتكز عليه هذا التفسير هو أن كميول ذكرية كامنة لديها. إن سو- المراب المراب الكلمة كما المرأة بكل معنى الكلمة كما الناس يعتبرونه طبيعياً بالنسبة للأنثى، أن تجعل من نفسها امرأة بكل معنى الكلمة كما الناس يعتبرونه طبيعياً بالنسبة للأنثى، أن تجعل من نفسها المرأة بكل معنى الكلمة كما الناس يعتبرونه طبيعيا بالنسبه مرسى التناس الآخر أو حتى أن تكون أماً لكي يعرفها المجتمع، فلا يكفيها أن لا تولع سوى بالجنس الآخر أو حتى أن تكون أماً لكي يعرفها المجتمع، فلا يكفيها أن لا تولع سوى بالجنس المتعدد على المتعدد ا يعرفها المجتمع، فد يمنيه و المرأة الحقيقية ليست في الواقع سوى منتوج اصطناعي، تحقق صورة المرأة المثالية، بل إن المرأة الحقيقية ليست في الواقع سوى منتوج اصطناعي، عمى صوره المراه السائدة. وإذا ثارت المرأة على هذه المفاهيم أو شعرت بنقصها فاختارت صنعته الحضارة السائدة. وإذا ثارت المرأة على هذه المفاهيم أو صعبه احصاره السامان م الله المحادث عن مجتمعها وجنسها، واتهمها الناس أن تكون فرداً كاملاً، فإنها تعد متحررة عن مجتمعها وجنسها، واتهمها الناس بالاسترجال، لأن الطبيعة الأنثوية في عُرف المجتمع تعني النقصان والخضوع.

إن المرأة التي تقتحم ميادين الأعمال بنفسها والتي تطالب بحريتها بشكل عام، ترفض التنازل عن شخصيتها لحساب إنسان آخر ولو كانت جميلة جذابة، لأنها تكون قد ، اكتشفت كيانها وشخصيتها المستقلة من خلال أعمالها لا من خلال شعورها بالنقص تجاه الرجال. ولا شك أن رغبة الذكر التي تدني قيمتها إلى حدود جسمها، تصدم عقليتها وتشعر من نفسها بالاشمئزاز الذي يشعر به الرجل الذكر تجاه اللواطي السلبي. ولكي تنفي عنها مظهر المرأة المستكينة نراها تتخذ أوضاعاً رجالية فتتنكر بثيابهم وتحاكيهم في طريقة مشيتهم وكلامهم وتختار صديقة أنثى تعيش معها وتلعب دور الرجل تجاهها. نعم، إن هذه التمثيلية هي حقاً تقليد للرجال، لكنها لا تخرج عن كونها ظاهرة ثانوية. أما الأمر الرئيسي فهو تمرد الفرد المتمتع بالسيادة والمتحكم في مقومات حياته ضد تحوله إلى فريسة جسدية. وقد دلت الإحصاءات أن عدداً كبيراً من النساء الرياضيات سحاقيات لأن قوتهن الجسدية واستقلالهن عن الرجال يؤدي بهن إلى رفض الخضوع للرجل. ونحن نجد نفس المقاومة لدى النساء «ذوات الرأس» اللواتي يصبح الاستسلام بالنسبة إليهن أمراً مستحيلاً ولو كان بشكله الجسدي. ولعل إذا تحققت في مجتمعنا المساواة بين الجنسين، لكان من الممكن لهذه العوائق جميعها أن تزول، لكن الرجل لا يزال مشبعاً بمركب التفوق الأمر الذي يضايق المرأة إذا لم تكن مؤمنة بضرورة تفوقه عليه.

يجب أن نلاحظ مع ذلك بأن المرأة ذات الإرادة المحِبَّة للسيطرة لا تتردد إلا قليلاً في عجابهة الرجل، فهي لا تريد أن ينتقص من قدرها كامرأة، وإن كانت تحرص على المحافظة على شخصيتها المستقلة. وهي لا تخاف من إظهار رغبتها الجنسية للرجل، بل تجد مفاومة

116 الجزء الثاني: مواحل تكوين المرأة

أقل من المقاومة التي تجدها العذراء الخجول قبل بدء العلاقة الجنسية مع الذكر. إن المرأة المتعادية ذات الميول الحيوانية لا تشعر بالإهانة من جراء الجماع، على عكس المرأة المثقفة المفكرة التي تحتج عليه، لأنها واثقة من نفسها وذات طبع نضالي، ولذلك فهي تندفع في سجال مع الرجل لا تعلم كيف ينتهي. ومن الأمثلة التي تُضرب عن قوة شخصية المرأة المستقلة أن مدام دوستايل لم تنشد سوى في أواخر أيامها عشاقاً يتمتعون بالشباب والجهال. لقد كانت تسيطر على جميع الرجال بقوة تفكيرها وتتقبل إعجابهم بها بكبرياء وأنفة، ولذلك لم تكن تشعر أبداً بشعور الفريسة بين ذراعيهم.

ومن العبث محاولة تقسيم السحاقيات إلى ذكور وإناث، لأنه إذا طرحنا جانباً بعض الحالات الشاذة، فإن كلاً منهما تستطيع أن تقوم بدور الأخرى بدون أي حرج أو صعوبة، لكن بعض الظروف كقوة الشخصية أو الثروة أو الجاه أو الطبيعة النفسية تقسم الأدوار بينهما تبعاً لهذه العوامل.

والواقع أن السحاق لا يعتبر ضرباً من ضروب التفنن والتسلية لدى المرأة، كما لا يشكل لعنة من القدر تحل عليها، وإنها هو موقف تتخذه المرأة كرد فعل على أوضاعها في المجتمع، أي أن له ما يبرره في حياة المرأة التي اختارته بمحض إرادتها، تلبية لداعي بعض العوامل الفيزيولوجية والتاريخية والنفسانية والظروف الاجتهاعية. إنه يشكل بالنسبة للمرأة طريق من بين الطرق الأخرى لحل مشاكلها الاجتهاعية بوجه عام، ومشاكل حياتها الجنسية بوجه خاص. وكها هو الحال في جميع تصرفات البشر فإن السحاق يؤدي في بعض الحالات إلى عدم التوازن والفشل والكذب والرياء، أو يكون على العكس، مصدراً للتجارب الخصبة في حياة المرأة.

الجُهُرُّءُ القَالِيَّ اوضاع المراة

الفَصْيِلُ الْأَوْلَ

المرأة المتزوجة

الزواج هو المصير التقليدي الذي يخصصه المجتمع للمرأة. وأغلب النساء هن، حتى يومنا هذا، إما متزوجات أو يعددن أنفسهن للزواج أو يتألمن لعدم تزوجهن، لذلك بنغى لنا متابعة هذه الدراسة باللجوء إلى تحليل الزواج.

للتطور الاقتصادي لوضع المرأة أثر في طبيعة الزواج الذي أخذ يصبح اتحاداً يجري بالانفاق الحربين فريقين مستقلين. وإن ارتباطات الطرفين صارت شخصية ومتبادلة، ويمكن للطرفين الحصول على الطلاق في الشروط نفسها. ولم تعد مهمة المرأة محصورة في التناسل - بل إن الولادة نفسها صارت تعتبر كعمل منتج لأن الدولة أو ربّ العمل، في كثير من الأحوال، يقومان بدفع الأجور عن مدة الراحة التي يقتضيها الحمل. وفي الاتحاد السوفياتي اعتبر الزواج خلال بضع سنوات كعقد بين فردين يستند إلى حرية الزوجين فقط؛ على أنه أخذ يكتسب في هذا اليوم صفة خدمة تفرضها الدولة على الطرفين. وتبعاً لما سنكون عليه البنية العامة للمجتمع في المستقبل، سينتصر الاتجاه الأول أو الثاني؛ لكن وصاية الذكور، على كل حال، في طريق الزوال. إلا أن المرحلة الحالية، من وجهة النظر النسائية، مرحلة انتقال. فقسم النساء فقط يساهم في الإنتاج، هذا القسم نفسه يعود إلى مجتمع ما زالت سائدة فيه نظم وقيم قديمة. والزواج الحديث لا يمكن فهمه إلا على ضوء المنافي المتصل بالحاضر.

كان الزواج دائماً يبدو مختلفاً اختلافاً جذرياً بالنسبة إلى الرجل والمرأة. إن كلا الجنسين ضروريان لبعضها بعضاً، إلا أن هذه الضرورة لم تؤدّ قط إلى علاقة تبادل. ولم

تشكل النساء قط طبقة خاصة تقيم مع طبقة الرجال علاقات تبادل وتبرم العقود على قدم النساء قط طبقة خاصة تقيم مع طبقة الرجال ويُنظر إليه قبل كل شيء كشخص المساواة. فالرجل من الناحية الاجتهاعية مستقل وكامل ويُنظر إليه قبل كل شيء كشخص المساواة. فالرجل من الناحيم الذي يقدمه للجهاعة. أما المرأة فكان دورها المحدود مبرر بالعمل الذي يقدمه للجهاعة. أما المرأة فكان دورها المحدود بإنجاب الأطفال والعمل المنزلي حائلاً دون مساواتها مع الرجل.

أما المرأة فكانت مندمجة بالأسرة الواقعة تحت سيطرة الآباء والإخوة، لذلك كانت تقدم للزواج من بعض الذكور إلى بعض الذكور. فقديها كانت العشيرة الأبوية تتصرف بالأشياء. على أن وضع المرأة لم يتعدل تعديلاً جذرياً لما اكتسب الزواج، علال تطوره، شكلاً تعاقدياً. وبقي الزواج مورد رزقها والمبرر الاجتماعي الوحبد لوجودها. وهو مفروض عليها لسببين: أولاً، أن تنجب الأطفال للجماعة، ثانياً، إرضاء حاجات الذكر الجنسية والعناية بمنزله. وإن العبء المفروض عليها من المجتمع بعتبر كخدمة مقدمة للزوج، لذلك يتعهد بإعالة الزوجة. هكذا كان الزواج بالنسبة إلى الطرفين، عبئاً ومنفعة، إلا أن الوضعين لم يكونا متوازيين متكافئين. فالزواج بالنسبة إلى الفتيات، كان الوسيلة الوحيدة للاندماج بالجهاعة فليس بغريب إذا كانت الأمهات دائاً حريصات على تزويج بناتهن.

جاء في إحدى قصص أميل زولا وصف للمقابلات المعدّة سلفاً: قالت مدام «جوسران» لزوجها: هذه رابع محاولة فاشلة لتزويجها.

ثم استطردت قائلة وهي تشير نحو ابنتها: كيف فوّتِ هذا الزواج؟ فتمتمت: لا أعرف يا أمي.

وتابعت أمها قائلة:

- مساعد رئيس مكتب، لم يبلغ الثلاثين، مستقبل عظيم. في نهاية كل شهر بجلب إليك راتبه. لعلك ارتكبت حماقة كما فعلت مع الآخرين.

- أؤكد لك يا أماه أنني لم أفعل شيئاً.

- خلال الرقص مررتما بالبهو الصغير.

وارتبكت البنت وهي تقول:

- نعم يا أمي .. ولما كنا وحيدين فقد أراد أشياء معوجة. وقبّلني وهو يضمني إليه. وحينئذ أحسست بالخوف فدفعته على قطعة أثاث!

فقاطعتها أمها غاضبة: دفعته على قطع أثاث. يا لك من شقية.

- لكنه كان ممسكاً بي يا أماه.

- وما المانع. هل من الضروري، في الحقيقة، أن تخبرينا بذلك. وتابعت الأم كلامها وكأنها تلقن ابنتها درساً:

- كل شيء انتهى. بدأت أيأس منك يا ابنتي، فأنت بليدة. لما كنت بلا ثروة، فانهمي جيداً إذن أن عليك اصطياد الرجال بشيء آخر. يمكن للفتاة أن تكون لطيفة وأن تكون عيناها مفعمتين بالحنان وأن تنسى يدها فتسمح بالمداعبات دون أن يبدو عليها ذلك ... وفي النهاية ... تصطاد زوجاً.

هكذا تبدو الفتاة سلبية بصورة مطلقة. أما الرجال فيبحثون في الزواج عن تأكيد وجودهم وليس عن حق الوجود. إنه بالنسبة إليهم عبء يأخذونه على عاتقهم بمحض اختيارهم؛ فيمكنهم إذن أن يتساءلوا عن مزاياه ومساوئه لأنه ليس سوى شكل من أشكال الحياة. ولا يعتبر المصير المقرر المحتم بل بإمكانهم أن يفضلوا وحدة العزوبية.

حينها تتزوج المرأة تأخذ بعض الضهانات القانونية، إلا أنها تصبح تابعة لزوجها. فهو ربّ العائلة من الناحية الاقتصادية وهو الذي يجسدها بالتالي في عين المجتمع. فتأخذ اسمه وتنضم إلى طبقته ووسطه وتصبح «نصفه» المكمل، وتتبعه إلى حيث يدعوه عمله.

ولما كان الزوج هو المنتج فهو الذي يجاوز مصلحة الأسرة إلى مصلحة المجتمع. أما المرأة فموقوفة للمحافظة على النوع والعناية بالمنزل أي أنها موقوفة للجمود.

والحقيقة أن كل كائن بشري هو ارتقاء وجمود معاً؛ إذ ينبغي له أن يضم إليه الماضي لبثب نحو المستقبل، وأن يؤكد ذاته دون أن ينقطع عن الآخرين. ولئن كان الرجل يستطيع التوفيق بين هذين الأمرين، فإن الزوجة لا تسمو بنفسها إلى الجماعة إلا من خلال يستطيع التوفيق بين هذين الأمرين، فإن الزوجة والمتعلقة المتعلقة المتعلقة

رو. ...
يفرض الزواج على الفتاة في يومنا هذا بصورة أكثر إلحاحاً. ولا يزال هناك فئان يفرض الزواج على الفتاة العازبة خادمة اجتماعية لا تفسح أمام الفتاة سبيل الزواج. فعند الفلاحين تبقى الفتاة العازبة خادمة لأبيها وإخوتها. ولم تعد الهجرة نحو المدينة ميسرة لها. أما الزواج فيخضعها للرجل؛ ويجعل منها سيدة بيت في الوقت نفسه.

ويبس سه سيسة ويست ولا تزال بعض الأوساط البورجوازية تترك الفتاة عاجزة عن كسب حياتها، فلا يمكن لها حينئذ إلا العيش كفضولية في دار والدها أو أن تقبل وضع التبعية في بيت أجنبي. وإذا فرضنا أنها أكثر تحرراً، فإن الامتياز الاقتصادي للرجل يدفعها إلى تفضيل الزواج على العمل. حينئذ تبحث عن زوج أحسن منها وضعاً آملة بالحصول على مكانة أعلى في أسرع وقت. إن جسمها يعتبر كمتاع يُباع ويُشترى، وهو بالنسبة إليها رأسهال يجوز استثهاره. وأحياناً تقدم بائنة للزوج وتأخذ على عاتقها عبء العمل المنزلي وتربية الأطفال. وعلى كلاً، فإن من حقها دائماً أن ينفق الرجل عليها - بل إن الأخلاق تدعوها إلى ذلك. فمن الطبيعي أن تستهويها هذه السهولة لا سيها أن الأشغال النسوية كثيراً ما تكون سيئة الأجور.

كل فتاة تقريباً، سواء في العالم الجديد أو القديم، تجيب إذا ما سُئلت عن مشاريع المستقبل بقولها: «أريد الزواج»؛ في حين أن ما من شاب يعتبر الزواج هدفاً أساسياً له. بل النجاح الاقتصادي هو الذي يكسبه المكانة.

إن شروط الحياة الحديثة تجعل أعباء الزواج ثقيلة على الشاب، فتناقصت الفائدة منه وخاصة أن الشاب صار باستطاعته أن يؤمّن الناحية الزوجية خارج نطاق الزواج صحيح أن الزواج يسهل بعض نواحي حياة الرجل إلا أن إقبال الشباب على الزواج وبالتالي عروضهم تبقى بوجه عام أقل من عروض النساء.

والمرشحة البائسة تعلم جيداً أن حظها في الزواج يتناقص كلما تقدم بها السن فالخطّاب ليسوا كثيرين. وحريتها لا تفوق كثيراً حرية البدوية التي تُبادَل ببعض رؤوس الماشية.

تقول الكاتبة كوليت: «الفتاة التي لا تملك ثروة أو ليس لها مهنة والتي تعيش في كنف إخوتها ما عليها إلا أن تسكت، وأن تقبل بحظها وتشكر ربها».

لقد أصبحت الفتيات أكثر تحرراً؛ وأخذن يكثرن من خروجهن ويقبلن على الجامعات، ويحترفن مهنة تتيح لهن فرصة التعرف على الرجال. وقد درست إحدى المؤلفات مسألة الانتقاء في الزواج في أوساط البورجوازية البلجيكية بين عامي 1945 و 1947، فكانت أكثرية الآراء تدل على أن الزواج المهيأ سلفاً من قِبَل الأهل آخذ في الزوال. أما الطريقة المتبعة فهي الزواج بالمراسلة. وقد بيّنت الدراسة نفسها على أن الزواج بين أصدقاء الطفولة نادر، وأن الفتيات هن اللواتي يأخذ عادة المبادرة في الزواج، بل جاء في التحقيق: «الفتاة تفعل كل ما في وسعها كي تتزوج … والمرأة هي التي تفتش عن الرجل». وفي فرنسا كما في أميركا، تعلم الأمهات والمجلات النسائية الفتيات في الحياء الرجل». وفي فرنسا كما في أميركا، تعلم الأمهات والمجلات النسائية الفتيات في الرحل». وفي غرنسا كما في أميركا، تعلم الأمهات والمجلات النسائية الفتيات في الرحل». وفي خيالية بل كوني واقعية»..

والشباب يحاولون دائهاً التخلص من المصيدة: وانتقاء الفتاة محدود حبها في أغلب الأحيان. وإذا كان الزوج مناسباً تقريباً فإنها تقبله دون حب ولو كان هناك تحفظات.

ولئن كانت الفتاة تريد الزواج لمزاياه؛ فإنها في الوقت نفسه تخشاه، لأنه يتطلب منها تضحيات جسيمة؛ وخاصة الانقطاع الفجائي عن الماضي. حتى إن كثيراً من الفتيات يشعرن بالقلق من فكرة مغادرة بين والدهن. وفي هذه المرحلة تنشأ كثيراً من الأزمات العصبية.

لنأخذ عن ستيكل المثال التالي:

عندما تعرف عليها ستيكل كانت تشكو من التقيؤ، وتأخذ المورفين كل مساء وتجتاحها نوبات من الغضب؛ وترفض أن تغتسل؛ وتأكل في سريرها وتبقى محبوسة في غرفتها. إنها مخطوبة وتؤكد أنها تحب خطيبها. وتعترف لستيكل بأنها استسلمت له .. ثم قالت فيها بعد أنها لم تشعر بأية لذة، بل إنها حفظت من أثرها بذكرى بشعة وهذا سبب تقيؤها. وقد اكتشف أنها استسلمت لتعاقب أمها التي لا تكنّ لها، فيها تعتقد، حباً كافياً. ولما كانت ظفلة كانت تتلصص على والديها في الليل لأنها كانت تخاف أن ينجبا أخاً أو أختاً، لقد كانت تعبد أمها؛ والآن أصبحت مضطرة إلى الزواج ومغادرة بيت أبيها، إن

هذا مستحيل. لذلك أخذت تحك يديها وباتت قاسية، مريضة، تحاول إهانة خطيبها بكل الوسائل. وقد شفاها الطبيب، إلا أنها رجت أمها أن تكف عن فكرة تزويجها. كانت تريد البقاء دائماً في البيت لتظل طفلة. أما أمها فكانت تلح في تزويجها ... وقبل يوم الزواج بأسبوع وُجدت ميتة في سريرها، فقد انتحرت بإطلاق النار على نفسها!

وفي حالات أخرى يحل بالفتاة مرض طويل. إنها يائسة، فيها تدّعي، لأن مرضها لا يسمح لها بالزواج من الرجل الذي تحب، والحقيقة أنها تختلق المرض كي لا تتزوج. ولا تعود إلى حالتها الطبيعية إلا بفصم الخطوبة.

ان الارتباط ببيت الوالد يدفع الفتاة غالباً إلى عدم تحمل فكرة الخطوبة مع ذكر غريب عنها. وفتيات كثيرات لا يقبلن الزواج إلا لأنه ضروري؛ ولأنه المخرج الوحيد، لذلك يخفين في أعهاقهن مقاومة عنيدة تجعل الأيام الأولى من الحياة الزوجية صعبة وقد تمنعهن من الحصول على حياة متوازنة.

لا يكون الحب غالباً سبباً في الزواج. فالزوج كها يقول فرويد ليس سوى بديل عن المحبوب وليس المحبوب ذاته. إن هذا التباين ليس أمراً طارئاً بل تقتضيه طبيعة الزواج نفسه. فالغاية منه التسامي إلى المصلحة الجهاعية عن طريق الاتحاد الاقتصادي والجنسي بين الرجل والمرأة، وليس الهدف منه تأمين السعادة الفردية. وكثيراً ما يحدث في المجتمعات الخاضعة للنظم الأبوية، أن لا يرى أحدهما وجه الآخر إلا في يوم الزفاف؛ إذ لا يمكن تأسيس الحياة، من الناحية الاجتماعية، على أساس من الهوى العاطفي أو الميل الجنسي.

لما كانت العروض النسوية كثيرة، فإن للرجل إمكانية أوسع في الانتقاء. أما الفتاة فعليها أن تزهد في حب شخص معين؛ وقد سمعت امرأة روعة تلقّن بناتها أن الحب إحساس خشن خاص بالرجل ولا تعرفه النساء الفاضلات. مثل هذه الفكرة نراها عند هيجل في شكل فلسفي. فلا يجب على المرأة أن تأسس علاقات ذات صفة فردية خاصة مع زوج تصطفيه، بل عليها أن تبرر ممارسة وظائفها النسوية في شكلها التام. وينجم من ذلك أمران: أولاً، ليس لها الحق في أي نشاط جنسي قبل الزواج. وبها أن الاتصال الجسدي يخضع لنظام، بالنسبة إلى الزوجة، فهناك تجاوز بالرغبة واللذة نحو المصلحة الاجتماعية. وبها أن الرجل يجاوز ذاته نحو العام بصفته عاملاً ومواطناً، فبإمكانه أن

هذا مستحيل. لذلك أخذت تحك يديها وباتت قاسية، مريضة، تحاول إهانة خطيبها بكل هدا مستحيل. بديب الحد المستحيل بديب الما أنها رجت أمها أن تكف عن فكرة تزويجها. كانت تريد الوسائل. وقد شفاها الطبيب، إلا أنها رجت أمها أن تكف عن فكرة تزويجها. الوساس. ومد المستحد الما أمها فكانت تلح في تزويجها ... وقبل يوم الزواج البقاء دائماً في البيت لتظل طفلة. أما أمها فكانت تلح في تزويجها ... بأسبوع وُجدت ميتة في سريرها، فقد انتحرت بإطلاق النار على نفسها !

وفي حالات أخرى يحل بالفتاة مرض طويل. إنها يائسة، فيها تدّعي، لأن مرضها لا يسمح لها بالزواج من الرجل الذي تحب، والحقيقة أنها تختلق المرض كي لا تتزوج. ولا تعود إلى حالتها الطبيعية إلا بفصم الخطوبة.

إن الارتباط ببيت الوالد يدفع الفتاة غالباً إلى عدم تحمل فكرة الخطوبة مع ذكر غريب عنها. وفتيات كثيرات لا يقبلن الزواج إلا لأنه ضروري؛ ولأنه المخرج الوحيد، لذلك يخفين في أعهاقهن مقاومة عنيدة تجعل الأيام الأولى من الحياة الزوجية صعبة وقد تمنعهن من الحصول على حياة متوازنة.

لا يكون الحب غالباً سبباً في الزواج. فالزوج كما يقول فرويد ليس سوى بديل عن المحبوب وليس المحبوب ذاته. إن هذا اللتباين ليس أمراً طارئاً بل تقتضيه طبيعة الزواج نفسه. فالغاية منه التسامي إلى المصلحة الجماعية عن طريق الاتحاد الاقتصادي والجنسي بين الرجل والمرأة، وليس الهدف منه تأمين السعادة الفردية. وكثيراً ما يحدث في المجتمعات الخاضعة للنظم الأبوية، أن لا يرى أحدهما وجه الآخر إلا في يوم الزفاف؛ إذ لا يمكن تأسيس الحياة، من الناحية الاجتماعية، على أساس من الهوى العاطفي أو الميل الجنسي.

لما كانت العروض النسوية كثيرة، فإن للرجل إمكانية أوسع في الانتقاء. أما الفتاة فعليها أن تزهد في حب شخص معين؛ وقد سمعت امرأة روعة تلقِّن بناتها أن الحب إحساس خشن خاص بالرجل ولا تعرفه النساء الفاضلات. مثل هذه الفكرة نراها عند هيجل في شكل فلسفي. فلا يجب على المرأة أن تأسس علاقات ذات صفة فردية خاصة مع زوج تصطفيه، بل عليها أن تبرر ممارسة وظائفها النسوية في شكلها التام. وينجم من ذلك أمران: أولاً، ليس لها الحق في أي نشاط جنسي قبل الزواج. وبها أن الاتصال الجسدي يخضع لنظام، بالنسبة إلى الزوجة، فهناك تجاوز بالرغبة واللذة نحو المصلحة الاجتماعية. وبما أن الرجل يجاوز ذاته نحو العام بصفته عاملاً ومواطناً، فبإمكانه أن

يتذوق قبل الزواج وعلى هامش الحياة الزوجية ملذات عارضة. ومن جهة أخرى، أن الذكر حين يؤدي واجبه النوعي كزوج ومولد فإنه يحقن لذته حتماً. في حين نجد عند المرأة غالباً افتراقاً وتبايناً بين الوظيفة النوعية واللذة، لدرجة أن الزواج إذ يدعى إكساب حياة المرأة الجنسية وقاراً أخلاقياً، فإنه في الحقيقة يحذفها.

وقد رضي الرجال عن طيب خاطر بكبت المرأة الجنسي مستندين إلى نظرة متفائلة، قد تصل إلى التهكم فيقولان: خمس دقائق لذة ... وتسعة أشهر ألم. إن البعض يقول: إن آلام الولادة ضرورية لظهور غريزة الأمومة. فطبيعي إذن أن لا يشعر الذكور بأي توبيخ في إنكار السعادة الجنسية على شريكتهم.

يقول برودون بصراحة بأن إزالة الحب من الزواج مطابق للعدالة.

إلا أن مفاهيم البورجوازية خلال القرن التاسع عشر تعدلت بعض الشيء. كانت هذه الطبقة تحاول جهدها أن تدافع عن الزواج وتصونه؛ ومن جهة، فإن نمو الفردية كان يحول دون خنق المطالب النسوية، لذلك نشأت مسألة إدخال المشاعر الفردية إلى الزواج، التي كانت مهملة قبلاً. حينئذ استنبط مفهوم «الحب الزوجي» المبهم الذي كان ثمرة عجيبة أنجبها الزواج التقليدي. وإن بالزاك يعبر عن عدم تماسك أفكار البورجوازية المحافظة؛ غير أنه يربأ بنفسه أن يشبه نظام الزواج المحترم بسوق عادية تُعتبر فيها المرأة متاعاً. لذلك يصل إلى أفكار متنافرة كها جاء في فيزيولوجيا الزواج:

«يمكن اعتبار الزواج، من النواحي السياسية والمدنية والخلقية كقانون، كعقد، كنظام ... لذلك ينبغي له أن يكون محط الاحترام العام.

إن أغلب الرجال لا ينظرون إلى الزواج إلا كوسيلة للحصول على الأطفال. إلا أن السعادة لا تنجم عن التناسل أو المُلكية. وأن نطلب الحب من فتاة لم نراها إلا بضع مرات في بضعة أيام هو نوع من السخف».

ويستطرد بالزاك قائلاً: «الحب هو توافق الحاجة والعاطفة. والسعادة في الزواج تنجم عن تفاهم روحي تام بين الأزواج، وعلى الرجل أن يخضع، إذا أراد السعادة لنفسه، لبعض قواعد الشرف والكياسة. ينبغي له، بعد الاستفادة من القانون الاجتماعي الذي

يقر بالحاجة، أن يستجيب لقوانين الطبيعة الخفية التي تفتق المشاعر. وإذا كانت سعادته في ر. أن يكون محبوباً، فما عليه إلا أن يحب بإخلاص، إذ ما من شيء يقاوم الحب الحقيقي. إلا أن التولُّه يعني الرغبة الدائمة. فهل بوسع الرجل أن يرغب دائماً في زوجته؟ نعم إنه يستطيع ذلك».

ثم يسرد بالزاك علم الزواج. إن الزوج لا يتردد في فرض نظام غذائي يُضعف المرأة. ويمنع عنها كل ثقافة؛ ويقسو نحوها في سبيل المحافظة على شرفه. هل المسألة مسألة حب؟ يبدو أن المغزى الوحيد الذي يمكن استخلاصه من هذه الأفكار المهلهلة والمهمة أن من حق الرجل انتقاء امرأة تفي بحاجاته؛ وعليه بعد ذلك أن ينبه حب ام أته بالاعتهاد على بعض الوصفات. لكن هل هو حقاً محب إذا تزوج من أجل المُلكية والتناسل. وإذا لم يكن محباً فكيف يكون هواه من الشدة بحيث ينبه قلب زوجته؟ هل يجهل بلزاك أن الحب غير المتبادل يقضّ المضجع أكثر من أن يغوي بصورة حتمية؟ إننا نرى سوء نيته بوضوح في كتابه: مذكرات زوجتين شابتين. وهي قصة تأخذ شكل رسائل وذات فكرة هادفة.

تدعي البطلة «لويز دي شوليو» تأسيس زواجها على الحب. فيدفعها حبها المبرح إلى قتل زوجها الأول؛ ثم تموت من فرط غيرتها تجاه زوجها الثاني. أما البطلة الثانية «رونيه دي بستوراد، فتضحي بعواطفها أمام عقلها فتعوضها مباهج الأمومة عن ذلك وتبني لها سعادة راسخة ثابتة.

إننا نتساءل أي لعنة حلَّت بالزوجة الأولى، باستثناء القرار العلوي الصادر عن المؤلف نفسه، لتمنع عن لويز العاشقة ما تصبو إليه من أمومة. فالحب لم يكن قط حائلاً

ويصف بلزاك ليلة العرس بقوله: «قالت رونيه لصديقتها: لقد اختفى الوحش الذي نطلق عليه بحسب تعبيرك اسم زوج، حل محله، لا أدري في أية ليلة حلوة، عاشق تغلغلت كلماته في نفسي، وكنت أستند إلى ذراعه بلذة لا توصف ... وتنبهت غريزة الفضول في قلبي . اعلمي أنني لم أفتقد أي شيء يقتضيه الحب الناعم.

على أن هذه الأعجوبة لم تكن تكرر في أغلب الأحيان؛ إذ نرى "رونيه" بعد عدة رسائل وهي تذرف الدموع: "كنت فيما مضى شخصاً! أما الآن فأصبحت متاعاً". إننا نتساءل كيف تحول الزوج إلى ساحر؟ فالوسائل التي يسوقها بلزاك في "فيزيولوجيا الزواج" مقتضبة جداً:

«لا تبدأ الزواج أبداً بالاغتصاب».

أو مبهمة: «إن عبقرية الزوج تكمن في اكتناه أنواع اللذة ببراعة، وتطويرها وإعطائها طابعاً جديداً وتعبيراً أصيلاً».

غاب عن بلزاك أنه ليس هناك عواطف حيادية. وفقدان الحب، والضغط والضجر، تؤدي كلها إلى فراغ الصبر والخصام أكثر من أن تؤدي إلى الصداقة الودودة.

أما «كير كغارد» فيعتقد أن التوفيق بين الزواج والحب يتطلب كي ينجح تدخل العناية الإلهية:

«الزواج يا له من اكتشاف غريب! ومما يزيد في غرابته الاعتقاد بأنه عملية عفوية. ما من عملية حاسمة مثل الزواج ... لذلك ينبغي عمله بصورة عفوية».

"العبودية هي ما يلي: الحب والميل العاطفي عفويان تماماً، أما الزواج فتصميم. إلا أن الميل العاطفي يجب أن ينبه بالزواج أو بالقرار: إرادة الزواج. الأمر الذي يعني أن أكثر الأشياء عفوية يجب أن يكون في الوقت نفسه أكثر القرارات حرية. إن هذا الأمر بسبب عفويته يصعب تفسيره مما يدعو إلى إرجاعه إلى قوة إلهية؛ ويجب أن يحدث في الوقت نفسه نتيجة تفكير قوي جداً بحيث ينجم عنه التصميم والقرار. بل يجب أن يحدث كل شيء في نفس الوقت، وأن يجتمع الشيئان في لحظة الحتام».

من الصعب أن نفهم كيف يمكن للحب أن يصبح واجباً، إلا أن «كير كغارد» لا يخشى التناقض وكل كتابه عن الزواج يهدف إلى توضيح هذا اللغز.

صحيح كما يقول: «إن التفكير يقضي على العفوية.. ولو كان التفكير ينتقص من الميل العاطفي لما كان هناك زواج أبداً». إلا أن «التصميم عفوية جديدة تبلغ من خلال التفكير ويحس بها بصورة فكرية صرفية، عفوية تتناسب تماماً مع عفوية الميل العاطفي. إن

التصميم مفهوم ديني للحياة المبنية على أسس أخلاقية وينبغي له، إن صح القول، إن التصميم مفهوم ديني للحياة المبنية على أسس أخلاقية وينبغي أو داخلي». يمهد السبيل للميل العاطفي ويحميه من كل خطر خارجي أو داخلي».

أما المرأة فليس العقل من نصيبها، ولا تتمتع بالتفكير؛ لذلك "تنتقل من الحب أما المرأة فليس العقل من نصيبها، ولا تتمتع بالتفكير؛ لذلك "تنتقل من الحب يعزم المباغت إلى التدين المباغت. إن هذا الاعتقاد يعني بتعبير أوضح أن الرجل المحب يعزم على النواج بدافع إلهي يضمن له توافق العاطفة وعهد الارتباط. والمرأة لا تكاد تحب على الزواج بدافع إلهي يضمن له توافق العاطفة وعهد الارتباط.

أتيح لي التعرف إلى امرأة كاثوليكية تؤمن إيهاناً ساذجاً بـ «الحب المباغت الطقوسي، ففي اللحظة التي يلفظ فيها الزوجان كلمة «نعم» أمام المذبح في الكنيسة يحسان بلواعج الحب في قلبيهها.

على أن كتاب القصة في القرن التاسع عشر أقل وثوقاً بمزايا الطقوس ويحاولون ضهان السعادة الزوجية بطرق أكثر إنسانية. وهم يواجهون بشجاعة أكثر من بلزاك إمكانية الجمع بين الشهوة والحب الشرعي، لكن بتأثير من «بول هيرفيو» سطر في القانون أن «الحب» واجب يقع على عاتق الزوجين.

ولأسباب أخرى وبطرق أخرى، يضاعف الأميركيون، الذين يحترمون الزواج والفردية معاً، جهودهم للتوفيق بين الحياة الجنسية والزواج. وتظهر في كل عام كتب كثيرة للتعريف بالحياة الزوجية؛ هدفها أن علم الرجل كيف يحقق الانسجام التام مع زوجته. كما يقوم كثير من الأخصائيين في الشؤون النفسية والأطباء بدور «المستشارين في الأمور الزوجية» وهم يقرون بأن للمرأة أيضاً الحق في اللذة وأن على الرجل معرفة الأصول الكفيلة بتأمينها. إلا أنهم رأوا أن النجاح ليس مسألة «أصول» فقط. وإذا حفظ الشاب عن ظهر قلب عشرين مؤلفاً مثل: «ما يجب على كل زوج معرفته»، «سر السعادة الزوجية»، «الحب بلا خوف» - فليس من الأكيد أنه سيعرف كيف يجتذب قلب زوجت فالمرأة تستجيب لمجموع الوضع النفسي، والزواج التقليدي بعيد عن تحقيق أحسن الشروط لتنبيه وتنمية الرغبة عند المرأة.

اكتسبت البكارة قيمة أخلاقية دينية غيبية. وهي معترف بها اليوم بصورة عامة. ففي بعض المناطق الفرنسية ينتظر أصدقاء الزوج وراء باب غرفة الزفاف وهم يضحكون ويغنون، إلى أن يظهر عليهم الزوج ليعرض عليهم المنديل ملطخاً بالدم، أو أن أهله يعرضونه صباحاً على جيرانهم، وعلى كلّ، فإن عادة «ليلة العرس» ما زالت منتشرة بشكل أقل وحشية. وما دامت العلاقة الجنسية يبررها المجتمع فلا يمكن لعلاقة الشريكين إلا أن تكون حيوانية. حينئذ يبرز الزواج مغزاه العام التجريدي: رجل وامرأة يجتمعان بحسب طقوس رمزية أمام أعين الجميع. إلا أن الشخصين اللذين يجتمعان في الجو المخدعي للسرير هما شخصان حقيقيان ومعينان.

قصّت الكاتبة «كوليت» أنها أصيبت لما كانت في الثالثة عشرة من عمرها بارتباك غيف حين أخذتها صديقتها لرؤية غرفة العرس. فقد أحست بتناقض كبير بين مظاهر الأفراح العائلية واللغز الحيواني للسرير الكبير المحجوب.

إن الناحية الساخرة للزواج لا تظهر في الحضارات التي تبرز فردية المرأة. ففي الغرب، في يومنا هذا، يُؤخذ الرجل والمرأة على أنها فردان. والمدعوون إلى حفلة الزفاف يتضاحكون، لأن هذا الرجل بالذات وهذه المرأة بالذات سيقومان شخصياً في تجربة فردية صرفة، بعملية مغطاة بالطقوس والخُطب والزهور. إن العروس الشابة تحس بمفاجأة كبرى حين تكتشف فردية التجربة والواقعية. والكتب النفسية زاخرة بقصص النساء الشابات اللواتي يعدن عند والدتهن ليلة الزفاف والدموع تنهمر من أعينهم. وقد استمعت إلى عدة قصص بصورة مباشرة. أمثال هؤلاء الفتيات يكن عادة قد تلقين تربية عالية دون أن يطلعن على التربية الجنسية فيفاجأن أمام اكتشاف الجنس.

في القرن الماضي كانت السيدة «آدام» تتصور أنها مضطرة إلى الزواج من رجل قبّلها من فمها، إذ كانت تعتقد أن ذلك هو الشكل الكامل للاتحاد الجنس. وقصّ ستيكل منذ عهد قريب حكاية الزوجة الشابة التي خلا بها زوجها ليلة العرس فحسبته مجنوناً من تصرفاته فلم تنبس بكلمة خوفاً منه.

أن فتيات اليوم أكثر اطلاعاً، على أن موافقتهن تبقى لها الصفة التجريدية. ويبقى للاختلاء بهن أول مرة طابع الاغتصاب؛ حتى أن «هافلوك إيليس» يقول: «إن حوادث

الاغتصاب المرتكبة أثناء الزواج أكثر من الحوادث المرتكبة خارجه». وجمع "نوجباور» في الاغتصاب المرتعبة الله أصيبت فيها النساء بجروح أثناء الجماع. وأسباب ذلك: القسوة. كتابه أكثر من 150 حالة أصيبت فيها النساء بجروح أثناء الجماع. وأسباب ذلك: القسوة. كتابه اكثر من أور الخاطئ، عدم تناسب الأعضاء. وفي إنكلترا، يروي «هافلوك» أن امرأة والسُّكر، الوضع الخاطئ، عدم تناسب الأعضاء. وفي إنكلترا، يروي «هافلوك» أن امرأة والسكر، الوصع الله متزوجات من الطبقة المتوسطة وعلى جانب من الذكاء، عن ردود سألت ست نساء متزوجات من الطبقة المتوسطة وعلى جانب من الذكاء، عن ردود سالت سب سب سب المناف، فتبين أن الجماع كان صدمة بالنسبة إليهن. كانت اثنتان منهما تجهلان فعلهن ليلة الزفاف، فتبين أن الجماع كان صدمة بالنسبة ص عني صدمن نفسياً. وقد أكد «آدلر» على أهمية إزالة البكارة من الناحية النفسية. إن اللحظة الأولى التي يتملك فيها الرجل كل حقوقه تقرر في أكثر الأحيان مصير الحياة كلها. فالزوج المتهيج وغير المجرب قد يزرع بذور فقدان الحساسية النسوية. وقد يؤدي استمرار قسوته وعدم مهارته إلى تحويل فقد الحساسية إلى تخدير دائم.

يسرد ستيكل الحالة التالية كمثال للبداية التعيسة:

انشأت السيدة هـ. ن. نشأة عفيفة جداً فكانت ترتجف بمجرد التفكير في ليلة الزفاف. وقد خلع عنها زوجها ملابسها بشيء من العنف دون أن يسمح لها بالإضجاع. ثم خلع ملابسه وطلب إليها أن تنظر إليه وهو عار .. فأخفت وجهها بيديها. حينئذ صرخ فيها: لماذا لم تمكثي عند أهلك يا باردة ! ثم ألقاها على السرير وأزال بكارتها بعنف. ومن الطبيعي أنها أصيبت بالبرود الجنسي الدائم».

لقد رأينا، مثلاً، كل الموانع التي ينبغي للعذراء التغلب عليها لتستكمل استعدادها الجنسي. وإن اطلاعها يتطلب جهداً فيزيولوجياً ونفسياً. فمن الحمق والوحشية تلخيص الاطلاع في ليلة واحدة. ومن السخف أن تحوَّل عملية الجماع الأولى الصعبة إلى واجب .. ومما يزيد في شعور الرهبة عند المرأة أن العملية الغريبة التي ينبغي أن تخضع لها هي عملية مقدسة أناطها المجتمع والدين والأسرة والمعارف بالزوج كما لو كان سيداً. ولأن هذه العملية تربط كل مستقبلها، حيث أن الزواج له صفة نهائية. على أن الرجل نفسه يشعر بالقلق أيضاً لأن له مَصاعبه الخاصة وعقده التي تجعل منه شخصاً خجولاً مرتبكاً، أو بالعكس متوحشاً.

إن الإقبال الشديد يرهب العذراء والاحترام الزائد يذلّما. ومن النساء من يبغضن الرجل الذي يحصل على لذته بأنانية على حساب الامهن، إلا أنهن يشعرن بالحزازة الدائمة

نجاه الرجل إذا أعرض عنهن في الليلة الأولى. وتذكر «هيلين لاتش» أن بعض الأزواج الخجولين يطلبون إلى الطبيب أن يزيل بكارة زوجتهم بعملية جراحية بحجة أنها سيئة التكوين عضوياً، وقد يؤدي عجز الزوج إلى أمراض نفسية عند المرأة كما يتبين من المثال التالي لفرويد:

الكان من عادة إحدى المريضات أن تركض من غرفة إلى غرفة أخرى تتوسطها طاولة. وكانت تهيئ غطاء الطاولة بصورة ما ثم تدق مستدعية الخادمة وبعد اأن تقترب هذه من الطاولة تصرفها ... حين حاولت أن تفسر هذا الهوس تذكرت أن على هذا الغطاء بقعة، وأنها كانت تعده في كل مرة بصورة تُظهر هذه البقعة أمام الخادمة ... كل ذلك كان إعادة وتكراراً لليلة الزفاف حيث ظهر قصور الزوج الذي ترك غرفته مرات عديدة ليعاود التجربة.

ولما خجل من الخادمة التي كان عليها أن تهيئ السرير صبّ شيئاً من الحبر الأحمر على غطاء السرير لتظن أنه دم».

إن «ليلة الزفاف» تحيل العملية الجنسية إلى تجربة قاسية يخاف كل من الزوجين أن لا يتغلب عليها. إن المشكلة الكبرى المطروحة على الزوج هي أنه إذا داعب زوجته بتفنن زائد فقد يجرحها. ويبدو أن الخوف من ذلك يشل أيضاً الأزواج الأميركيين خصوصاً عند الذين تلقوا تعليهاً جامعياً، كها جاء في تقرير «كينسي»، إلا أنه قد يفشل في تنبيه حساسيتها إذا «احترمها».

إن هذا الوضع يخلقه ازدواج الموقف النسائي: فالمرأة الشابة ترغب في اللذة وترفضها في الوقت نفسه. فإذا لم يكن الزوج ذا حظ استثنائي فإنه يبدو بالضرورة إما فاجراً خليعاً أو ساذجاً عبيطاً. فيجب أن لا تعترينا الدهشة إذا بدت «الواجبات الزوجية»، في أغلب الأحيان، عبئاً مقززاً بالنسبة إلى المرأة.

يقول «ديدورو»: «خضوع المرأة لرجل لا يعجبها عذاب بالنسبة إليها. رأيت امرأة فاضلة ترتجف حين يقترب زوجها منها، ورأيتها تغطس نفسها في جرن الماء ظناً منها أنها لم تتطهر تتطهراً كافياً من دنس الواجب. نحن معاشر الرجال نجهل تقريباً هذا النوع من التقزز. إن السعادة القصوى تتخلى عنهن وهن بين أحضان حبيبهن المعبود، في حين نشعر

باللذة مع امرأة مسايرة لا تعجبنا. النساء أقل تحكماً بحواسهن من الرجال، إلا أن النشوة عندهن ليست سريعة ومضمونة كما عند الرجل».

عندهن بيست سرية و الحقيقة، يصبحن أمهات وجدات دون أن يتعرفن على اللذة. بل نساء كثيرات، في الحقيقة، يصبحن أمهات وجدات دون أن يتعرفن على اللذة. بل إن منهن من مجاولن التخلص من «دنس الواجب» بالحصول على شهادات طبية أو أية وثيقة أخرى. وبين تقرير «كنيسي» أن كثيراً من الزوجات في أميركا يتذمرن من كثرة وثيقة أخرى. وبين تقرير أن يقلل أزواجهن من عددها؛ وقليلاً جداً النساء اللواتي يرغبن في مرات أكثر.

ولكننا رأينا أن إمكانية المرأة للجهاع تكاد تكون غير محدودة. هذا التناقض يبين أن الزواج يقتل الشهوة الجنسية في حين يدعي إخضاعها لقواعد.

وصف «مورياك» في قصته «تيريز ديكيرور» ردود فعل امرأة زُوِّجت «زواجاً عقلياً»، أمام الزواج بشكل عام والواجبات الزوجية بشكل خاص:

العلها كانت تبحث في الزواج عن ملجأ أكثر من بحثها عن التسلط والامتلاك! ألم يكن الذعر هو الذي دفع بها إليه؟ لما كانت امرأة عملية فإنها كانت تستعجل الحصول على وضع نهائي. كانت تريد أن تضمن نفسها ضد خطر وهمي. ولم تبد قط عاقلة مثلها كانت عليه أثناء الخطوبة؛ وكانت منسجمة تمام الانسجام ضمن إطار النظام العائلي. وأحست أنها ضعِنت لنفسها النجاة، إلا أنها أحست بنفسها ضائعة يوم الزفاف الخانق في كنيسة سان كلير الضيقة. لقد دخلت القفص شبه نائمة، ولما سمعت ضجة الباب يُغلق من خلفها عادت فجأة إلى رشدها.

بعد ليلة الزفاف فكرت في نفسها قائلة: «كانت ليلة فظيعة» ثم أضافت «لا لم تكن فظيعة تماماً». وخلال رحلتها إلى البحيرات الإيطالية عرفت كيف تكيف جسمها مع هذه التظاهرات فكانت تشعر باللذة. هذا العالم المجهول، عالم الأحاسيس الذي يدفعها رجل لى دخوله. كانت مخيلتها تساعدها على التصور بأنها هي أيضاً تستطيع الحصول على السعادة. لكن أي سعادة؟ إنها تشبه تخيلنا للشمس ونحن ننظر إلى المطر المنهمر؛ هكذا كانت تكتشف تيريز اللذة».

وهذه شهادة أخرى أوضح من الأولى. إنه اعتراف جمعه «ستيكل» من امرأة في الثامنة والعشرين، نشأت في وسط مثقف.

الامتهام. كنت فتاة مدللة، وكان خطيبي يجيطيني بحبه. كل هذه الأشياء كانت جديدة بالنسبة إلى. وقد أشعلت القبلات في النار. وفي صبيحة يوم الزفاف كنت في درجة من المبجان جعلت قميصي يتبلل بالعرق. كنت أفكر في أنني أخيراً سأتعرف على المجهول. كانت لدي فكرة صبيانية هي أن على الرجل أن يبول في فرج المرأة ... وشعرت في غرفتنا بالصدمة لما سألني زوجي فيها إذا كان عليه أن يبتعد. وقد طلبت إليه ذلك لأنني كنت أشعر حقاً بالخجل لأن مشهد التعري لعب دوراً في مخيلتي. ثم عاد زوجي بادي الارتباك بعدما صرت في السرير. وقد اعترف لي فيها بعد أنه ارتاع لمنظري: كنت أجسد الشباب المرح المتلئ بالترقب.

ولم يكد يخلع ثيابه حتى أطفأ النور؛ وإن هي إلا قبلة حتى حاول أن يمتلكني رأساً. كنت أشعر برهبة شديدة فطلبت إليه أن يتركني ساكنة. كنت أتمنى أن أكون بعيدة عنه، لأنني انزعجت من هذه المحاولة التي لم تسبقها مداعبات تمهيدية. لم يكن في تصرفه قسوة بل قلة في اللباقة والحساسية. كل محاولاته خلال الليل كانت بلا نتيجة فأخذت أشعر بالتعاسة. كنت خجلة من حماقتي ظانة أني مخطئة أو غير صحيحة التكوين ... وأخيراً اكتفيت بقبلاته.

بعد عشرة أيام تمكن من إزالة بكارتي؛ إلا أن الجهاع لم يدم سوى بضع ثواني ولم أشعر بشيء ما عدا ألم بسيط. كانت المسألة بالنسبة إلىّ خيبة ظن كبرى.

بعدئذ أخذت أحس بقليل من البهجة أثناء الجماع؛ إلا أن النجاح كان شاقاً وكان زوجي يجد صعوبة في تحقيق هدفه. وفي مدينة «براغ» شعرت باللذة الكاملة مرة وأنا أنخيل شخصاً آخر، وتكرر ذلك عدة مرات. إلا أنني في النهاية لم أعد أحس بالاكتفاء لأن المدة كانت قصيرة جداً. وبعد ولادتين لم أعد أبلغ النشوة إلا نادراً. أما زوجي فكان يبلغها دائماً. فأخذت أتتبع العملية بالقلق وكنت أحس تجاهه بالبغض إذا ما تركني بعد اكتفائه ... إن الخطوبة من شأنها أن تتبح للفتاة التعرف التدريجي؛ لكن العادات غالباً ما تفرض على الخطيب عفة بالغة.

إن مصاعب التجارب الأولى يمكن التغلب عليها بسهولة إذا انتزع الحب أو الرغبة من الشريكين موافقة عامة. والحب الجسمي يأخذ قوته وكرامته من الفرح المتبادل بين المحبين وهم يشعرون بحريتهم؛ ولا تعود العملية مفروضة، بل منتقاة. إلا أن مبدأ الزواج يجرح العفة لأنه يحيل إلى حقوق وواجبات تبادلاً ينبغي أن يؤسس على انتفاضة عفوية؛ إنه يعطي للأجسام صفة آلية؛ إذ يفرض عليها أن تتعارف بشكل عام. ومن الطبيعي أن الزوجين قد يتجاذبان جسمياً منذ أول ليلة. والزواج يسهل استسلام المرأة بإزاحة فكرة الخطيئة المرتبطة بالجسد. وأن التعايش المنتظم يؤدي إلى ألفة جسمية تساعد على النضج الجنسي. إلا أن ذلك لا يمنع أن المرأة تغامر مغامرة كبرى بتعهدها أن تنام كل حياتها مع رجل لا تعرفه جنسياً في حين أن مصيرها الجنسي معلق تعلقاً جوهرياً بشخصية شريكها.

من المراءاة الادعاء بأن الاتحاد القائم بحسب الأصول له حظ كبير في أن يحدث الحب. ومن السخف أن نطلب من زوجين مرتبطين بمصالح اجتماعية وأخلاقية أن يغدقا اللذة على بعضهما طول الحياة. إلا أن أنصار الزواج العقلي عبثاً يحاولون أن يثبتوا أن زواج الحب ليس له حظ كبير في تأمين سعادة الزوجين. إن الحب المثالي الذي هو الحب الذي تعرفه الفتاة غالبًا، لا يجعلها دائمًا مستعدة للحب الجنسي. وإذا كان بينها وبين خطيبها تجاذب جنسي صحيح وشديد، فهو يشكل ذلك أساساً متيناً لبناء مشروع حياة.

كتبت كوليت: اتحتل اللذة في صحراء الحب اللامتناهية زاوية صغيرة ملتهبة. وهي من التأجج بحيث لا يرى المرء سواها في البداية. أما حول هذه النقطة فيكمن المجهول

وحينا يصحو الزوجان من العناق أو حتى من ليلة طويلة ينبغي لهما التفكير في العيش الواحد بجانب الآخر، الواحد من أجل الآخر.

وحتى في حالة افتراض ممارسة الحب الجسدي قبل الزواج أو تنبهه في بداية ليلة الزفاف، فمن النادر جداً أن يدوم أعواماً طويلة.

ثم إن الواحد ينظر إلى الآخر كوسيلة لإرواء الحاجات وإن كانت الحشمة الزوجية تخفي هذا الأمر. وقد لاحظ الدكتور «لاغاش» أن المرأة قد تنظر إلى عضو الذكر كمؤونة لذة خاصة بها وتحرص على مراقبتها.

إن الإرواء الوحشي للحاجة لا يكفي لإرواء الغريزة الجنسية الإنسانية. لذلك يختفي وراء الضمات والقبلات الشرعية شيء من الفجور، بل كثيراً ما تستعين المرأة بتصورات مهيجة.

يروي ستيكل قصة امرأة تشعر باللذة مع زوجها إذا تخيلت رجلاً أقوى منه بنية وأكبر سناً يأخذها، دون أن تطلب إليه ذلك، بصورة لا تستطيع الدفاع عن نفسها. وتتصور أنها ضحية لاعتداء، وأنها تتعرض للضرب وأن زوجها شخص آخر.

وتراود الزوج أحلام مماثلة فيتصور في صدر امرأته صدر إحدى الراقصات كل جزء من جسمها يعيده إلى صورة أو ذكرى ...

يقول ستيكل: «لا يخلق الزواج بين الشريكين انحرافات وتمثيليات تهدد بقطع كل فاصل بين الحقيقة والخيال» وفي نهاية الأمر ينشأ عند الرجل والمرأة فجور واضح، يأخذ أحياناً في الزواج شكلاً منظماً جدياً. والحقيقة أن الحب الجسدي لا يمكن اعتباره غاية مطلقة أو مجرد وسيلة.

* * *

لا تعد البورجوازية الفتاة بالحب، بل تلوح لها بالسعادة على أنها الهدف الأمثل. وفي بعض فترات البحبوحة والأمن، كان هذا المثل الأعلى عاماً عند البورجوازية وخاصة الملاكين العقاريين. ولم يكن ليستهدف التطلع على المستقبل، بل المحافظة على الماضي. والحياة المفضلة هي الحياة العادية التي ليس فيها طموح أو هوى، وأيام تتوالى دون هدف وتتكرر دائماً على الوتيرة نفسها؛ حياة تسير إلى الموت سيراً هادئاً دون أن تبحث لنفسها عن أسباب ومبررات.

لقد فقدت هذه الحكمة المزورة المستوحاة من زينون أهميتها في هذا اليوم. فإبقاء
 العالم على ما هو عليه أمر غير ممكن وغير مرغوب فيه. والرجل خُلق للعمل، وينبغي له أن

يناضل وينتج ويبدع ويسمو بنفسه نحو كلية الوجود ولا نهائية المستقبل. بيد أن الزواج يناضل وينتج ويبدع ويسمو بمسمو بمسمو بالرجل، بل يتركها في حالة الجمود؛ فلا يبقى التقليدي لا يتيح للمرأة فرصة الانطلاق مع الرجل، بل يتركها في حالة الجمود؛ فلا يبقى التعليدي د يبيح للمراد لر -أمامها حينئذ إلا تبني حياة متوازنة حاضرها يمدد الماضي ويتحرر من تهديد المستقبل.

وإذا لم تكن محبة لزوجها فإنها تحس بالحنان والاحترام المسمى بالحب الزوجي. ر. م على أدارته. على أنه فتنقطع عن العالم لتخلد النوع البشري بين جدران المنزل الذي تسهر على إدارته. على أنه فالبورجوازي كان يعتقد سابقاً أنه إذا حافظ على النظام القائم وأبرز فضائله بنجاحه هو الذي يلعب دور الوسيط بين فرديتها والعالم. وليس عليها إذن إلا أن تضع كيانها بين يديه ليعطيه هو المغزي.

المرأة ملكة في الدار، ناعمة بالهدوء والاستقرار، أما الزوج هو الذي يتكفل بحملها خلال العالم والزمان اللامتناهي. المرأة زوجة وأم وسيدة بيت تجد في الزواج القوة على العيش ومغزي للحياة.

إنما ينبغي لنا أن نرى كيف يتحقق هذا المثل الأعلى في الواقع:

كان المثل الأعلى للسعادة ممثلاً دائماً في المنزل قصراً كان أم كوخاً. بين جدرانه تتشكل الأسرة كخلية منعزلة تؤكد هويتها عبر الأجيال المتقلبة. أما الماضي فيتخذ شكل أثاث ورسوم للأجداد ليجسد سلفاً مستقبلاً غير محفوف بالمخاطر. وتتطلع إلى الحديقة لترى تقلب الفصول الرتيب، فلا الزمان ولا المكان يطلان على اللانهاية بل يدوران في

وفي كل حضارة تسند إلى المُلكية العقارية نرى آداباً تتغنى بفضائل المنزل. فقصة «هانري بوردو» «البيت» تلخص كل القيم البورجوازية: الإخلاص للماضي، الصبر، التوفير، حب الأسرة ومسقط الرأس.

أما اليوم فقد فَقَدَ المنزل البهجة السالفة ولم يعد بالنسبة إلى كثير من الرجال سوى مسكن لا يكتظ بالذكريات السالفة ولا يقيد العصور المقبلة. على أن المرأة لا تزال تبذل جهدها لتضفي على منزلها المغزى والمعنى اللذين كانا للبيوت الحقيقية.

هذه العناية خاصة بالنساء. فالرجل الطبيعي لا ينظر إلى الأشياء المحيطة به إلا على أنها أدوات ووسائل فيضعها بحسب ما خُصَّصت له. إن تنظيمه - الذي لا ترى فيه المرأة إلا نوعاً من الفوضى - هو أن تكون سجائره وأوراقه وأدواته تحت متناول يده.

ونرى الشيء نفسه عند الفنانين خاصة. فالنحاتون والرسامون الذين يقع على عالى عالم عالى عالم عالى عادة تنظيم العالم لا يبالون بالإطار الذي يعيشون فيه.

ركتب الريلكه» عن الرودان»: الله زرت رودان أول مرة فهمت أن المنزل لم يكن بالنسبة إليه سوى ضرورة بسيطة: إنه ملجأ ضد البرد وسقف ينام تحته. كان يشعر باللامبالاة تجاه البيت الذي لم يكن قط يؤثر في وحدته واعتكافه. أما بيته الحقيقي فكان ضمن ذاته».

إن من يبتغي أن يجد مأواه ضمن ذاته ينبغي أن يكون صاحب مؤلفات وأعهال. والرجل لا يهتم إلا قليلاً بداخل المنزل، لأن الطريق إلى العالم كله مفتوح أمامه وبإمكانه أن يؤكد ذاته من خلال أهدافه ومشاريعه.

أما موقف المرأة تجاه المنزل فيعينه المنطق نفسه الذي يعين موقفها بصورة عامة، إنها تحيل نفسها إلى فريسة وتتحرر عن طريق التنازل.

لا توصد المرأة باب المنزل دونها وهي غير آسفة. كانت الأرض موطنها والغابات ملكاً لها لما كانت فتاة. أما الآن فهي محجوزة ضمن إطار ضيق. الجدران استحالت إلى مكان صغير مغلق بالنسبة إليها والجدران تسد الأفق أمامها.

فلنستمع إلى إحدى بطلات «وولف»: «لم أعد أُميّز الشتاء من الصيف إلا من البخار المتجمع على الزجاج. مع أني كنت فيها مضى أسرح في الغابات وأصادف في طريقي الأقاقين والرعيان».

لذلك تعمل المرأة على إنكار هذه الحدود المقيدة. فتستعيض بالرسوم عن الطبيعة، وبزوجها عن الجياعة البشرية. أما طفلها فيصور المستقبل تصويراً عملياً. هكذا يستحيل البيت إلى مركز للعالم بل يصبح حقيقته الوحيدة. فالبيت، مهما كان شكله يحميها من تهديد العالم الخارجي المبهم الذي يكاد يفقد واقعيته. وحين يحل المساء وتغلق نوافذ بيتها

تحس بنفسها أنها ملكة. إنها تنزعج من ومض النور في النهار وتنكر كل ما لا تملك في الليل.

تجد المرأة في زينة البيت تعبيراً عن شخصيتها. فالبيت نصيبها المخصص لها في هذا في هذا العالم، وهو أيضاً تعبير عن قيمتها الاجتهاعية وحقيقتها الداخلية. وإنها تتأكُّد من ي المنتخواذها على بيتها عن طريق العمل المنزلي. فتراها تصدر تعليهاتها إلى الخدم آمرة ناهية كي تُنسب إلى نفسها ما ينجزه الخدم. ومن مهامها أيضاً السهر على الغذاء واللباس والعناية بمجتمع الأسرة بصورة عامة. هكذا تحقق المرأة ذاتها كنشاط. لكنه نشاط لا ينتشلها من جمودها ولا يسمح لها بتأكيد فرديتها.

هناك أشعار كثيرة تتغنى بالأعمال المنزلية. من الصحيح أن المرأة تقف، نتيجة لهذه الأعمال، وجهاً لوجه مع المادة وأنها تحقق مع الأشياء نوعاً من الألفة التي تغنى ذاتها. تصف «مادلين بوردوكسي» ما تشعر به البطلة من لذة وهي تنظف فرنها في قصة: «البحث عن ماري، بقولها: إنها تحس بالحرية والقدرة في نهاية أصابعها ... وتحدثت كاتبات عديدات بشغف عن الغسيل المكوي وبريق ماء الصابون والشراشف البيض والنحاس البرَّاق. وبعد أن تنتهي ربَّة المنزل من عملها تشعر بفرحة التأمل. ومن الضروري أن تكرس المرأة عنايتها بمنزل تزهو به كي تحس أنها تغني نفسها إغناءً إيجابياً، وإلا فإنها لا تتعرف مطلقاً على لذة التأمل الذي يكافئ جهودها.

وصف أحد الأميركيين، بعد أن قضى عدة شهور مع البيض الفقراء في جنوبي الولايات المتحدة، مصير إحدى النساء المرهقات بالعمل والتي تعمل عبثاً على جعل مسكنها الحقير صالحاً للسكن. كانت تعيش مع زوجها وأولادها السبعة في كوخ خشبي مغطى بالأوساخ وزاخر ببق الفراش. حاولت دون جدوى أن تجعل بيتها جميلاً، ولكن بقى لها نفس الكوخ الحقير. فقالت والدموع تنهمر من عينيها: «لشد ما أبغض هذا البيت، يبدو أن لا شيء في العالم يجعله جميلاً».

لقد كُتب على كثير من النساء في العالم التعب الدائم المتركز في معركة لا تؤدي إلى انتصار. إن نفس المرأة تذوب وهي تمشي في مكانها. إنها لا تفعل سوى الإبقاء على الحاضر ولا تشعر أنها تعمل خيراً إيجابياً بل تحس أنها تكافح الشر دائماً. وهذه المعركة تتكرر كل يوم.

إن قصة الخادم الذي رفض تلميع حذاء سيده معروفة. إذ قال لنفسه: لماذا أعذب نفسي ... ما دمت سأعاود العمل نفسه في الغد. وثمة فتيات كثيرات من اللواتي لم يرضخن لمصيرهن يشعرن بنفس اليأس. وهذا يذكّر بموضوع كتبته تلميذة في السادسة عشرة استهلته بها يلي:

«اليوم مخصص للتنظيف والترتيب. إن صوت المكنسة الكهربائية يصل مسامعي، إن نفسي تدفعني إلى الهرب، لن يكون في بيتي حينها أصبح امرأة كبيرة، يوم للتنظيف والترتيب».

يواجه الطفل المستقبل كارتقاء دائم نحو قمة مجهولة. وحينها ترى الطفلة أمها وهي تغسل الصحون في المطبخ تفهم بغتة أن يدي أمها تغطس في ماء الغسيل كل يوم وفي الساعة نفسها. وستبقى خاضعة للطقوس نفسها حتى الموت.

لا شيء سوى الأكل والنوم والتنظيف. السنوات لا تسير صعوداً إلى السهاء بل تمتد رتيبة على صفحة أفقية منبسطة. كل يوم يقتدي بسابقه. إنه حاضر أبدي عقيم لا أمل منه ولا رجاء.

وصفت «كوليت أودري» وصفاً ماهراً عقم النشاط الذي لا يستطيع شيئاً أمام الزمن: «في اليوم التالي، عَثَرَتْ على شيء وهي تكنس تحت المقعد الكبير، فحسبته أول الأمر قطعة قطن أو وبرة ضخمة. ولكن لم يكن سوى كرة من الغبار، من النوع الذي يتجمع فوق الخزن المهملة أو خلف قطع الأثاث بين الخشب والحائط. وبقيت ساهمة أمام هذه المادة الغريبة. هكذا انقضت ثهانية أو عشرة أسابيع وهي تعيش في هذه الدار. ورغم عناية جولييت، أتيح لكرة من الغبار أن تتشكل وتتضخم وهي قابعة في الظلام. هذه الذرة الصغيرة من الغبار تُنبئ عن الإهمال، عن بداية التخلي. على أن هذه الكرة كانت تمثل وضعاً ثانياً، للغبار المنتصر.

حياتهما المشتركة هي السبب في كل شيء. إنهما مثل غيرهما من الأزواج، يفرزان الأقذار التي يجب التخلص منها ليفسح المجال أمام غيرها. يا لها من حياة ! ... كل ذلك في سبيل أن يظهر زوجها المهندس حسن الهندام.

كانت ثمة عبارات تتوارد في رأس مارغريت: «اسهري على العناية بأرض الغرف، الله النحاس استعملوا ... أما هي فكانت مكلفة بالعناية باثنين من الكائنات حنى نهاية العمر".

الإنجاب، الكي، التكنيس ... هذا يعني إيقاف الموت وأيضاً الحرمان من الحياة. فالزمن في حركة واحدة يخلق ويهدم. أما ربّة البيت فلا تتلقى إلا الناحية السلبية. إن عارض ي عرف و موقفها شبيه بموقف المانوي الذي يؤمن بوجود مبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر. مع العلم أن الخير يبلغ بالقضاء على الشر وليس بعمل إيجابي. أما المسيحية فليست كالمانوية رغم وجود الشيطان؛ لأن الإنسان إذ ينذر نفسه للرب يحارب الشيطان بأحسن طريقة.

إن كل مذهب يقول بالتجاوز والحرية يربط قهر الشر بالتقدم نحو الخير. إلا أن المرأة غير مدعوة إلى بناء عالم أفضل. فالبيت والغرفة والثياب الوسخة كلها أشياء جامدة. وليس باستطاعة المرأة إلا أن تطرد طرداً دائماً مبادئ الشر التي تنزلق إلى هذه الأشياء. فتهاجم البقع والغبار والطين، وتحارب الخطيئة، وتناضل ضد الشيطان. ومن المحزن أن تلتفت المرأة التفاتاً دائهاً إلى محاربة عدو بدل أن تتجه نحو أهداف إيجابية. وقد تصل إلى حد الهوس فتقيد حريتها برغبة ما لا تريد، فتحمل على الغبار بغضب. لا يكاد أحدهم يدخل ميدانها حتى تبرق عيناها: «امسح رجليك، لا تلمس هذا». حتى أنها قد تفقد كل بهجة في الحياة وتصبح قاسية العينين، ويبدو وجهها منهمكاً كل الانهماك، دائم التأهب. وتذود عن نفسها بالحيطة والبخل فتغلق النوافذ لأن الحشرات والغبار تدخل مع الشمس؛ ثم إن الشمس تأكل وبر السجاد ... إن بغضهن الأوساخ لا ينفصل عن بغضهن للخدم وكل البشر وأشخاصهن بالذات.

وعلى كل حال، ليس هناك سوى نساء قليلات يخترن منذ شبابهن مثل هذه الأخلاق المكفهرة، لأن النساء اللواتي يحببن الحياة لا يعرفن ذلك. تقول كوليت: اكانت نظيفة متقززة لكنها كانت بعيدة عن الهوس الذي يدفع إلى عدّ المناشف وقطع السكر

إن الباردات والمصدومات من النساء يصبحن حقودات عصبيات المزاج. وقد تعرفت إلى سيدة عجوز من عادتها أن تستيقظ كل صباح في الساعة الخامسة لتفتش خزائنها

وتعيد ترتيبها. يبدو أنها كانت امرأة مرحة في شبابها. إلا أنها مالت نحو الترتيب كما يقبل البعض على الشرب نظراً إلى انفرادها في مكان معزول مع زوج مهمل وولد وحيد.

أما «ليزا» التي يتحدث عنها «جوهاندو» فينجم ميلها إلى العمل المنزلي من رغبتها الجامحة في بسط سيطرتها على عالم ما، ومن إرادة للتسلط تدور في الفراغ لعدم وجود مجال لها، إنه نوع من التحدي للزمان والعالم والحياة والرجال والكائنات كلها.

«ماذا تفعل ليزا منذ نهوضها حتى نومها؟ إنها تزحزح كل غرض وكل أثاث وتلمس كل زاوية من أرض الغرف وجدرانها وسقوفها. تقول عنها أمها أنها منهمكة جداً حتى أنها لا تشعر بوجود شخصها».

يتيح العمل المنزلي في الواقع للمرأة فرصة الهروب الدائم والابتعاد عن ذاتها. أو كما يقول «شاردون»: «إنها تبلغ حالة من الفراغ الذهني تقضي عليها».

لهذه القسوة التي تلاحق المرأة بها الأشياء ونفسها طابع جنسي غالباً. ومن الواضح أن حس النظافة يأخذ أهمية بالغة في هولندا لأن نساءها يتصفن بالبرود. وللحضارات المتمسكة عادة بالطهر والتي تحارب لذائذ الجسد مَثَل أعلى يقوم على النظام والطهارة. ولا تعيش بلاد جنوبي أوروبا في جو من القذارة المرحة بسب قلة المياه، إن حب الجسد وحيوانيته يقود إلى تحمل رائحة البشر والقذارة.

* * *

إن إعداد الطعام عمل أكثر إيجابية ومرحاً من التنظيف. فهو يتطلب أولاً الخروج إلى السوق. وهذه هي الفترة المفضلة في الحياة اليومية بالنسبة إلى كثير من ربّات البيوت. لأن الوحدة ثقيلة على المرأة وخاصة أن الأعمال المألوفة لا تشغل بالها. فهي تشعر بالسعادة، في المدن الجنوبية، لأنها تستطيع أن تخيط وتغسل وتُحضر الخضار على عتبة الباب وهي تثرثر.

رأيت قرية صغيرة واقعة في منطقة القبائل في الجزائر، حطمت فيها النساء عين الماء التي بُنيت في الساحة. لأن النزول كل صباح إلى النبع المنساب في سفح التل كان التسلية الوحيدة بالنسبة إليهن.

والنساء حين يتسوقن البضائع يتبادلن عبارات يؤكدن بواسطتها «قيماً منزلية»، حيث تجد كل واحدة منهن معنى الأهميتها. ويشعرن أنهن أعضاء مجتمع يجابه مجتمع الرجال. والشراء خاصة يشكل لذة عميقة؛ إنه يكاد يعادل الاختراع. فبين البائع والمشترية تتكون علاقات صراع وتحايل. والمشترية تحاول أن تحصل على أحسن بضاعة بأرخص سعر. إن الأهمية القصوى التي تضفى على توفير بسيط جداً الا يمكن تفسيرها بالحرص على توازن الميزانية، بل إن هدف المرأة هو أن تخرج رابحة. فحينها تتفحص البضاعة المعروضة تصبح ملكة، العالم تحت قدميها بثرواته ومصائده كي تأخذ فريستها. وهي تحس بظفر عابر حينها تفرغ على طاولتها كيس المؤن. وعلى الرف تصف العلب المحفوظة كضهان ضد المستقبل وتتأمل بانشراح الخضار واللحم التي ستخضعها لسلطانها.

لقد قضى الغاز والكهرباء على سحر النار؛ إلا أن النساء في الأرياف ما زلن يعرفن بهجة الحصول على اللهب الحي من الخشب الجاف. ولا تكاد النار تشتعل حتى تصبح المرأة ساحرة. وبحركة بسيطة من يدها أو بسحر النار تُجري تحولاً على المواد وتصبح المادة غذاء.

تصف «كوليت» هذه العمليات السيميائية بقولها: «إن جواً من السحر والألغاز يجري بين لحظة وضع القدر وما فيها على النار، ولحظة رؤية الإناء على الطاولة والدخان يتصاعد منه».

وقد تغنت الكاتبات بشكل خاص بصنع المربيات: إنه لمشروع ضخم أن يمزج الإنسان السكر الجاف الصافي بالفواكه. إن المادة المزبدة المحرقة التي تتولد تدريجياً خطيرة. وإن ربّة المنزل تسيطر على هذه المادة الشبيهة بحمم البراكين ثم تصبها في النهاية في الآنية وهي مزهوة. ويمكن للمرأة أن تشعر بارتياح خاص حين تنجح في إعداد الفطائر لأن الجميع لا يحسنون ذلك بل يجب أن يكون هناك موهبة. كتب «ميشيليه» قائلاً: «لا شيء أصعب من فن المعجنات».

ونرى في هذا الميدان أيضاً، أن الفتاة الصغيرة تتسلى في اقتداء من هنّ أكبر منها. إنها تحس بسعادة بالغة حين تحصل على فرن صغير حقيقي كلعبة وحينها تقبلها أمها في المطبخ وتسمح لها برق العجين.

إلا أن الوضع هنا مثل الوضع في العناية بالمنزل، فالتكرار سرعان ما يستنزف اللذة. فعند الهنود الذين يتغذون خاصة بنوع من المعجنات تمضي النساء نصف يومهن وهن يعجن ويقلين ويعجن من جديد، كل يوم تحت سقف، بالطريقة نفسها خلال العصور: إنهن لا يشعرن أبداً بسحر الفرن. ولا يمكن أن تحوّل كل يوم عملية الشراء إلى عملية بحث عن كنز؛ أو الشعور بالنشوة أمام لمعان الحنفية. إن الرجال، والكاتبات خاصة، هم الذين يتغنون بصورة شعرية بهذه الانتصارات لأنهم لا يقومون بالأعمال المنزلية أو أنهم يقومون بها نادراً. إن هذا العمل اليومي يصبح رتيباً وآلياً، لأن فترات الانتظار تتخلله: يجب انتظار الماء حتى تغلي وانتظار الغسيل حتى يصبح نظيفاً. ولو عملت المرأة على تنظيم عدة مهام معاً لبقي لها لحظات طويلة من السلبية والفراغ. هذه اللحظات تفسح المجال عدة مهام معاً لبقي لها لحظات طويلة من السلبية والفراغ. هذه اللحظات تفسح المجال أمام الضجر، ولا تشكل سوى وسيط غير جوهري بين الحياة الآنية وحياة الغد. فإذا كان الشخص الذي يقوم بها منتجاً مبدعاً اندمجت في تاريخ وجوده اندماجاً طبيعياً مثل الوظائف العضوية. لذلك تبدو السهرات اليومية أقل كآبة حين يقوم بها الرجال لأنها لا الوظائف العضوية. لذلك تبدو السهرات اليومية أقل كآبة حين يقوم بها الرجال لأنها لا الوظائف العضوية. لذلك تبدو السهرات اليومية أقل كآبة حين يقوم بها الرجال لأنها لا الوظائف العضوية. لذلك تبدو السهرات اليومية أقل كآبة حين يقوم مها الرجال لأنها لا المنابة إليهم سوى لحظات سلبية عابرة يتعجلون الخلاص منها.

إن ما يجعل مصير المرأة - خادمة جافاً، هو تقسيم العمل الذي يكرسها تكريساً تاماً لم هو عام وتافه. فالسكن والغذاء أشياء مفيدة في الحياة، إلا أنها لا تجعل الحياة ذات مغزى. والأهداف المباشرة لربة المنزل هي وسائل مادية وليست غايات حقيقية. فليس عجيباً أن تحشر المرأة فرديتها كي تستسيغ عملها، لذلك تتبنى لنفسها طقوساً وأفكار خاصة، وتتمسك بطريقتها في إعداد المائدة وترتيب البهو وطبخ أكلمة ما، كها تقنع نفسها أن ما من امرأة سواها تستطيع إعداد الشواء مثلها. أما إذا حاول زوجها أو ابنتها مد يد المساعدة إليها، فإنها تسحب منهها المكنسة أو الإبرة قائلة لا يستطيع أحدكم خياطة زر.

إن المرأة تبدد كثيراً من الزمن وتهدر كثيراً من الجهد في محاولتها البحث عن الأصالة والكهال الفردي. لذلك يصعب تقدير عبء الأعهال المنزلية تقديراً دقيقاً. وبحسب تحقيق نشرته جريدة «كومبا» عام 1947، يبدو أن النساء المتزوجات يخصصن ثلاث ساعات و 45 دقيقة تقريباً للعمل المنزلي وملحقاته في أيام العمل؛ أما في أيام العطل فيخصصن ثماني ساعات. فيبلغ المجموع ثلاثين ساعة في الأسبوع أي ما يعادل ثلاثة أرباع مدة

العمل الأسبوعي للموظفة أو العاملة. هذا كثير لا سيما إذا كان للمرأة عمل آخر، وقليل إذا كان عملها الوحيد.

والعناية بالأطفال، إذا كانوا عديدين، تزيد كثيراً من متاعب المرأة. والأم الفقيرة تستنفد قواها في أعمال غير منظمة. أما البورجوازية التي تعتمد على المساعدة فتكاد تكون عاطلة تماماً؛ مما يدفعها إلى الضجر. ونتيجة لذلك: تعقد نساء كثيرات واجباتهن ويضاعفنها إلى ما لا نهاية بصورة تصبح معها هذه الواجبات أكثر من العمل الاختصاصي.

وأكثر ما يحزن في الأمر، أن هذا العمل لا يؤدي إلى شيء دائم. فالمرأة تميل إلى اعتبار عملها كافياً في حد ذاته. لذلك تتأمل الفطائر الخارجة من الفرن وتصدر الأهات: من المؤسف أكل هذه الفطائر. ومن المؤسف أيضاً أن الزوج والأطفال سيوسخون الغرفة بأقدامهم... إن الأشياء، إذا ما استُعملت، تتوسخ أو تتحطم. لذلك تراودها نفسها كي تحول دون استعمالها.

هذه تحفظ المربيات حتى يحل بها العفن؛ وتلك تقفل باب البهو بالمفتاح. لكن من المستحيل إيقاف عجلة الزمن فالمؤن تجتذب الفئران، كما أن الديدان تبيض فيها. ليس العالم حلماً متحجراً جامداً، بل هو مادة معرضة للتحلل. إن ربة المنزل التي تخلع ذاتها على الأشياء معلقة مثل الأشياء بالعالم كله. الشواء يحترق والزجاج ينكسر؛ وهذه مصائب مطلقة لأن الشيء الذي ينكسر يضيع إلى الأبد، لذلك لا يمكن الوصول من خلالها إلى الديمومة والاستقرار.

على نتاج العمل المنزلي أن يندثر بالاستعمال. ويطلب من المرأة أن تتنازل دائماً عن أعهالها التي لا تنتهي إلا بالضياع والخراب. وكي تضحي بها غير آسفة، ينبغي لها أن تحس بومضة الفرح أمام هذه التضحيات الصغيرة. ولما كانت نتيجة العمل المنزلي تثبيت الوضع القائم فإن الزوج يلاحظ حين عودته الفوضى والإهمال؛ بينها يبدو له النظام والنظافة أشياء طبيعية. وهو يهتم بصورة أكثر إيجابية بالطعام المعد إعداداً حَسَناً. ولحظة انتصار الطباخة هي حين تضع على الطاولة طبقاً ناجحاً فيتقبله الزوج والأولاد بحرارة، لا بالكلمات فقط، بل بالإقبال عليه والتهامه بفرح أيضاً. إن عمل الطباخة لا يجد حقيقته إلا في فم المدعوين. هذه الحقيقة تتطلب منهم أن يذوقوا الأطباق ويعربوا عن رأيهم. ولئن

كانت الزوجة تريد إسعاد زوجها فإنها أمْيَل إلى الموافقة على النشاطات التي تدخل في نطاق ما تبنيه هي نفسها من سعادة.

انقضت العصور التي كانت تتميز بشمول هذه الرغبات. فقد كانت السعادة المَثَل الأعلى للرجل، ويجدها قبل كل شيء في ارتباطه ببيته وأسرته. أما الأولاد فكانوا يرضون بالتكف تبعاً لأهلهم وتقاليدهم وماضيهم. وكانت المرأة سيدة البيت ورئيسة الطاولة مثل الملكة. وهي لا تزال تلعب هذا الدور في أوساط بعض الملاكين العقاريين، وبعض الفلاحين الموسرين الذين يمددون الحضارة الأبوية بصورة متقطعة.

على أن الزواج اليوم هو في الغالب من بقايا العادات؛ ووضع الزوجة أصعب مما كان عليه من قبل. إذ لا تزال تتحمل نفس الواجبات دون أن يكون لها نفس الحقوق. كما لا تزال تقوم بنفس الأعباء دون أن تحصل على مكافأة وشرف نتيجة للنهوض بها. والرجل يتزوج اليوم لأنه يريد أن يكون له بيت، لكنه يحافظ على حريته في الهروب منه. إنه يستقر ولكنه يبقى أقاقاً في قرارة نفسه. كما أنه لا يحتقر السعادة ولكنه لا يجعلها غاية بذاتها. ويولد التكرار الملل في نفسه، فينشد التجديد والمخاطر ويبحث عن الصداقات التي تنتشله من العيش مع شخص واحد.

أما الأولاد فيتمنون أكثر من الزوج تجاوز حدود المنزل. وحياتهم تكمن في مكان آخر ... أمامهم. والمرأة تحاول أن تشكل عالماً من الديمومة والاستمرار على حين يريد الزوج والأطفال مجاوزة الوضع الذي تخلقه، هذا الوضع الذي لا يشكل بالنسبة إليهم سوى أحد المعطيات؛ لذلك قد تجنح المرأة إلى فرض خدماتها بالقوة.

إن العمل الذي تقوم به المرأة في الداخل يمنحها الاستقلال الذاتي لكنه لا يفيد المجتمع مباشرة ولا يطل على المستقبل ولا ينتج شيئاً. وهو لا يأخذ مكانته إلا إذا ألحق بكيانات تسمو نحو المجتمع بالإنتاج والعمل. إنه لا يحررها بل يجعلها معلقة بالزوج والأطفال. وهي لا تشكل في حياتهم سوى وسيط غير جوهري لأن وضعها يستند إلى تكوين الرابطة الزوجية نفسها.

لا يسمح للمرأة أن تقوم بعمل إيجابي وأن تفرض بالتالي نفسها كشخص كامل. ومهما كانت محترمة فإنها تبقى تابعة، ثانوية، طفيلية. وإن اللعنة الكبرى المحيقة بها تكمن

في أنها لا تمسك بمغزى وجودها بيدها. لذلك يعتبر النجاح أو الفشل في الحياة الزوجية في انها لا مست بمسرى ر.ر بالنسبة إليها أخطر. فالرجل مواطن منتج قبل أن يكون زوجاً؛ أما هي فإنها زوجة قبل

ينبغي لنا إذن أن نرى كيف تعيش في الواقع هذا الوضع الذي يتحدد بصورة جوهرية بخدمة السرير وخدمة الأعمال المنزلية؛ وحيث لا تجد مكانتها إلا إذا رضيت

تنتقل الفتاة من حالٍ إلى آخر يجعلها في أزمة. وينضم القلق المرتبط بالانتقال إلى الاضطراب الذي يحدثه الاطلاع الجنسي المفاجئ.

إن ارتباطات الفتاة بمنزل والدها أوثق من ارتباطات الشاب. ويتفاوت الانقطاع في حدة الألم بحسب الحالات. فإذا تمكنت من تحطيم الأواصر التي تربطها بوالدها وإخوتها وبأمها خاصة، فإنها تغادرهم دون مأساة. أما إذا بقيت خاضعة لهم فيمكن لها أن تبقى تحت سيطرتهم بصورة عملية، ولا يكون تغير وضعها ملحوظاً جداً.

ولئن كانت تتمنى الخلاص من بيت أبيها، فإنها تحس عادة بصدمة حينها تنفصل عن المجتمع الصغير الذي كانت مرتبطة به، وحينها تنقطع عن ماضيها وعالم طفولتها ذي المبادئ الأكيدة والقيم المضمونة، ذلك إن لم تنهمك في الحياة الجنسية. على أن الاطلاع الجنسي، سواء نجح أو لم ينجح، يميل في البداية إلى زيادة اضطرابها.

حين كانت فتاة تعيش في كنف أهلها محمية بسلطتهم، كانت تستعمل حريتها في الثورة والأمل، وفي رفض ومجاوزة حال ترى فيه في الوقت نفسه أمنها. كانت تسمو بنفسها نحو الزواج، لكن حينها تتزوج لا يعود أمامها مستقبل آخر. إن أبواب المنزل توصد من خلفها لتتركها مع حصتها في الدنيا. إنها تعرف جيداً ما هي الأعمال المخصصة

حين كانت فتاة كانت فارغة اليدين ولكنها كانت تملك الأمل والأحلام وكل شيء. أما الآن فلها زاوية محدودة في العالم، فتفكر حينئذ في قلق ولسان حالها يقول: ليس لي

سوى هذا إلى الأبد. إلى الأبد هذا الزوج وهذا السكن. إنها لا تعود تنتظر شيئاً أو تبتغي شيئاً مهماً !

إنها تخشى مع ذلك مسؤولياتها الجديدة. ولئن كان للزوج حنكة السن والتمتع بالسلطة فإن سحر نفوذه يزول مجرد كونها على علاقة جنسية معه. وهو لا يستطيع أن يحل محل الأب والأم خاصة. كها أنها تحس بالبرد يجري في أوصالها حين تجد نفسها وحيدة في منزلها الجديد مرتبطة برجل غريب عنها إلى حد ما مودعة حياتها كطفلة لتصبح زوجة، تُتب عليها أن تصير أماً بدورها؛ وتكتشف الضجر وسطحية الحياة حين تلفي نفسها منفصلة انفصالاً نهائياً عن كنف والدتها ضائعة في عالم لا يصور لها أي غاية أو هدف.

يبدو هذا القلق بصورة ملحوظة في مذكرات الكونتيسة تولستوي الشابة بعد ما قبلت بحماس الزواج من الكاتب الكبير الذي كان يثير إعجابها:

تزوجت صوفي في 23 أيلول/ سبتمبر، وفي المساء غادرت أهلها:

«كان يتحكم بخناقي شعور قاس مؤلم. وأحسست حينئذ أن لحظة مغادرة أسرتي وأحبائي ووالدتي إلى الأبد قد حلّت. وكانت اللحظات الأخيرة، لحظات الوداع، رهيبة جداً. وقد حرصت على أن تكون أمي آخر من أودع.

وما أن انتزعت نفس من ضمّاتها، وذهبت أحتل مكاني في العربة، دون أن ألتفت نحوها، حتى أطلقت صرخة لم أنسها طول حياتي.

كان مطر الخريف لا يكف عن الهطول. وأطلقت العنان لدموعي وأنا قابعة في الزاوية مرهقة بالجهد؛ مما أثار دهشة، بل استياء ليون. ولما خرجنا من المدينة شعرت بالرهبة وأنا في الظلام الدامس الذي كان يعصر نفسي عصراً. ولم نتبادل أية كلمة حتى وصلنا إلى أول موقف «بيريوليوف فيها أذكر» إلا أنه كان كثير الحنان والرعاية.

في بيريوليوف أعطونا الغرف المسهاة غرف القيصر، وهي كبيرة لا تجتذب النفس. ثم جلبوا لنا السهاور. وبقيت جالسة محافظة على السكون كالمحكوم عليها. قال لي ليون: ما بالك؟ هلا شرفتينا بالخدمة. فأطعت وقدمت الشاي. كنت مطيعة ولم أكن لأستطيع التحرر من بعض المخاوف؛ أو مخاطبة ليون دون تكلف، بل كنت أتجنب ذكر اسمه، وبقيت مدة طويلة أخاطبه بضمير الجمع».

بعد أربعة وعشرين ساعة وصلا إلى «باسنيافابولينا». وفي 8 تشرين الأول/ أكتوبر عادت صوفي إلى كتابة مذكراتها:

«كنت دائهاً أحلم بكائن كامل، غض، نقي أكرِّس له حبي ... إنه لصعب عليّ أن أن أخلى عن أحلام الطفولة».

وفي اليوم التالي دوّنت: «أشعر بالضيق. رأيت الليل الماضية أحلاماً مزعجة ورغم أني أطردها عن ذاكري فإني أحس بوطأتها في نفسي. رأيت أمي في الحلم، مما سبّب لي كثيراً من الضنى. ما أشبهني بالنائمة التي لا تستطيع الاستيقاظ. يبدو لي دائماً أني على أهبة الموت. هذا غريب ... كيف يحدث الآن بعد أن صار لي زوج. إنني أسمعه وهو نائم فأحس بالخوف وحدي. إنه لا يترك لي فرصة الدخول إلى ذاته وهذا الأمر يحزنني. وتبدو لي كل هذه العلاقات الجسدية مقززة».

11 تشرين الأول/أكتوبر: إلى الفظاعة! إنني أنطوي دائماً على نفسي. فزوجي مريض، سيئ المزاج ولا يجبني. كنت أنتظر ذلك إنها لم أكن أحسب أن ذلك سيكون بهذه الدرجة من البشاعة. من الذي يهتم بسعادتي؟ ما من أحد يشك في أني عاجزة عن تأمين هذه السعادة له ولنفسي. وقد أتساءل في ساعات حزني وشقائي بقولي: لماذا أعيش ما دامت الأمور سيئة بالنسبة إلى وبالنسبة إلى الآخرين؟ هذا غريب إلا أن هذه الفكرة تتسلط على يخيل إلى أنه يصبح أكثر برودة يوماً بعد يوم، أما أنا، بالعكس، فأز داد حباً له. إني أسترجع ذكرى أهلي فأشعر بالعجب؛ كم كانت الحياة خفيفة آنذاك! أما الآن فروحي مخزقة. يا إلمي! وما من أحد يغمرني بحبه ... أمي العزيزة ... أماه ... عزيزتي تانيا ... لكم كنتما لطيفتين!».

ولم غادرتها؟ هذا محزن، غيف. ومع ذلك فليوتشكا طيب جداً. فيها مضى كنت أقبل بلهفة على الحياة والعمل. أما الآن فقد حل القضاء وانتهى الأمر. بوسعي البقاء صامتة أياماً كاملة وأنا متشابكة الذارعين مكررة السنين الخالية. كها أود أن أشتغل ولكن لا أقوى على ذلك. قديماً كان العزف على البيانو مصدر لذة لي، أما الآن فصار مصدر إزعاج. عرض علي ليوتشكا البقاء في البيانو أثناء ذهابه إلى نيولسكوي. كان ينبغي لي أن الجزء الثالث: أوضاء إلى أو الماء إلى المناء إ

أوافق لأحرر نفسي، إنها لم تكن لي القوة على ذلك. يا له من مسكين! إنه يبحث في كل مكان عن التسليات والمبررات كي يتجنبني. آه لماذا أنا على الأرض».

12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1863: «أقر بأني لا أعرف كيف أملاً فراغ وقتي. إن ليوتشكا سعيد لأنه يتمتع بالذكاء والموهبة. أما أنا فلا شيء لي منهما. ليس صعباً على المرء أن يجد شيئاً يعمله فالعمل متوفر. لكن يجب على المرء أن يتذوق هذه الأعمال الصغيرة يعتاد على محبتها: العناية بالحيوانات، قراءة الأشياء السخيفة كثيراً، والأشياء المهمة قليلاً جداً. لقد نمت نوماً عميقاً حتى أن سفرتنا إلى موسكو وانتظار ولادة طفل لم يسببا لي أي انفعال، أية بهجة، أي شيء. من يدلني على وسيلة تنبهني وتجعل الحياة تدب في أوصالي؟ إن هذه الوحدة تثقل كاهلي وأنا غير معتادة عليها. كان هناك في بيتنا نشاط وحركة. أما هنا فلا شيء خلال غيابه كل شيء عابس مكفهر. الوحدة أمر عادي بالنسبة إليه فهو لا يشعر مثلي باللذة مع أصدقائه، بل الإقبال على نشاطاته... فقد شب بغير عائلة».

23 تشرين الثاني/ نوفمبر: «صحيح أنني عاطلة، بغير نشاط، إلا أن هذه ليست طبيعتي، لا أعرف بأي عمل أبدأ. أحس أحياناً بالغربة الجامحة في التحرر من تأثيره... ما لي أرضخ لنفوذه! لم أعد كما كنت من قبل مما يجعل حياتي في غاية المشقة».

1 نيسان/ إبريل: «عيبي الكبير أني لا أجد ذخراً في نفسي. إنه منهمك جداً في أعماله وفي إدارة أطيانه، أما أنا فلا هم لي إطلاقاً، ولا أتمتع بأية موهبة. لكن أود أن يكون لي شاغل ... إنها أبغي عملاً حقيقياً. فيها مضى، في مثل أيام الربيع الجميلة هذه، كنت أحس بالحاجة إلى شيء ما، بالرغبة في أمر ما. ولا يعلم إلا الله فيم كنت أفكر وأحلم. أما اليوم، فلا أحتاج إلى شيء. لم أعد أحس بهذا الميل السخيف المبهم إلى المجهول؛ لأنني بعدما وجدت كل شيء لم يعد أمامي شيء أبحث عنه».

20 نيسان/إبريل: "يزداد ليون بُعداً عني يوماً بعد يوم. إن الناحية الجسمية من الحب تلعب لديه دوراً كبيراً جداً أما بالنسبة إليّ فلا دور لها إطلاقاً».

نرى أن المرأة الشابة تعاني من فراق أهلها ووحدتها، ومن الشكل النهائي لمصيرها وتحس بالملل خلال الأشهر العشرة الأولى. وقد أحست «كوليت» بنفس الملل حتى بلغت حد ذرف الدموع بعد زواجها الأول الذي فرضه إخوتها عليها.

وقد وصف «مارسيل برينو» في «رسائل إلى فرنسواز المتزوجة» حيرة المرأة الشابة وارتباكها بعد عودتها من رحلة العرس:

وارتباكها بعد عود به من طراز نابليون الثالث، وبكل ما فيه من قديم انها تفكر في بيت أهلها، بأثاثه من طراز نابليون الثالث، وبكل ما فيه من قديم مضحك. كل ذلك ينطبع على صفحة ذاكرتها لحظة كملجاً فعلي، كعش حقيقي، حيث مضحك. كل ذلك ينطبع على صفحة التقلبات والأخطار. أما هذا المنزل برائحة السجاد احتضنها الحنان الصرف في معزل عن التقلبات والأخطار. أما هذا المنزل برائحة السجاد المتصاعدة فليس عشاً حقيقياً. إنها تحس بنفسها حزينة، حزينة جداً، كما لو كانت متروكة في الصحراء.

ينشأ عند المرأة الشابة اعتباراً من هذه الحيرة مزاج سوداوي. وهي تشعر خاصة بدوامة حريتها الفارغة. يسوق «بيير جانيه» حكاية المرأة المتزوجة التي لم تكن تستطيع البقاء وحدها في المنزل، لأنها كانت تحس بنفسها تغريها وتدفعها إلى التطلع من النافذة وإلقاء النظرات على المارة.

ومن النساء من يصررن على رفض وضعهن كنساء بالغات مدى الحياة. مثلاً حالة المدعوة ك. ي. التي يرويها «جانيه»:

دك. ي، امرأة في السادسة والثلاثين تتسلط عليها فكرة ثابتة مفادها أنها فتاة صغيرة يتراوح عمرها بين العاشرة والثانية عشرة، لا سيها حينها تكون وحيدة. فتقفز وتضحك وترقص وتحل شعرها وتتركه ينسدل ويتموج على كتفيها وتقصه جزئياً على الأقل. وهي تتمنى أن تنساق مع هذا الحلم: (من المؤسف أنني لا أستطيع أن ألعب لعبة التخفي أمام جميع الناس ... أود أن يجدوني لطيفة. أخاف أن أكون دميمة وأرغب أن يقولوا لي إنهم يجبوني كها يحبون الأطفال الصغار. الطفل الصغير محبوب لطيبة قلبه ودعاباته ... وماذا يطلب منه لقاء ذلك؟ أن يكون محبوباً ... لا شيء أكثر من ذلك. إلا أنني لا أستطبع مفاتحة زوجي فهو لا يفهمني. انتبهوا مثلاً ... أود كثيراً أن أكون صغيرة وأن يكون لي أب وأم أجلس على ركبتيها ويداعبان شعري ... ولكن لا ... أنا سعيدة .. وأم لأطفال. يجب أن أعنى بداخل المنزل وأن أكون جدية وأن أفكر لوحدي. آه يا لها من حياة)».

وغالباً ما يشكل الزواج أزمة بالنسبة إلى الرجل. ولا أدل على ذلك أن كثيراً من الاضطرابات النفسية تنشأ في فترة الخطوبة وفي الأيام الأولى من الحياة الزوجية. ولئن كان

أقل ارتباطاً بالأسرة من أخواته فإنه يكون عادة تابعاً لجماعة ما؛ كالمدرسة أو الجامعة أو ورشة العمل أو زمرة رفاق يشعر معهم أنه غير مهمل. إنه يغادر هذه الجماعة ليبدأ حياته الجديدة كرجل بالغ. فهو يخشى العزلة في المستقبل ويتزوج غالباً ليتجنبها.

باستثناء فترة تأجج الحب القصيرة، لا يمكن لشخصين فقط أن يشكلا عالماً مجميها أمام العالم. هذا هو شعور كليهما بعد الزفاف. فالمرأة لا تخفف عن الرجل عبء مسؤولياته بل على العكس تزيدها. ويكون من نتيجة اختلاف الجنس اختلاف في السن والتربية والوضع؛ مما لا يسمح بأي تفاهم حقيقي. وإن كان الزوجان متآلفين فإنهما يبقيان غريين عن بعضهما بعضاً. وفيها مضى كان بين الطرفين هوة عميقة دائهاً. فالفتاة الناشئة في جو من الجهل والبراءة لم يكن لها أي ماضٍ؛ في حين أن خطيبها يختبر الحياة وعليه أن يقوم هو باطلاعها على حقيقة هذه الحياة.

ومن الذكور من يشعر بالزهو إزاء هذا الدور الدقيق. أما إذا كان الرجل أكثر تبصراً فإنه يقيس المسافة بينه وبين رفيقته المقبلة بشيء من القلق.

وصفت «أديت وارتون» مخاوف شاب أميركي من جيل 1870 أمام المرأة المخصصة له:

المرح لهذه المخلوقة الشابة التي كانت على أهبة وهب نفسها له. كانت هذه الحصيلة الرهيبة للنظام الاجتهاعي تبدو له الآن كأنها أجنبية ... ماذا كان يعرف أحدهما عن الآخر ما دام من واجبه، كرجل مهذب أن يخفي ماضيه عن خطيبته، ومن واجبها أن لا يكون لها أي ماضي؟ أما الفتاة، وليدة نظام التعمية المعد بإتقان، فكانت بسبب صراحتها وصفائها تبدو كلغز معقد جداً. كانت صريحة لأنه لم يكن لديها شيء تخفيه؛ وواثقة لأنها لم تكن تتصور أن عليها أن تلزم جانب الحيطة والحذر. وكانت مضطرة، دون أي تمهيد، على أن تنغمس في ليلة واحدة فيها يسمى (حقائق الحياة ...).

بعدما حوم مائة مرة حول هذه الروح البسيطة، ارتد مثبط الهمة لما أدرك أن هذا الصفاء الصناعي، المعد إعداداً ماهراً بفضل تآمر الأمهات والعمات والجدّات المتزمتات، لم يوجد إلا ليلبي ذوقه الشخصي وكي يهارس عليها حقه كسيد ويحطمها كما يحطم تمثال من ثلج».

إن الهوة اليوم أقل عمقاً؛ فقد صارت الفتاة أقرب إلى الطبيعة وأكثر اطلاعاً وأحسن استعداداً وتأهباً للحياة.

وكثيراً ما تكون المرأة مثل الطفلة، لأنها فعلاً صغيرة جداً بالنسبة إلى زوجها.

كتبت صوفي تولستوي: «إنني أبذل جهدي كي أكبح جماح وثبات الشباب»؛ لأنها تبدو تماماً في غير محلها في هذا الوسط المتعقل.

ويرى الزوج من جهته في امرأته «طفلة». إنها ليست بالنسبة إليه الرفيقة المنتظرة، وهو يشعرها بذلك فتحس أنها مذلولة. وليس من شك في أنها تريد أن تجد دليلاً مرشداً بعد خروجها من بيت أهلها، ولكنها تريد أيضاً أن يُنظر إليها على أنها شخص كبير. إنها تتمنى أن تبقى طفلة كها تريد أن تصبح امرأة. ولا يستطيع الزوج أبداً أن يعاملها بصورة ترضيها إرضاءً تاماً.

وحتى إذا كان فارق السن ضئيلاً فيجب أن لا ننسى أن الشاب والفتاة قد تلقيا تربية مختلفة. تخرج المرأة من عالم نسوي تلقت فيه الحكمة النسوية واحترام القيم النسوية. أما الرجل فيكون متشبعاً بأخلاق الذكور فيصبح صعباً عليهما أن يتفاهما في أغلب الأحيان ولا يلبث أن يحل النزاع بينها.

لما كان الزواج يلحق المرأة بالرجل بصورة طبيعية، فإن مسألة العلاقات الزوجية تطرح بشكل حاد بالنسبة إليها. ومن مفارقات الزواج أن له مهمة جنسية ومهمة اجتماعية في الوقت نفسه. وينعكس هذا الازدواج في صور الرجل كها تبدو للمرأة. فهو نصف إله يتمتع بنفوذ الرجولة وعليه أن يحل محل الأب كمدافع ووصي وموجّه؛ وينبغي للمرأة أن تترعرع وتتفتح في ظلاله لأنه حامل القيم وضامن الحقيقة. وهو في الوقت نفسه ذكر؛ على المرأة أن تشترك معه في تجربة، غالباً ما تكون مخجلة، بغيضة، غريبة ومزعزعة.

إنه يدعو زوجته إلى الولوغ معه في الحيوانية كما يوجهها في الوقت نفسه بقدم موطدة نحو المُثُل العليا.

قد يكون الرجل أحياناً أباً وعاشقاً فتصبح العملية الجنسية ذات طابع مقدس؛ ونجد الزوجة بين ذراعيه سلماً نهائياً تشتريه بخضوعها التام. إن مثل هذا الحب الذي يبلغ حد الجزء الثالث: أوضاع المرأة

الهوى نادر الوقوع في الحياة الزوجية. وقد تحب المرأة زوجها حباً عذرياً فترفض الاستسلام لهذا الزوج الذي تقدّره كثيراً.

مثال ذلك، الحالة التالية التي يسوقها ستيكل: «السيدة د. س. أرملة فنان كبير، لها من العمر الآن أربعون عاماً. ورغم أنها كانت تحب زوجها حتى العبادة فقد كان مصابة بالبرود معه».

وعلى العكس من ذلك قد تستطيع المرأة التعرف على لذة تتلقفها كانحدار مشترك تقتل فيها الاعتبار والاحترام.

إن ما يحدث غالباً أن الزوج يبقى بعد التجربة الجنسية حائزاً على الاحترام فتتغاضى المرأة عن ضعفه الحيواني. أو أنه يبقى رفيقاً ظريفاً ولكنه يفقد سحره. وقد وصفت «ك. مانسفيلد» هذا الازدواج:

«كانت تحبه حباً حقيقياً وتكنّ له الإعجاب والاحترام الشديد. وكانت تعرف أعهاق نفسه أكثر من أي شخص في العالم. فقد كان نموذجاً للصراحة والاحترام، وبقي بسيطاً ساذجاً يقنع بالقليل رغم ما له من تمرس عملي. لكن ليته لم يثب عليها وهو ينبح بشدة موجهاً إليها عينين نهمتين جداً مولهتين جداً.

كان يفيض بالقوة إلا أنها كانت منذ طفولتها تبغض الأشياء التي تُقبل عليها بسرعة. وكان مخيفاً في بعض الأحيان حتى كانت تهم بأن تصرخ بكل ما لها من قوة: تكاد تقتلني! وحينئذ تحس بالرغبة في قول أشياء مقيتة ... نعم ... نعم ... إن ذلك صحيح. رغم كل حبها وإقدامها وإعجابها كانت تبغض (ستانلي).

كانت كل أحاسيسها بالنسبة إليه دقيقة، واضحة، صحيحة. وهذا الشعور الآخر، هذا البغض كان هو أيضاً صحيحاً، وكانت تتمنى أن تقدم له هذه الأحاسيس بصورة هدايا ... وأن تقدم له هذا الشعور الآخر في النهاية كمفاجأة.

على أن المرأة تكون بعيدة جداً عن الإقرار بأحاسيسها أمام نفسها في مثل هذا الصدق. إن حب الزوج والتمتع بالسعادة أمران يتطلبهما المجتمع. وهذا ما تنتظره أسرة امرأة منها. Ļ

j

Ÿ

ij

نيا

į.

٠

ب

نب

إل

أن

ىل

1

K

فإذا كان أهلها معارضين في زواجها فإنها تصر على تكذيبهم فتحيا حياتها الزوجية ودا مان اسمه مدر من يوجها حباً عظيماً. وإن هذا الحب يأخذ شكلاً بسوء نية وتقنع نفسها طوعاً أنها تحب زوجها حباً عظيماً. وإن هذا الحب يأخذ شكلاً بسوء بية رئس ملك والغيرة كلما تناقص اكتفاء المرأة الجنسي. وتصبح لها حاجة متزايداً في الهوس والتملك والغيرة كلما تناقص اكتفاء المرأة الجنسي. سريد. ي سور لله الله المام الله المام الله المام المنه المن في البداية.

يذكر "ستيكل" أمثلة عديدة عن هذا التعلق المَرضي: "بقيت إحدى النساء في الأعوام الأولى من زواجها في حالة البرود نتيجة لتثبيت حالة الطفولة. فنشأ عندها حبّ من النوع الذي يُرى عند النساء اللواتي يرفضن إظهار عدم اكتراثهن بزوجهن. كانت لا تعيش إلا من أجل زوجها ولا تفكر إلا فيه. لم تعد لها أية إرادة. كان عليه أن يهيئ كل صباح البرنامج اليومي وأن يقول لها ما ينبغي لها شراءه.. فكانت تنفذ كل شيء بأمانه. وإذا لم يبين لها أية مهمة، تبقى في غرفتها دون أن تعمل شيئاً. كانت لا تستطيع أن تبقى وحدها بل تحب أن تمسكه بيدها. كانت تعيسة تذرف الدمع مدة ساعات وترتجف من أجل زوجها وإذا لم تكن هناك مناسبة خلقتها».

أما «صوفي تولستوي» فتريد أن يكون زوجها المحبوب بجانبها دائماً وحالما يبتعد عنها تعذبها سياط الغيرة. فقد كتبت:

11/1/1863: ﴿إِنْ غَيْرِي مُرْضُ وُلِدُ مَعِي. لَعَلَ ذَلَكُ نَاجِمَ عَنْ أَنْنِي أَحِبُهُ وَلَا أحب سواه، لذلك لا يمكنني أن أكون سعيدة إلا معه وبه».

و12/1/ 1863: «أود أن لا يفكر ولا يحلم إلا بي وأن لا يحب أحداً سواي. لا أكاد أقول لنفسي أحب أيضاً هذا الشيء أو ذاك، حتى أتراجع عن قولي وأحس أنني لا أحب شيئاً بعده.. وإنني أشعر بدونه بقلق عظيم، وبتفاقم الحاجة إلى عدم الافتراق عنه يوماً

17/ 10/ 1863: «أحس بنفسي عاجزة عن فهمه جيداً، لذلك أتلصص عليه بكل غرة».

1868/7/31 (من المضحك أن يقرأ الشخص مذكراته! فكم هناك من متناقضات ! هل يوجد شخصان أسعد منا؟ إن حبي لا يكف عن الازدياد. أحبه دانماً

بنفس الحب القلّق، المبرح، المشحون بالغيرة والفائض بالخيال. إلا أن هدوءه وثقته بنفسه أمور تستفزني أحياناً».

16/ 9/ 1876: «بحثت بتعطش عن صفحات مذكراته التي تتطرق للحب وحالما وجدتها أكلتني الغيرة. إني حانقة عليه لأنه ذهب. لم أعد أنام ولم أعد آكل شيئاً تقريباً. كل يوم تحل بي الحمى ... ورعشات في المساء. هل أنال الجزاء لأنني أفرطت في حبي؟» .

إننا نشعر من خلال هذه الصفحات بجهود ضائعة للتعويض عن فقدان الحب الحقيقي. إن القلق والإلحاح والغيرة تعبر عن فراغ القلب. وكثير من الغيرة المرضية تترعرع في مثل هذه الشروط. فالغيرة تعبر تعبيراً لا مباشراً عن عدم الاكتفاء الذي تجسده المرأة عادة باختلاقها منافسة لها. وإذا لم تحصل على إحساس بالاكتفاء، فإنها تنظم صدمتها تنظيماً عقلياً بتخيلها أن زوجها يخونها.

وغالباً ما تمعن المرأة في الكذب عن رياء أو كبرياء أو حياء. يقول شاردون: كثيراً ما يبقى بغض الزوج مختفياً طول الحياة ويحل محله ما يسمى بالمزاج السوداوي أو غيره. وتعبر المرأة عن شعور الخصام ببذل الجهد في رفض تحكم الزوج. فبعد انقضاء شهر العسل وفترة الاضطراب التي تليه، تحاول المرأة الحصول على استقلالها. وهذا ليس بالأمر السهل، لأن الزوج يتمتع بشيء من النفوذ، نظراً إلى كِبَر سنة غالباً؛ كها أنه ربّ الأسرة بحسب أحكام القانون ويتمتع بتفوق معنوي واجتماعي، وغالباً ما يكون له على الأقل ظاهرياً وتفوق فكري؛ كها يمتاز على زوجته بالثقافة، أو على الأقل، بالتمرس المهني. ويكون منتسباً إلى حزب أو جمعية؛ ونظراً إلى كونه عاملاً ومواطناً فإن أفكاره متمرسة بالواقع. وبمعنى آخر أن الرجل المتوسط يتحلى بالمحاكمة وبتذوق الواقع والتجربة وبالفكر الناقد. إن ذلك ما تفتقده كثير من الفتيات. وإذا سبق لهن قراءة الكتب وساع المحاضرات فإن معارفهن المكدسة بحسب السوانح لا تشكل ثقافة. وإذا كنّ لا يحسن المحاكمة كثيراً فليس مرد ذلك إلى نقص في تكوين دماغهن، بل لأن الظروف يحسن العملية لم تضطرهن إلى ذلك. فالتفكير بالنسبة إليهن نوع من اللعب أكثر من أن يكون العملية لم تضطرهن إلى ذلك. فالتفكير بالنسبة إليهن نوع من اللعب أكثر من أن يكون أداة ووسيلة. حتى ولو كنّ متمتعات بالذكاء والحساسية فإنهن لا يعرفن إثبات آرائهن واستخلاص النتائج منها. لذلك يستطيع الزوج وإن كانت الزوجة خيراً منه، أن يثبت أنه واستخلاص النتائج منها. لذلك يستطيع الزوج وإن كانت الزوجة خيراً منه، أن يثبت أنه

على حق وأنها على خطأ. فيؤدي ذلك إلى تفاقم شقة الحلاف بينهما. وفي نهاية الأمر لا على حق وانها على حمد حرب والدموع أو العنف. فالمرأة تحاول أحياناً أن تقاوم يبقى للمرأة الشابة إلا الصمت والدموع أو العنف. أن من المرأة الشابة إلا الصمت والدموع أو العنف. يبقى للمراه الساب أم . يبقى للمراه الساب أن أكثر الأحيان، طوعاً أو كرهاً، أن يفكر الرجل محلها فيصبح هو وتناضل؛ إلا أنها تقبل في أكثر الأحيان، طوعاً أو كرهاً، أن يفكر الرجل محلها فيصبح هو وساصل إن تربي وساصل إن الأراء المشتركة في كل المواضيع العامة ضمير الأسرة. وهي تعول على الرجل لتكوين الآراء المشتركة في كل المواضيع العامة صمير المسر .. و في المحارة . ويحلو للزوج، في أغلب الأحيان، القيام والتجريدية عن حياء أو كسل أو نقص في المهارة. ويحلو للزوج، في أغلب الأحيان، القيام . يرى نفسه رئيساً مطلقاً ينشر الحقائق الصائبة. فيعرض وقائع اليوم ويصوب نفسه تجاه الخصوم، وهو سعيد أنه يرى في زوجته صورته التي تؤكد أقواله.

إن الزواج يشجع الرجل على تسلط خاضع للهوى. والميل إلى التحكم هو الأكثر شيوعاً وإلحاحاً. وإن تقويض أمر المرأة بالرجل يشجع على انتشار البغي في الأرض. فالزوج لا يكتفي غالباً بأن ينال الاستحسان والإعجاب، وأن ينصح ويوجه، بل إنه يُصدر الأوامر ويتصرف كالسيد المطلق. وهو يتحرر في البيت من كل أحقاده المتكدسة منذ صاه وطيلة حياته والمتجمعة يومياً أثناء احتكاكه مع بقية الرجال. إنه يأمر وينهي ويتصنع الشدة والبأس ويرفع صوته عالياً ويضرب بيده على الطاولة .. إن هذه المهزلة هي بالنسبة إلى المرأة جزء من الواقع اليومي. فالزوج مقتنع إلى أبعد الحدود بحقوقه حتى إن أقل بادرة استقلال من زوجته تبدو له كعصيان. أما هي فتنشق عليه مع ذلك. ولئن ابتدأت بالاعتراف بنفوذ الرجولة إلا أن ذلك سرعان ما يتبدد فتكتشف الزوجة أن الذي أمامها ليس قائداً أو سيداً بل رجلاً؛ ولا ترى أي مبرر لقبول العبودية. وأحياناً تخضع ظاهرياً إلا أنها تدخل غالباً في خصام سافر مع هذا السيد وتحاول هي أيضاً بسط سلطانها عليها.

وقد يتفاقم الخصام حتى يؤدي إلى الانفصال. لكن المرأة بصورة عامة، رغم رفضها تحكم زوجها، تريد مع ذلك المحافظة عليه. إنها تناضل ضده لتدافع عن استقلالها وتحارب بقية العالم لتحافظ على الوضع الذي ينذرها للتبعية. إن هذا اللعب المزدوج صعب؛ مما يفسر تفسيراً جزئياً حالة القلق والتوتر العصبي التي تحل بكثير من النساء طيلة حياتهن

وكما أن اصطياد الزوج فن، فإن المحافظة عليه تتطلب كثيراً من المهارة. خصوصاً أن المرأة تقامر بأشياء لا تستوجب التفريط: الأمن المادي والمعنوي، البيت الخاص، مكانة الزوجة. وسرعان ما تعرف المرأة أن سحرها الجنسي ليس سوى أوهى أسلحتها؛ لأن تأثيره يخف مع العادة؛ كها أن هنا نساء كثيرات يتوددن له كي يعجبنه ويستهوينه. ويصطرع ضمن المرأة نفسها غالباً الكبرياء التي تدعوها إلى البرود، وفكرة استهواء زوجها باللهفة الجنسية. وهي تعول أيضاً على أشياء أخرى كالحنان على الأطفال وإتقانها آداب المجتمع.

إلا أن هناك تقاليد كاملة تلقن الزوجات فن اجتذاب الرجل؛ إذ يجب اكتشاف نقاط الضعف فيه وامتداحها والموازنة بمهارة بين الخضوع والمقاومة وبين الحذر والتساهل. المسلكان الأخيران من الأهمية بمكان فلا ينبغي التشديد كثيراً على حرية الرجل أو التساهل كثيراً فيها.

فإذا كانت كثيرة التساهل فقد تتعرض لفقدانه. وإذا أرهقته بمراقبتها وإلحاحها أثارته ضدها. وإن عذر المرأة الأكبر في مناوراتها ولفّها ودورانها أنها مجبرة على حشر كل كيانها في الزواج. فكي تسود بين الزوجين علاقات الإخلاص وأواصر الصداقة فإن الشرط الضروري الذي لا غنى عنه أن يكون كل واحد حراً تجاه الآخر ومساوياً له مساواة فعلية ملموسة. وما دام الزوج يملك وحده استقلاله الاقتصادي ويتمتع بامتيازات الرجل بحكم القانون والعُرف، فمن الطبيعي أن يبدو غالباً كطاغية؛ مما يدفع المرأة إلى الثورة والمكر.

لا أحد ينكر مآسي الحياة الزوجية. إلا أن المدافعين عن الزواج يدعون أن النزاعات بين الزواج تنشأ عن إرادة الأفراد السيئة وليس عن نظام الزواج نفسه.

إن «أندريه بروتون» أحد كبار المتحمسين للحب الوحيد المطلق الحالد يضطر إلى القول بأن هذا الحب قد يخطئ في انتقاء شخص المحبوب في الظروف الحالية على الأقل.

وليس من شك في أن كثيراً من الأزواج ينجحون في الوصول على نوع من التوازن والاتفاق. إلا أن هناك لعنة تحل بهم ولا يتحررون منها إلا نادراً وهي الشعور بالسأم. فإذا لم ينجح الزوج في أن يجعل من زوجته صدى وصورة لشخصه أو انزوى كل منها في عالمه الخاص فلن يكون بينهما بعد بضعة أشهر أو بضع سنين أية مشاركة أو أي تجاوب.

إن المنافحين عن الحب الزوجي يقرون بأنه ليس حباً، وإن هذا السبب بالذات يضفي عليه طابعاً عجيباً. لأن البورجوازية قد استنبطت في السنوات الأخيرة أسلوباً ملحمياً شعرياً فأصبحت الرتابة مغامرة، والإخلاص جنوناً علوياً سامياً؛ والملل حكمة وتعقلاً، والأحقاد الزوجية أعمق شكل للحب، والحقيقة أنه إذا تباغض شخصان دون أن يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر فالعلاقة بينهما لا تستدعي إلا الشفقة. والحل الأمثل أن لا يرتبط شخصان إلا بالاتفاق الحر لحبهها.

على أن الحرية لا تعني الخضوع للهوى. فالإحساس نوع من التعهد يجاوز اللحظة العابرة. ولا يكون الإحساس طليقاً حراً إلا إذا كان غير خاضع للتوجيهات الخارجية، وكان الشخص يحياه بصدق لا يعرف الخوف. أما شعار «الحب الزوجي» فيدعو إلى كل أنواع الكبت والكذب، وأول ما يمنع على الزوجين هو أن يحققا بينهما تعارفاً حقيقياً.

بعدما شُفي أحد المرضى وجّه شكره لأصدقائه وممرضاته ثم التفت إلى زوجته التي لم تبارح جواره مدة ستة أشهر قائلاً: «أما أنت فلا أتوجه إليك بالشكر، لأنك لم تفعلي سوى واجبك. إنه لم ينظر إلى أية حسنة من حسانتها على أنها ميزة؛ لأن هذه الحسنات يضمنها المجتمع ويتضمنها نظام الزواج.

يجري الكلام كثيراً عن خيبة أمل الرجل الساذج المخلص أمام المكر النسوي والحقيقة أن المرأة منذورة للاأخلاق؛ لأن الأخلاق تضطرها إلى تجسيد كيان غير إنساني. وما أن تفكر وتحلم وتتمنى وتتنفس دون توجيهات حتى تخون ما يتمثله الرجل فيها. لذلك لا تنساق نساء كثيرات مع ذاتهن الحقيقية إلا في غياب أزواجهن، وعلى العكس من ذلك، لا تعرف المرأة حقيقة زوجها. فقد تحسب أنها ترى وجهه الحقيقي في حين أن حقيقة وجه الرجل هي أول كل شيء فيما يفعله ضمن العالم من الرجال الآخرين.

في بعض الحالات الموفقة قد تنجع المرأة في أن تصبح رفيقة حقيقية لزوجها. فتناقش مشاريعه وتسدي له النصائح وتساهم في أعماله. إلا أنها تخدع نفسها إذا ظنت أنها تحققت بذلك عملاً شخصياً. فالرجل يبقي الحرية الوحيدة المجتمعة بالنشاط والمسؤولية. وينبغي لها أن تكون مولهة بحبه لتجد الفرح في خدمته وإلا فإنها لن تشعر إلا بالحنق أمام حرمانها من نتائج جهودها.

تأخذ الحياة الزوجية، بحسب الأحوال، أشكالاً مختلفة، إلا أن الحياة اليومية تجري بالنسبة إلى كثير من النساء على الوتيرة نفسها.

يستيقظ الزوج صباحاً بعجلة. وتصغي الزوجة بانشراح إلى صوت الباب يغلق خلف زوجها لأنها تحب أن ترى نفسها حرة، غير خاضعة للتوجيهات وسيدة في بيتها. وخلال شتى مراحل اليوم تتقلب نفسيتها ضمن الإطار التالي الذي يتكرر كل يوم تقريباً: الملل، الانتظار، خيبة الأمل.

وقد تعرض للمرأة بعض أنواع الهروب. إلا أن ذلك صعب من الناحية العملية في الأرياف حيث تثقل قيود الزواج كاهل المرأة فتصبح بعضهن ربّات بيوت طاغيات متحكمات ويلعب بعضهن دور الضحية المستعبدة.

ولا يبقى للمرأة التي تريد أن تحيا وضعها حياة مناسبة إلا الكبرياء الصابرة في أغلب الأحيان. ولما كانت مقيدة بكل الأشياء وبكل الأشخاص فلا يمكنها أن تعرف سوى الحرية الضمنية أي الحرية التجريدية.

وغالباً ما تداعب الأوهام نفس المرأة في الأعوام الأولى فتحاول أن تعجب بزوجها إعجاباً مطلقاً وأن تمنحه حبها بغير تحفظ، وأن تحس بنفسها ضرورية لزوجها وأطفالها. ثم تطالعها مشاعرها الحقيقية فتدرك أن زوجها يستطيع الاستغناء عنها وأن أولادها سينفصلون عنها تدريجياً. وحين تكف الحياة المنزلية عن حمايتها من حريتها الفارغة ترى نفسها منعزلة مهجورة.

كل الكاتبات الصادقات لاحظن هذه السوداوية التي تقطن قلب المرأة في الثلاثين من عمرها. وأن هذه الصفة مشتركة بين بطلات الكاتبات: كاترين مانسفيلد، دوروثي باركر، فيرجينيا وولف.

وإذا ما قارنا حوادث الانتحار بين العازبات والمتزوجات وجدنا أن الأخيرات معصومات من التبرم بالحياة بين العشرين والثلاثين ثم يسير المنحني نحو التناقص بعد الثلاثين.

إن مأساة الزواج لا تكمن في أنه لا يؤمّن للمرأة السعادة الموعودة، لأن ضمان السعادة أمر مستحيل؛ وإنها لأنه ينذرها للتكرار والرتابة المملة. وحياة الفتاة حتى العشرين غنية بالمفاجآت؛ حيث تجتاز الفتاة تجارب البلوغ والحياة الجنسية والزواج والأمومة. وفي العشرين من عمرها ترى نفسها سيدة بيت مرتبطة الجنسية والزواج والأمومة. وفي العشرين هي حياتها قد تحددت معالمها إلى آخر أيامها، بزوجها إلى الأبد وبين ذراعيها طفلها. هذه هي حياتها قد تحددت معالمها إلى آخر أيامها، أما الأعمال الحقيقية فمتروكة للرجل.

* * *

إن الشكل التقليدي للزواج آخذ في التحول، إلا أنه لا يزال يشكل نوعاً من الاضطهاد يحس به الزوجان بصورة مختلفة. فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الحقوق المجردة فإنها اليوم متعادلان تقريباً. فهما أكثر حرية من ذوي قبل في اصطفاء بعضها. ويمكنهما الانفصال عن بعضهما بصورة أسهل من الماضي. على أن الزواج ليس بالنسبة إلى المرأة سوى إمكانية مجردة إذا لم تكن لها وسائل تأمين حياتها بنفسها.

إن سيادة الرجال ذاتها تجعلهم مقيدين. فلأنهم وحدهم يربحون المال، ترهقهم الزوجة بمطالبها؛ ولأنهم وحدهم يهارسون مهنة، تفرض عليهم الزوجة النجاح فيها. وعلى العكس من ذلك، ليس من شأن طغيان المرأة إلا إبراز تبعيتها.

ولئن كانت العبودية الزوجية أكثر استفزازاً للرجل فإنها أكثر عمقاً بالنسبة للمرأة. وإن وجه الاختلاف الأساسي بينهما هو أن تبعية المرأة مستبطنة؛ فهي مستعبدة وإن تصرفت ظاهراً بحرية. أما الرجل فحر مستقل؛ وهو غير مكبل الأغلال إلا في الظاهر، لأن الأعباء التي يتحملها هي الأكثر وضوحاً. والمرأة تلقف غذاءها منه كطفيلية فلا يمكن لها إذن أن تكون سيدة ظافرة.

والحقيقة، كما أن الذكور والإناث هم ضحايا النوع من الناحية البيولوجية، فإنهم يتحملون وطأة مؤسسة الزواج بصورة مشتركة، وإذا قلنا إن الرجال يضطهدون النساء ثارَ الزوج غاضباً لأنه يحس بنفسه مضطهداً، وهو كذلك في الواقع ...

إن المجتمع الذي شيده الذكور في مصلحتهم قد حدد وضع المرأة بصورة صارت في الوقت الحالي مصدر عذاب الطرفين.

يجب تعديل الوضع، بصورة يحظر معها جعل الزواج «مهنة» بالنسبة إلى المرأة، وذلك في مصلحة الزوجين معاً.

فالمرأة تثقل كاهل الرجل لأنه محظور عليها أن تستند إلى نفسها. وسيتحرر الرجل نفسه إذا تحررت هي وصار لها شيء تفعله في هذا العالم.

إن الطفل، بحسب النظرة التقليدية، هو الذي يضمن للمرأة استقلالاً ملموساً بغنيها عن أن تنذر نفسها لأية غاية أخرى. وإذا لم تكن المرأة كزوجة شخصاً كاملاً فإنها تصبح كذلك بفضل الأمومة؛ فالطفل هو بهجة حياتها ومبرر وجودها وبفضله تصبح مؤسسة الزواج ذات مغزى وتبلغ هدفها.

فلنفحص إذن هذه المرحلة العليا لتطور المرأة.

الفَطَيْلُ الثَّانِي

الأم

لا تستكمل المرأة مصيرها الفيزيولوجي إلا بالأمومة. هذا هو استعدادها الطبيعي، لأن كل عضويتها موجهة نحو إدامة النوع. على أن هناك من يقول إن المجتمع الإنساني ليس متروكاً للطبيعة أبداً؛ خاصة أن إنجاب الأطفال لم تعد، منذ قرن تقريباً، تحدده الصدفة البيولوجية، بل صار خاضعاً لإشراف الإرادة والرغبة. فبعض البلاد تبنت بصورة رسمية طرق «مراقبة النسل» ويجري ذلك في البلدان الخاضعة لتأثير الكاثوليكية بصورة سرية، ويسبب ذلك غالباً نزاعات بين الأحباء والأزواج.

فإذا كانت وسائل مقاومة الحمل بدائية اضطرت المرأة إلى اللجوء إلى الإجهاض.

لا شيء كالإجهاض يترك المجال لرياء البورجوازية. فهو جريمة مقززة يحول الشرف دون التلميح إليه. فإذا ما وصف أحد الكُتّاب أفراح وآلام الولادة قوبل بالترحاب، أما إذا تحدث عن الإجهاض فويلٌ له، لأنه يُتّهم بالتمرغ في القذارة وبوصف الإنسانية وصفاً حقيراً وضيعاً! إلا أن الواقع يبين أن عدد حوادث الإجهاض في فرنسا كل عام يعادل حوادث الولادة. إن هذه الظاهرة من الشيوع بحيث ينبغي اعتبارها من الطوارئ الطبيعية المرتبطة بوضع المرأة.

يصر القانون على اعتبار الإجهاض جنحة. ولا شيء أسخف من الحجج التي توجه ضد تشريعه. فيدعون أن العملية خطيرة؛ إلا أن الأطباء الشرفاء يقررون مع الدكتور «هيرشفيلد» أن «الإجهاض الذي يقوم به طبيب أخصائي في العيادة مع اتخاذ الوقاية الضرورية لا يتضمن هذه الأخطار الجسيمة التي يؤكد القانون الجزائي وجودها. بل بالعكس، إنه يشكل خطراً كبيراً على المرأة في شكله الحالي.

بالعمس، والمنتخي لنا أن نلاحظ أن المجتمع الذي يبدي حماساً كبيراً في الدفاع عن حقوق ينبغي لنا أن نلاحظ أن المجتمع الذي يبدي حماساً كبيراً في الدفاع عن حقوق المجنس يتنكر كل التنكر للأطفال بعد ولادتهم. والسلطة تلاحق المجهضات بدل أن تبذل جهدها لإصلاح هذه المؤسسة التي يطلق عليها اسم «الإسعاف العام». ولئن كانت ترفض اعتبار الجنين تابعاً للمرأة التي تحمله في أحشائها فإنها توافق على جعل الطفل غرضاً خاصاً بأهله. وفي أسبوع واحد رأينا أحد الجراحين ينتحر لأنه اتهم بعمليات إجهاض، وأحد الآباء يضرب ابنه حتى الموت فيحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر مع وقف التنفيذ؛ كما رأينا مؤخراً إحدى الأمهات ترفض استدعاء الطبيب للعناية بابنتها المريضة بعجمة أنها تخلت عنها للعناية الإلهية والإرادة الربانية تخلياً غير مشروط؛ ولما حاول بعض الأطفال إلقاء الأحجار عليها غضب بعض الصحفيين واحتج بعض الناس الشرفاء مدعين أن الأطفال يخصون أهلهم ويعتبر كل إشراف أجنبي مرفوضاً.

وفي إفريقيا الشهالية، لا يمكن للمرأة أن تلجأ إلى الإجهاض، ولكن إذا أنجبت عشرة أطفال ومات منهم سبعة أو ثهانية فلا يأبه أحد لذلك. زد إلى ذلك أن أكثر الرجال احتراماً للحياة الرشيمية هم أيضاً أكثرهم تحمساً واندفاعاً للزج بالشبان على ساحات الحروب.

إن الأسباب العملية الموجهة ضد الإجهاض القانوني ليس لها أي وزن. أما الأسباب الخلقية فتتلخص في الحجة الكاثوليكية القديمة القائلة بأن للجنين روحاً فإذا قضينا عليه قبل التعميد حرمناه من دخول الجنة. ومن الملاحظ أن الكنيسة تسمح بقتل الإنسان الكامل في الحروب أو في حالة الحكم بالإعدام وتتعنت في إنسانيتها بالنسبة إلى الجنين. إنه لم ينقذ نفسه بالتعميد ... ولكن «الكفار» في زمن الحروب المقدسة لم يكونوا هم أيضاً معمدين ومع ذلك كان تقتيلهم يلقى كل تشجيع .

والحقيقة أننا هنا أمام فكرة تقليدية راسخة لا تمت بصلة إلى الأخلاق. وبلغ القسوة في بعضهم حداً عجيباً. وكتاب الدكتور (روا) نموذج صارخ على ذلك. فقد ألح على أخطار الإجهاض مع أنه اعتبر العملية القيصرية صحية جداً وطالب باعتباره كجريمة

وليس كجنحة. وتمنى أن يمنع حتى في حالة تعرض حياة المرأة أو صحتها للخطر نتيجة للحمل. إذ أعلن أن الانتقاء بين حياة وأخرى عمل غير أخلاقي وبالاستناد إلى هذه الحجة نصح بتضحية الأم.

إن روح العداء للمرأة ما زالت حية؛ ويرى ذلك في عناد بعض الرجال وإصرارهم على رفض كل ما من شأنه تحرير المرأة.

إن عملية الإجهاض تجري غالباً في شروط غير ملائمة حتى إن كثيراً من النساء المجهضات يلاقين حتفهن. كتب الدكتور «ديبلا» مقالاً في جريدة «كومبا» في آذار/مارس 1948 جاء فيه:

«إن المعهد الطبي الشرعي في باريس يتلقى جثتين في كل أسبوع. وكثير من عمليات الإجهاض تؤدي إلى أمراض دائمة».

لقد قيل إن الإجهاض «جريمة راقية» وهذا القول صحيح إلى حدَّ كبير؛ لأن طرق منع الحمل كثيرة الانتشار في أوساط البورجوازية. وإن وجود غرفة خاصة للزينة يجعل التطبيق سهلاً بعكس العُمَّال والفلاحين المحرومين من الماء الجاري.

ومن أسباب الإجهاض، الفقر وأزمة السكن واضطرار المرأة إلى العمل خارج البيت. ويبدو أن المرأة، في أغلب الأحيان، تقرر تحديد النسل بعد ولادتين.

إن خطورة هذه التجربة تبدل كثيراً تبعاً للظروف. فالمرأة المتزوجة زواجاً بورجوازياً والتي تستند إلى رجل ولديها أموال وصلات، هي في وضع مميز. فهي تستطيع، بصورة أسهل من غيرها، الحصول على إذن إجهاض «طبي»؛ وإذا دعت الحاجة فإنها تذهب في سفرة إلى سويسرا حيث يُسمح بالإجهاض. وفي أوضاع الطب النسائي الحالية تعتبر هذه العملية سهلة بسيطة إذا قام بها أخصائي واتخذت كل الضهانات الصحية.

وعلى العكس من ذلك، لا شيء يستدعي الشفقة مثل الفتاة المنعزلة التي لا تملك الأموال الضرورية فتضطر إلى ارتكاب (جريمة) لتمسح آثار (الخطيئة).

إن الرجل الذي يغوي المرأة هو الذي يقنعها غالباً بالتخلص من الطفل. فإما أن يكون قد هجرها بعد حملها، أو أنها تريد أن تخفي الأمر عنه، أو أنها لا تجد من طرفه أية

مساعدة. وهي أحياناً لا تتخلى عن الطفل دون أسف، وحينها تباشر بالتخلص منه تكون مساعده. وهي أحيال على الخامس؛ حينئذ يصبح الإجهاض أكثر خطورة وأشد الما في شهرها الثالث أو الرابع أو الخامس؛ حينئذ يصبح الإجهاض ... ي سهرها الله المرابع الأولى. إن المرأة تعرف هذا الأمر معرفة جيدة؛ لذلك تحاول من الإجهاض في الأسابيع الأولى. إن المرأة تعرف التخلص منه وهي في حالة من القلق واليأس.

يجهل الناس في الأرياف استعمال المسبر، والفلاحة التي ارتكبت الخطيئة تدحرج يبه الله أو الدرج وغالباً ما تجرح نفسها بغير نتيجة. أما في المدن فالنساء يتبادلن نفسها من السلم أو الدرج وغالباً ما تجرح نفسها بغير نتيجة. المعونة؛ على أن الجراحين الذين يستنجد بهم يكونون غالباً قليلي الكفاءة .. هذا إذا لم تقم المرأة نفسها بالمحاولة.

قصّ عليّ طبيب، أن إحدى الطباخات الجاهلات أرادت أن تحقن رحمها بالخل فحقنت مثانتها؛ مما سبب لها آلاماً مبرحة.

يرافق الإجهاض الذي يكون غالباً أكثر مشقة من الولادة الطبيعية اضطرابات عصبية. وقد يحدث أحياناً أمراضاً داخلية خطيرة أو يؤدي إلى نزيف مميت.

حدثوني عن ضاربة على الآلة الكاتبة بقيت أربعة أيام في غرفتها وهي غارقة في دمائها دون أكل أو شرب لأنها لم تتجرأ على طلب المساعدة. لا شيء أصعب من وضع يختلط فيه التهديد بالموت بالتهديد بالجريمة والفضيحة. ولما كانت العملية تجري في جو من السرية والإجرام، فإن الخطر يتزايد، وتأخذ العملية طابعاً حقيراً مقلقاً. ويأخذ الألم والمرض والموت شكل عقاب. إن المرأة تحس بنفسها مخطئة من خلال الأخطار التي تأخذها على عاتقها وهذا التداخل بين الألم والخطيئة شاق ومرهق.

تختلف شدة الشعور بالناحية المعنوية للمأساة بحسب الظروف.

فبالنسبة إلى النساء «المتحررات» جداً؛ ونظراً إلى ثروتهن ووضعهن الاجتهاعي ووسطهن المنطلق، وبالنسبة إلى النساء اللواتي علمهن الفقر أو البؤس الاستخفاف بالأخلاق البورجوازية، لا يوجد أية مشكلة. كل ما في الأمر أن عليهن المرور بفترة

إلا أن هناك نساء كثيرات يحسسن بالرهبة من أخلاق لا تزال تحافظ على سلطانها أمام أعينهن وإن كن لا يستطعن أن يكفين سلوكهن بمقتضاها. فهن يحترمن احتراماً

ضمنياً القانون الذي يخالفنه، ويتألمن لارتكابهن جنحة، ويتألمن ألماً أكبر لانهن مضطرات الى البحث عن شركاء وشريكات.

يشعرن أولاً بذل السؤال: السؤال عن عنوان وطلب عناية طبيب أو ممرضة. إنها تطلب هذه المساعدة، ولكنها ترفضها غالباً ضمن نفسها، فهي موزعة منقسمة ضمن ذاتها. لأنه إذا كان صحيحاً أن الإجهاض ليس جريمة قتل، فلا يمكن مع ذلك تشبيهه بوسيلة بسيطة ضد الحمل. فقد وقع الحادث وهو بداية مطلقة ثم أوقف تطوره. وإن بعض النساء تصاحبهن أبداً ذكرى هذا الطفل الذي لم يولد.

تروي «هيلين دوتش» في كتابها «نفسية النساء» حالة امرأة متزوجة طبيعية جداً من الناحية النفسية، فقدت جنينين في الشهر الثالث بسبب تكوينها الجسمي فأقامت لهما قبرين وبقيت تحيطهما بحبها وخشوعها حتى بعد ما وُلد لها عدة أطفال.

فلا شك في أن المرأة التي تُجهض نفسها بإرادتها تحس غالباً أنها ارتكبت ذنباً. وقد تعبر السوداوية المرضية عن هذا الشعور بالإثم. وإلى جانب النساء اللواتي يعتقدن أنهن اعتدين على حياة شخص، هناك نساء كثيرات يعتبرن أن جزءاً من ذاتهن قد فُصل عنهن؛ وعن ذلك ينشأ حقد ضد الرجل الذي طلب إليهن الإجهاض. وإذا كان من النادر أن تقطع المرأة صلتها بشريكها الرجل قطعاً باتاً فكثيراً ما يحدث أن تصاب بالبرود الجنسي إزاء جميع الرجال أو إزاء الرجل الذي حملت منه.

يميل الرجال إلى الاستخفاف بالإجهاض فيعتبرونه من الطوارئ العديدة التي كتبها خبث الطبيعة على النساء، ولا يقدرون ما يتضمنه من قيم.

وتنكر المرأة كل قيم الأنوثة، قيمها الخاصة، حين تتناقض أخلاق الذكور تناقضاً صارخاً. ويتزعزع كل عالمها الخلقي. في الحقيقة، إنهم كرروا أمامهم منذ طفولتها قولهم إن مهمتها إنجاب الأطفال وتغنوا أمامها ببهجة الأمومة. وبرروا مساوئ وضعها والأعمال المنزلية الملة وكل شيء بهذا الامتياز العجيب الذي تتمتع به وهو القدرة على إنجاب الأطفال. وها هو ذا الرجل يسألها أن تتخلى عن ظفرها كأنثى، كي يحافظ على حريته ولا يقيد مستقبله ولا يهدد مصالح مهنته، ألم يعزوها عن فزعها أمام دم الحيض وهي فتاة بوعدها بمباهج الولادة.

وحتى إذا رضيت بالإجهاض ورغبت فيه فإنها تحس به كأنه تضحية بأنوثتها؛ وينبغي لها أن تعتقد اعتقاداً نهائياً أن جنسها كامرأة لعنة تحيق بها وعجز يلازمها وخطر وينبغي لها أن تعتقد اعتقاداً نهائياً أن جنسها للتحول إلى السحاق. يهددها. وقد يصل الحد في بعضهن مبلغ التحول إلى السحاق.

يهددها. وقد يصل الحدي بمسهن من علي المرأة التضحية بإمكانياتها الجسمية في سبيل تحسين على أن الرجل، حين يطلب إلى المرأة التضحية بإمكانياتها الجسمية في سبيل تمنعون مصيره كرجل، يفضح في الوقت نفسه رياء القواعد الأخلاقية للذكور. إنهم يناقضون الإجهاض بصورة عامة، ولكنهم يرضون به بصورة خاصة كحل ملائم. إنهم يناقضون أنفسهم بطيش، إلا أن المرأة تحس بهذا التناقض، في جسمها الجريح. وغالباً ما تكون خجولة لدرجة يستحيل عليها أن تثور ضد سوء نية الذكور. وهي، إذ تفكر في أنها ضحية ظلم يجعل منها مجرمة بالرغم منها، تحس بنفسها مدنسة مذلولة. إنها هي التي تجسد خطيئة الرجل تجسيداً ملموساً مباشراً. فهو يرتكب الخطيئة ويتحلل منها بإلقائها على عاتق المرأة. وقد لا ينطق أحياناً بكلمة، بل يكتفي بالذهاب إلا أن صمته وهروبه يشكلان تكذيباً صارخاً لكل الأخلاق التي شرعها الذكور. والنساء يتعلمن الكف عن تصديق الرجال حينها يشيدون بالمرأة أو حينها يشيدون بالرجل. إن الشيء الوحيد المؤكد هو حالتهن التعسة. واعتباراً من أول إجهاض تبدأ المرأة بفهم الحقيقة. ولا يعود للعالم الوجه نفسه بالنسبة إلى الكثيرات. ومع ذلك فالإجهاض هو الطريق الوحيد المفتوح.

وصدق ستيكل بقوله: «إن حظر الإجهاض قانون غير أخلاقي لأن هذا القانون سيُخالَف حتماً في كل يوم وفي كل ساعة».

إن تبني مراقبة النسل والإجهاض القانوني يتيح للمرأة النهوض بالأمومة في حرية. ويتقرر إنجاب الأطفال عند المرأة بالإرادة المصممة كما بالصدفة. وطالما لم يصبح التلقيح الصناعي إجراء شائعاً فقد تتمنى المرأة الأمومة دون أن تحصل عليها، إما لأنها ليست على علاقة مع رجل أو أن زوجها عاقر أو أنها سيئة التكوين. وعلى العكس من ذلك، تجد نفسها غالباً مضطرة إلى الإنجاب ضد رغبتها. وتعيش النساء الحمل والأمومة بصورة مختلفة تبعاً لحدوثها في حالات الثورة أو الخضوع أو الاكتفاء أو الحهاس. ويجب الاحتراس من أن القرارات والعواطف التي تقر بها الأم الشابة لا تتفق دائهاً مع رغباتها العميقة. فبإمكان المتزوجة الشابة التي تستقبل حمله بفرح وافتخار أن تخشاه في صمت

ونكرهه من خلال ذكريات الطفولة التي ترفض هي نفسها الإقرار بها. وهذا من الأسباب التي تحمل النساء على الصمت حول هذا الموضوع. وإن صمتهن ينشأ جزئياً من أنهن يرتحن إلى إحاطة هذه التجربة الخاصة بهن بالألغاز.

رأينا أن المرأة تمر اعتباراً من طفولتها بعدة مراحل فيها يخص الأمومة. فحين تكون صغيرة يبدو لها الأمر كأعجوبة ولعبة فهي تجد في الدمية والطفل غرضاً تمارس عليه استحواذها وتسلطها. وحين تصبح يافعة ترى في الطفل تهديداً لسلامة شخصها أو أنها ترفضه بشدة أو أنها تخشاه وتتمناه مما يؤدي إلى كل أنواع القلق. وبعض الفتيات يرتحن إلى ممارسة السلطة التي تخولها الأمومة ولكنهن غير مستعدات لضهان ما ينجم عنها من مسؤولية.

مثال ذلك حالة اليديا التي كانت تعمل في الخدمة وهي في السادسة عشرة من عمرها. كانت تعامل الأطفال الموكلين لعنايتها بكل تضحية، وكان ذلك امتداداً لأحلام الطفولة. إلا أنها شرعت فجأة بإهمال خدمتها وأخذت لا تبالي بالأطفال وتخرج من البيت وتغازل. لقد انتهى بالنسبة إليها وقت اللعب وبدأت بالاهتهام بحياتها الحقيقية التي لا تحتل فيها الرغبة في الأمومة إلا مكاناً محدوداً. وبعض النساء يرغبن طيلة حياتهن في السيطرة على الأطفال، ولكنهن يرفضن إنجاب الأطفال بأنفسهن فيصبحن معلمات أو ألسيطرة على الأطفال، ولكنهن يرفضن إنجاب الأطفال بأنفسهن فيصبحن معلمات أو ممرضات أو قابلات، وبعضهن أيضاً لا يدفعن عنهن الأمومة بقرف إلا أنهن يكن منهمكات بحياتهن الغرامية أو بمهنتهن إنهاكاً لا يدع بجالاً للأمومة في حياتهن.

وتحقق المرأة عقمها غالباً بصورة إرادية إما بتجنب الاتصال الجنسي أو بوسائل تحديد النسل. على أن هناك حالات لا تقر فيها المرأة بخوفها من الولد فيمنعها السياق النفسي من الحمل. إذ تطرأ عليها اضطرابات وظائفية من أصل عصبي، تظهر بالفحص الطبي.

يعطي الدكتور «أرتور» مثالاً بارزاً على ذلك: «هُيِّمْت السيدة هـ. من قِبَل أمها تهيئة سيئة على حياتها كامرأة، فقد كانت أمها تتنبأ لها دائهاً بأفظع الكوارث إذا حملت طفلاً. ولما تزوجت السيدة هـ. خُيِّل إليها أنها حامل في الشهر التالي ثم لاحظت خطاها. وتخيلت تزوجت السيدة هـ. خُيِّل إليها أنها حامل في الشهر التالي ثم تستشير أحد الأخصائيين الشيء نفسه بعد ثلاثة أشهر ثم شعرت بخطئها. بعد عام ذهبت تستشير أحد الأخصائيين الشيء نفسه بعد ثلاثة أشهر ثم شعرت بخطئها أي سبب للعقم. وبعد ثلاثة أعوام في الأمراض النسائية فلم ير عندها أو عند زوجها أي سبب للعقم. وبعد ثلاثة أعوام

راجعة طبيباً آخر قال لها: سوف تحملين طفلاً حينها ستقللين من الحديث عن الحمل. وبعد خمسة أعوام اعتقدت السيدة هـ. مع زوجها أن لن يكون لها طفل ... فولدت طفلاً وبعد خمسة أعوام اعتقدت السيدة هـ. مع زوجها أن لن يكون لها طفل ... فولدت طفلاً وبعد خمسة أعوام اعتقدت السيدة هـ. مع زوجها أن لن يكون لها طفل ... فولدت طفلاً وبعد خمسة أعوام السيدس".

ي يتأثر قبول أو رفض الحبل بنفس العوامل التي يتأثر بها الحمل بصورة عامة. فخلال يتأثر قبول أو رفض الحبل بنفس العوامل التي يتأثر بها الحمل تنشط أحلام الطفولة. وتعيش المرأة حملها بصورة مختلفة بحسب علاقتها مع زوجها ومع ذاتها.

وحينها تصبح المرأة أماً تأخذ محل أمها التي ولدتها. وإذا كانت تتمنى الحمل حقاً فإنها تبتهج به وتعمل على السير فيه دون مساعدة. أما إذا كانت لا تزال واقعة تحت السلطة وراضية بذلك فإنها تلجأ إلى أيادي أمها فيبدو لها طفله كأخ أو كأخت لها أكثر من فلذة كبدها. وإذا كانت ترغب في التحرر ولا تجرؤ عليه في الوقت نفسه فإنها تخشى أن يقيدها الطفل عوضاً عن أن ينقذها. مثل هذا القلق يكون من نتيجته أحياناً الإجهاض.

تروي «هـ. دوتش» قصة امرأة كانت مضطرة إلى مرافقة زوجها وترك طفلها عند أمها فأنجبت طفلاً ميتاً. وقد دُهشت لأنها لم تبكه كثيراً. إنها كانت تستفظع ترك ولدها عند أمها التي كان بوسعها التحكم بابنتها من خلال الطفل.

إننا نرى من المثال التالي الذي ترويه «هـ. دوتش» ما للعلاقة مع الأم من أثر سيئ:

«السيدة سميث هي الابنة الصغرى لعائلة ذات أولاد عديدين ليس فيهم سوى صبي واحد. كانت أمها تنظر إليها نظرة حقد لأنها كانت تريد مولوداً ذكراً. إلا أنها لم تكن تقاسي كثيراً من ذلك لأن أباها وأختها الكبرى كانا يعطفان عليها. ولما تزوجت وأخذت تنتظر ولادة طفل، أحال الحقد الذي كانت تشعر به سابقاً تجاه أمها، فكرة الأمومة بغيضة إلى نفسها رغم أنها كانت تتمنى هذا الطفل بلهفة. فولدت قبل انتهاء المدة بشهر طفلاً ميتاً. ولما حملت ثانية خشيت وقوع حادث جديد؛ ولحسن حظها أن إحدى صديقاتها المقربات حملت في الوقت نفسه وكان لها أم شديدة العطف والمحبة أحاطتها برعايتها أثناء حملها. إلا أن صديقتها كان تسبقها بمدة شهر مما دفعها إلى الخوف من إتمام فترة الحمل وحدها. لكن الجميع دهشوا إذ رأوا فترة حمل الصديقة تمتد شهراً زيادة عن المدة المقدرة. وفي نهاية الأمر ولدت الصديقتان في اليوم نفسه.

وقررت الصديقتان أن تحملا بالولد المقبل في اليوم نفسه وابتدأت السيدة سميث هلها الجديد بغير قلق. إلا أن صديقتها اضطرت خلال شهرها الثالث إلى مغادرة المدينة؛ ويوم علمت السيدة سميث بذلك أجهضت. ولم تحمل بعد ذلك بأي ولد آخر لأن ذكرى أمها كانت شديدة الوطء على نفسها».

ولا تقل علاقة المرأة مع والد الطفل في الأهمية عن علاقتها مع أمها. والمرأة التي بلغت حداً من النضج والاستقلال قد تريد طفلاً يخصها فقط. وإذا كان والد الطفل يشاركها في حياتها فإنها ترفض أن يكون له أي حق في نسلها وتحاول أن تشكل مع صغيرها وحدة مغلقة على نفسها. على أن المراة في أكثر الحالات تحتاج إلى مساعدة الرجل لتقبل مسؤولياتها الجديدة. وكلها كانت خجولة ازدادت لديها هذه الحاجة.

والمرأة التي تكنّ حباً لزوجها تكيف غالباً عواطفها مع عواطفه وتتقبل الحمل والأمومة ببهجة إذا كان فخوراً بذلك، وتتقبلهما باستياء إذا أحس بالانزعاج. وتتمنى المرأة أحياناً الطفل لتوثيق الصلة مع رجلها فيتعلق ميلها إلى الطفل بنجاح أو فشل مخططاتها.

وإذ كانت تحس تجاه زوجها بالخصام فيمكنها التمسك بالطفل تمسكاً شديداً يدفعها إلى إنكار حق الأب فيه أو أنها، على العكس، تنظر إلى الطفل نظرة حقد كما تنظر إلى أبيه البغيض.

على أن الحمل مأساة تصطرع ضمن ذات المرأة، فتحس به في الوقت نفسه كإغناء وكاقتطاع. والجنين هو جزء من جسمها وفي الوقت نفسه طفيلي يستثمرها وكل منهما يمتلك الآخر. إنه كائن جديد يستعد لرؤية الحياة ويبرر وجود أمه، وهذه تحس بالعزة والفخر إلا أنها تشعر بنفسها ألعوبة في أيدي قوى مظلمة.

تصبح مباهج الحمل والإرضاع عند بعض النساء من القوة بحيث يردن تكرارها دائماً. هؤلاء النساء اللواتي يعتبرن «منجبات» أكثر منهن أمهات، يبحثن بنهم عن إمكانية التنازل عن حريتهن في صالح جسمهن. إذ يبدو لهن وجودهن مبرراً بدون الإنجاب السلبي لجسمهن. هكذا تصبح المرأة غريقة في تيار الحياة مندمجة بالكل كحلقة في سلسلة

تعاقب الأجيال اللامتناهية، كتلة من اللحم موجودة مِن أجل كتلة لاحقة بفضل كتلة سابقة. إن المرأة الحامل تكف عن كونها متاعاً خاضعاً لشخص آخر وتكف أيضاً عن . كونها شخصاً تقلقه حريته لتصبح هذا الواقع الملتبس: الحياة. ولكنها متوهمة إذ تحس بنفسها، كوجود بالذات وكقيمة كاملة.

إنها لا تصنع الطفل بل يصنع ضمنها. ولحمه لا يحدث إلا اللحم فقط. وهي عاجزة عن تكوين وجود عليه أن يكون نفسه. إن الخلق المنبعث عن الحرية يضع الشيء كقيمة ويضفي عليه طابع الضرورة. قد يكون للمرأة أسباب في أن تريد طفلاً إلا أنها لا تستطيع أن تعطى لهذا «الآخر» الذي سيوجد غداً أسباب وجودها الخاصة.

فالمرأة تحدث الطفل في عمومية جسمه لا في فردية وجوده. وكل طفل هو آلة يصنع من نفسه إنساناً. ولا يمكنه أن يحقق ذاته كشعور وحرية إذا لم يولد. إن الحقيقة العليا لهذا الموجود الذي يتكون في أحشائها تستعصى عليها.

كل امرأة تظن أن ولدها سيكون بطلاً، ولكنها تخشى في الوقت نفسه أن تلد طفلاً ناقصاً. وبحسب الأحوال تنتصر إما الفكرة الأولى أو الفكرة الثانية، إلا أن المرأة تتقلب غالباً بين الفكرتين.

كما أنها تأثر أيضاً بمزدوجة أخرى: فهي تؤكد الحياة ضد الزمن والموت إذ ترى نفسها محمولة بدوامة النوع وتكون لذلك مرشحة للخلود؛ بيد أنها تحس في جسمها حقيقة كلمة هيجل: «ولادة الأطفال موت الآباء». إن مجاوزة الذات هذه، هي أيضاً بالنسبة إلى المرأة تشخيص مسبق لموتها. وتعبر المرأة عن هذه الحقيقة بها تشعره من خوف حينها تتصور الولادة، لأنها تخشى أن تفقد حياتها أثناءها.

إن موقف المرأة يتبدل خلال مراحل تطور الجنين. ويجب أن نلفت النظر أو لا إلى أن الولد لا يكون حاضراً في بداية سياق التطور، وليس له بعد سوى وجود تصوري. تستطيع الأم أن تحلم بهذا الفرد الصغير الذي سيولد بعد بضعة أشهر وأن تشغل نفسها في إعداد السرير والملابس، ولا تحس إحساساً ملموساً إلا بالاضطرابات العضوية التي تجري ضمنها. ويدعي بعض كهنة الحياة والخصب ادعاءً غيبياً: أن المرأة تعرف من كيفية اللذة التي تحس بها أن الرجل جعل منها أماً. هذه أسطورة ينبغي طرحها؛ لأن المرأة لا يكمنها أن تعرف هذا الحادث معرفة حدسية جازمة. بل تستقرئه اعتباراً من علامات أكيدة: إذ تنقطع عنها العادة الشهرية وتحس بالثقل والألم في ثديبها وتشعر بالدوار وبالرغبة في التقيؤ. وأحياناً تظن فقط أنها مريضة فينبهها الطبيب. حينئذ تصبح فريسة للنوع الذي يفرض عليها قوانينه المجهولة. ويرجع تقيؤها جزئياً إلى الغير في إفراز العصارات. وإذا كانت هذه الارتكاسات، غير المعروفة عند الحيوانات الثديية، تأخذ قسطاً من الأهمية فذلك لدوافع نفسية. إنها تظهر الطابع الحاد الذي يكتسبه الصراع بين النوع والفرد عند أنثى الإنسان. وحتى إذا كانت المرأة ترغب في الولد رغبة عميقة فإن جسمها يثور حينها ينبغي له أن ينجب.

ويؤكد «ستيكل» أن تقيؤ المرأة الحامل في «حالات القلق العصبية» يعبر دائماً عن نوع من الرفض للطفل. وإذا كانت المرأة تستقبله بخصام - لأسباب لا تقربها غالباً -فإن الاضطرابات المعوية تأخذ في الازدياد.

ويمكن أن تظهر في بعض الحالات الفكرة القائلة بالإنجاب عن طريق الفم والتي يمكن ملاحظتها عند الأطفال. وتشبه بعض النساء الحمل بمرض في الجهاز الهضمي. تروي «هـ. دوتش» قصة مريضة كانت تفحص تقيؤها بقلق لترى فيها إذا كان هنا أجزاء من الجنين؛ على أنها كانت تعلم فيها تقول، إن هذه الفكرة الثابتة سخيفة. ويعبر النهم وانحباس الشهية عن نفس التردد بين الرغبة في المحافظة على الجنين والرغبة في تحطيمه .. تعرفت إلى امرأة شابة كانت تشكو من تقيؤات فظيعة وقبض شديد؛ قالت لي هي نفسها ذات يوم أنه يخيل إليها، أنها تحاول في نفس الوقت طرح الجنين والمحافظة عليه.

إن الإمساك والإسهال يعبران دائماً عن الخليط نفسه من الرغبة والقلق؛ ويكون نتيجة ذلك أحياناً الإجهاض. وتكاد تكون الإجهاضات العفوية كلها ناشئة عن سبب نفسي. ومما يزيد في انزعاج المرأة أنها تعزو إليه أهمية زائدة وتزداد في الإصغاء إلى نفسها. وخاصة وحم النساء الحبالي المشهور، فإنه فكرة ثابتة ذات أصل طفولي. وهن يتشهين الأطعمة بصورة خاصة نتيجة لفكرة الخصب الغذائي القديمة. وهناك على كل حال، ترسيخ للوهم من قِبَل التقاليد فتترقب المرأة أن يحل بها وتتربصه بل وتخترعه. لقد قصوا علي حالة المرأة الشابة التي أحست بشهوة جنونية إلى السبانخ فهرعت إلى السوق لتشتريه

وكانت تدق على الأرض بشدة وبصبر فارغ وهي تنظر إليه حين طبخه. كانت تعبر عن شعور القلق بوحدتها، ولما كانت تعرف أنها لم تكن تتسطيع التعويل إلا على نفسها، فإنها شعور القلق بوحدتها، ولما كانت تعرف أنها لم تكن تتسطيع التعويل إلا على نفسها، فإنها كانت تعمل على إكفاء رغباتها بسرعة كبيرة.

- مس على إلغاء رعبه بسر - ... وصفاً مسلياً حالة وحم أوحيت إلى المرأة، من الناس وصفت الدوقة «داربانتيس» وصفاً مسلياً حالة وحم القلب وألم الأعصاب وشتى المحيطين بها: «إن الاعتناء الشديد يزيد الانزعاج ومرض القلب وألم الاعتناء الشديد يزيد الانزعاج أنواع الألم الذي يصاحب دائماً حالات الحمل الأولى. وقد خبرت ذلك .. كانت أمي هي التي ابتدأت ذات يوم وأنا أتناول العشاء عندها ...

قالت لي بغتة:

- آه ! يا إلهي، لم أفكر في أن أسألك عن وحمك.

فأجبتها بقولي:

- لا أشعر به أبداً.

قالت أمي:

لا تشعرين بالوحم، لا تشعرين بالوحم، إن ذلك لم يحدث قط! أنت مخطئة. لا
 شك في أنك لم تنتبهي إليه. سأتحدث مع حماتك في هذا الموضوع.

هكذا تشاورت الاثنتان فيها بينهها. وصرت أسمع «جونو» يسألني كل صباح: «أي شيء تشتهين يا لور». وأضافت شقيقة زوجي العائدة من فرساي إلى قائمة الأسئلة ما شاهدته من أشخاص مشوهين نتيجة لعدم تلبية الوحم.

وفي النهاية حلّ بي الخوف فأخذت أبحث في رأسي عن الأشياء التي تعجبني أكثر من غيرها فلم أجد شيئاً. أخيراً فكرت عَرَضاً أن الأناناس شيء طيب. وما أن أقنعت نفسي بأنني أشتهي الأناناس حتى شعرت برغبة شديدة فيه وازدادت هذه الرغبة لما علمت أنه ليس وقت الأناناس. حينئذ فقط شعرت بهذا الألم الفظيع الذي يجعلك في حالة الموت أو تلبية الرغبة.

ولما حصلت أخيراً على الأناناس دفعت عني الصحن وأنا أقول:

- لا أعرف ما حل بي ولكني لإ أستطيع أن آكل الأناناس.

إن النساء اللواتي يتلقين عناية زائدة أو يعتنين بأنفسهن كثيراً ما تظهر عليهن العوارض المَرضية أكثر من غيرهن. أما النساء المسترجلات واللواتي ينذرن أنفسهن لوظيفة التناسل فيجتزن تجربة الحمل بسهولة.

وتتبدل العلاقة بين الأم والجنين بامتداد الحمل. ويستقر الجنين استقراراً راسخاً في جوف أمه وتتكيف البنيتان الواحدة مع الأخرى ويجري بينها تبادل بيولوجي يسمح للمرأة باستعادة توازنها. ولا تعود تشعر بأنها فريسة النوع، بل هي التي تمتلك ثمرة أحشائها. في الأشهر الأولى كانت المرأة عادية وفيها بعد ستصبح أماً بشكل واضح فيعوض مجد الأمومة عن ضعفها. ونساء كثيرات يجدن حينئذ سلماً عجيباً في حملهن. ولا يعود أحد يطلب إليهن القيام بعمل أو بذل مجهود ولا يعود من شأنهن الاهتمام ببقية يعود أحلام المستقبل التي كانت تداعب مخيلتهن صارت حقيقة واقعة.

وترى المرأة نفسها أيضاً قد صارت محط الاهتهام. كانت كزوجة تتألم من تبعيتها للرجل، أما الآن فلم تعد متاعاً جنسياً أو خادمة، بل إنها تجسيد للنوع ووعد بالحياة والخلود. أما الأشخاص المحيطون بها فيحترمونها وحتى أن نزواتها بالذات تصبح مقدسة.

إن ذلك يشجعها، كما رأينا، على اختلاق الرغبات وتصور الوحم. تقول «هـ. دوتش» (إن الحمل يتيح للمرأة أن تظهر بعض الأفعال بمظهر العقلانية ولولاه لبدت سخيفة».

وهناك نساء أخريات يندفعن مع أهميتهن الجديدة ويتبنين أساطير الرجال: فيقابلن صفاء الفكر بليل الحياة الخصيب، والشعور الواضح بألغاز الباطن، والحرية الخصبة بثقل البطن. إن المرأة المرشحة للأمومة تحس بنفسها كينبوع، كجذر. وإذا غفت فنومها نوم الفوضى حيث تتخمر العوالم. ومنهن أيضاً من ينسين أنفسهن ويسحرن بالحياة التي تنمو ضمنهن.

وعلى العكس من ذلك، تألم النساء اللواتي يعتبرن أنفسهم متاعاً جنسياً ويحببن أنفسهن في جمال أجسامهن من رؤية أنفسهن دميهات مشوهات عاجزات عن استثارة الشهوة. ولا يبدو الحمل بالنسبة إليهن كعيد وإغناء بل كانتقاص لشخصهن.

نرى في كتاب «حياتي» لـ «إيزودورا دانكان»: «كان الطفل يُشعر بوجوده. وكان رى ي الجميل المرمري يتحطم ويتشوه، كنت أحس أحياناً وأنا أسير على شاطئ البحر بفيض من القوة والعزيمة وأقول في نفسي: هذا المخلوق الصغير سيكون لي، لي وحدى؛ . ي م م م الله الله الله أخرى أني حيوان بائس وقع في الفخ. وكنت أفكر غالباً وأنا لكن كان يخيل إليّ في أيام أخرى أني حيوان بائس وقع في الفخ. أتقلب بين اليأس والأمل، في تطوافي أيام صباي وفي نزهاتي الهائمة ... كل ذلك كان شيئاً قديماً ضائعاً في الضباب الذي يؤدي إلى انتظار الطفل، هذه التحفة الفنية الموجودة تحت متناول أية فلاحة. حينئذ بدأت تنتابني كل أنواع الرعب. وعبثاً كنت أحاول إقناع نفسي بأن لكل النساء أطفالاً وأن ذلك أمر طبيعي؛ ومع ذلك كنت أحس بالخوف. الخوف من أي شيء؟ طبعاً لا من الموت ولا من الألم. كان تشوه جسمي يزداد يوماً بعد يوم أمام عيني المندهشتين. وغالباً ما كنت أحس بنفس، بائسة مقهورة، بالرغم مني. الصراع مع الحياة، مع هذه العملاقة، لم يكن صراعاً متكافئاً؛ إلا أنني كنت أنتقل بفكري إلى الطفل الذي سيولد فتتبخر كل أحزاني. يا لها من ساعات قاسية، ساعات الانتظار في الليل! كم ندفع غالياً لنحصل على مجد الأمومة» .

وفي مرحلة الحمل الأخيرة يرتسم الانفصال بين الأم والطفل. وتشعر النساء بصور مختلفة بأول حركة من حركاته، بضربة رجله على أبواب العالم، على جوانب الجوف الذي يجبسه في معزل عن الدنيا. وبعض النساء يتلقين بدهشة هذه الإشارة التي تعلن عن وجود حياة مستقلة؛ وبعضهن يفكرن في أنفسهن بقرف كوعاء يتضمن شخصاً غريباً. ومن جديد يتكدر الاتحاد بين الجنين وجسم الأم وتحس المرأة بالضغط والتوتر وصعوبة التنفس. هذه المرة، لا يمتلكها النوع غير المميز بل يمتلكها هذا الطفل الذي سيولد. قبل الآن لم يكن سوى صورة وأمل، أما اليوم فهو حاضر حضوراً ثقيلاً. وإن حقيقته تخلق

كل انتقال مقلق؛ لذلك تبدو ولادة الطفل مخيفة جداً. وحينها تقترب المرأة من الأجل المحدد تعود كل مخاوف الطفولة إلى النشاط. فإذا أحست بنفسها ملعونة من قِبَل أمها نتيجة للشعور بالإثم أقنعت نفسها أنها ستموت أو أن طفلها سيموت. وقد وصف

تولستوي في قصته «الحرب والسلم» امرأة كانت ترى في الولادة حكماً بالإعدام وقد ماتت بالفعل.

تكتسب الولادة طابعاً مختلفاً بحسب الأحوال. فالأم تتمكن أن تحافظ في جوفها على كنز اللحم الذي هو قطعة ثمينة من ذاتها وتتمنى في الوقت نفسه الخلاص من شيء مزعج؛ تريد أن تمسك أخيراً بحملها بين يديها ولكنها تخاف من المسؤوليات الجديدة التي سيخلقها تحقيق هذا الحلم. قد تنتظر هذه الرغبة أو تلك ولكن المرأة تكون غالباً موزعة بين الرغبتين. وغالباً ما تزمع أن تثبت لنفسها وللمحيطين بها أنها تستطيع التغلب على التجربة بغير مساعدة ولكنها في الوقت نفسه تأخذ على العالم والحياة وعلى أقاربها هذه الآلام التي تحل بها وتتبنى عن احتجاج مسلكاً سلبياً. والنساء المستقلات يحاولن جهدهن أن يلعبن دوراً إيجابياً في اللحظات التي تسبق الولادة وأثناء الولادة بالذات؛ وإذا كن من النوع الطفولي فإنهن يتركن أمرهن بكل سلبية للقابلة والأمهاتهن. وبعضهن تدفعهن كبرياؤهن إلى عدم الصراخ كما يرفض بعضهن تلقي التوجيهات.

وبصورة عامة، يمكن القول إن النساء يعبرن في هذه الأزمة عن موقفهن العميق تجاه العالم بشكل عام وتجاه الأمومة بشكل خاص: فهن صابرات أو مستسلمات أو ملحات أو ثائرات ...

هذه الاستعدادات النفسية تؤثر تأثيراً بالغاً في مدة وصعوبة الحمل الذي يتعلق طبعاً بعوامل عضوية صرفة أيضاً. وإنه لأمر ذو دلالة أن المرأة تحتاج بصورة طبيعية إلى المساعدة لتنهض بالوظيفة التي أوكلتها إليها الطبيعة. وهناك فلاحات معتادات على الشدة يلدن بأنفسهن إلا أن وحدتهن تؤدي غالباً إلى موت الطفل أو إصابة الأم بأمراض غير قابلة الشفاء. ومن الطبيعي أن يكون الصراع بين مصلحة الفرد المؤنث ومصلحة النوع من الشدة، بحيث يؤدي غالباً إلى موت الأم أو الطفل. وإن توسط البشر عن طريق الطب والجراحة هو الذي أنقص إنقاصاً كبيراً، بل أزاح تقريباً، الطوارئ التي كانت كثيرة الوقوع سابقاً. وإن طرق التخدير المنتشرة في أميركا تنافي قول التوراة: «ستلدين في الألم».

تبدو الولادة بالنسبة إلى بعض النساء كاستشهاد، وبالنسبة إلى بعضهن تبدو كتجربة سهلة التحمل. وقليلات هن اللواتي يشعرن بلذة جنسية بسبب الولادة.

كتبت إحداهن تقول: «إنني مخلوقة شهوانية لدرجة أن الولادة نفسها هي، بالنسبة التبت إحداهن تقول: «إنني مخلوقة شهوانية لدرجة أن الولادة نفسها هي، بالنسبة إلى، عملية جنسية كانت عندي سيدة جميلة جداً تغسلني وتحقنني؛ وكان ذلك كافياً إلى، عملية جنسية كانت عندي الكبير المصحوب بالرعشات العصبية».
ليضعني في حالة من التهيج الكبير المصحوب بالرعشات العصبية».

* * *

والعلاقات الأولى بين الأم ووليدها هي أيضاً مختلفة. فبعض النساء يتألمن من الفراغ الذي يشعرن به في جسمهن ويخيل إليهن أن كنزهن قد سُرق منهن. ولكن كل أم شابة تحس في الوقت نفسه بفضول متعجب. إنها لأعجوبة غريبة أن يرى المرء وأن يمسك بيديه كائناً حياً تكون ضمن ذاته وخرج من ذاته. لكن ماذا كان بالضبط دور الأم في هذه الحادثة الخارقة التي قذفت إلى الأرض بوجود جديد؟ إنها تجهل ذلك. لولاها لما كان الطفل موجوداً ولكنه مع ذلك يفلت منها. إنها لتحس بالحزن المندهش وهي تراه في الخارج منقطعاً عن ذاتها أو غالباً ما تحس بخيبة الأمل. وهي تريد أن تحس به تابعاً لها بصورة أكيدة مثل يدها الخاصة.

إنها لا تملك أي ماض مشترك مع هذا المخلوق الصغير الأجنبي وكانت تنتظر أن يكون مألوفاً لديها مباشرة. إلا أنه قادم جديد وهي مندهشة من اللامبالاة التي تقابله بها. لقد كان صورة وشيئاً لا متناهياً أثناء الحمل. وكانت الأم تلعب في مخيلتها دور أمومتها المقبلة. وإنه الآن شخص صغير محدود موجود وجوداً واقعياً وإنه ضعيف وملخ. ويتهازج الفرح بوجوده الفعلي مع الأسف من أنه ليس سوى هذا. ولكن عن طريق الإرضاع تجد ثانية كثير من الأمهات الشابات علاقة حيوانية أليفة مع طفلهن. والإرضاع أكثر إرهاقاً من الحمل ولكنه يتيح للمرضع أن تمد حالة الفرحة والأمن التي كانت تتمتع بها وهي حامل.

إلا أن هناك نساء لا يستطعن تغذية طفلهن وتدوم لديهن اللامبالاة المندهشة الخاصة بالساعات الأولى إلى أن يجدن مع الطفل علاقات ملموسة.

وهناك أيضاً أمهات كثيرات يحل بهن الخوف من مسؤولياتهن الجديدة. فخلال الحمل، لم يكن عليهم إلا أن يتوكلن على جسمهن ولم يكن تطلب منهن أية مبادرة. أما الآن فأمامهن شخص له عليهن حقوق. وإن بعضهن يدغدغن طفلهن ما دمن في المستشفى فرحات ولا مباليات، إلا أنهن يبدأن بالنظر إليه كعبء حالما يعدن إلى بيوتهن. وحتى الإرضاع لا يسبب لهن أي فرح، بل على العكس، فهن يخفن على صدورهن. إن فم الطفل يجرحهن ويبدو لهن أنه يمتص منهن القوة والحياة والسعادة. ويفرض عليهن عبودية صعبة مع أنه لم يعد جزءاً منهن. إنه يبدو لهن كطاغية فينظرن نظرة الخصام إلى هذا الشخص الأجنبي الصغير الذي يهدد جسمهن وحريتهن وكل ذاتهن.

* * *

وتتدخل عوالم أخرى كثيرة. فعلاقات المرأة بأمها تحافظ على كل أهميته. تروي (هـ. دوتش) حالة مرضع شابة كان حليبها ينضب كلما زارتها أمها لتراها. وهي تطلب المساعدة غالباً ولكنها تغار من العناية التي تقدمها امرأة أخرى للطفل.

كما أن لعلاقات الأب مع الطفل وما يحس به من عواطف تأثيراً كبيراً أيضاً. إن مجموعة من الأسباب الاقتصادية والعاطفية تعين وضع الطفل كعبء وقيد أو كتحرير وأمن.

وهناك حالات يتحول فيها الخصام إلى حقد ظاهر يتجلى في الإهمال البالغ أو المعاملة السيئة.

ويعتبر الخبراء في التحليل النفسي أن الأمهات اللواتي عندهن فكرة ثابتة يفعلن شراً بأطفالهن واللواتي يتخيلن حوادث فظيعة، يشعرن كلهن تجاه أطفالهن بعداء يحاولن كبته.

إن ما يميز هذه العلاقة عن سائر العلاقات البشرية أن الطفل نفسه لا يتدخل في الأيام الأولى. وليس لابتساماته وغمغهاته مدلول إلا ما تفترضه الأم. وكي يبدو الطفل ساحراً أو مزعجاً يتعلق الأمر كله بالأم، لا بالطفل. لذلك تحس النساء الباردات السوداويات اللواتي كن يتوخين فيه الصحبة والدفء بخيبة الأمل.

إن حادث الانتقال إلى الأمومة كغيره من حوادث الانتقال يسبب خيبة أمل مكدرة عند الأشخاص الذين يأملون أن يكون بوسع حادث خارجي أن يجدد حياتهم ويبررها.

هذا هو الشعور الذي نجده عند صوفي تولستوي. فقد كتبت: «كانت هذه الأشهر التسعة أفظع ما رأيت في حياتي. أما الشهر العاشر فالأجدر أن لا أتحدث عنه».

وهناك أمثلة أخرى تثبت عدم وجود «غريزة» الأمومة. هذه الكلمة لا تطبق أبداً على النوع البشري. إن موقف الأم يتحدد بمجموع وضعها وطريقة أخذ هذا الوضع على عاتقها.

وإذا كانت بعض النساء اللواتي يكن «منجبات» أكثر منهن أمهات، يتوقفن عن الاهتمام بالطفل حالما يبلغ الفطام أو حالما يولد؛ ويتمنين أن يحلن من جديد، فإن كثيرات من النساء يشعرن، على العكس، بأن الانفصال نفسه هو الذي يعطهن الطفل؛ فهو لم يعد قطعة غير متميزة من ذاتهن بل هو قطعة من العالم يمكن رؤيته ولمسه.

تعبر اسيسيل سوفاج، عن بهجة الأمومة الممتلكة المستحوذة بقولها:

هأنت ذا حبيب ي الصغير عسلى سريس أم لك الكبير عسلى سريس أم لك الكبير يمكنن ي حبور يمكنن في حبور ووزن شأن غدك النضير ووزن شأن غدك النصغير يسا مرحباً تمثيالي الصعغير مسن الدما واللحسم والسروز يسا صورتي وثورة السعور

تأخذ الأمومة شكلاً آخر حينها يكبر الطفل؛ ففي الأيام الأولى لا يكون سوى طفل مثل غيره من الأطفال وليس له إلا وجود عام؛ ثم تأخذ فرديته بالظهور شيئاً فشيئاً. والنساء المتحكمات يشعرن حينئذ تجاهه بالبرود، وعلى العكس من ذلك، يبدأ بعضهن الآخر بالاهتهام به. وتصبح علاقة الأم بالطفل متزايدة التعقيد. فهو صورتها ولكنه في الوقت نفسه شخص مستقل قد يعصاها. إنه موجود وجوداً حقيقياً ولكنه موجود في المستقبل وجوداً خيالياً تصوراً كيافع وبالغ. هو ثروة وكنز من جهة، وعب وطاغية من جهة أخرى.

إن الأم كالعاشقة تشعر بالخيلاء، إذ ترى نفسها ضرورية؛ فهي ترى تبريراً لذاتها في استجابتها لما يطلب منها. على أن صعوبة حب الأم وعظمته أنه لا يستند إلى المبادلة. فالمرأة لا ترى أمامها رجلاً أو بطلاً بل كائناً صغيراً تتمتع بالشعور في جسم ضعيف. وتبقى أمامه وحيدة ولا تنتظر منه أي ثواب مقابل عطاياها التي لا تجد تبريراً لها إلا في حرية المرأة ذاتها. هذا الكرم يستحق المديح الذي لا يكف الرجال عن إغداقه على المرأة. ولكن التعمية تبدأ حينها يعلن « دين الأمومة» إن كل أم نموذجية، يمكن لتضحية الأم أن تكون نموذجاً كامل الأصالة؛ ولكن الأمومة هي عادة توفيق عجيب بين الأنانية والغيرية والحلم والصدق وسوء النية والتضحية والقسوة.

إن الخطر الأكبر، التي تعرض عاداتنا الطفل إليه، هو أن الأم التي يُسلّم إليها الطفل تسليماً تاماً هي تقريباً امرأة غير مكتفية؛ فهي باردة أو عطشى من الناحية الجنسية، وتشعر أنها أقل من الرجل من الناحية الاجتهاعية، وهي غير متمكنة من العالم والمستقبل؛ لذلك تعاول التعويض عن هذا الكبت من خلال الطفل. فإذا أدركنا إلى أي حد يجعل وضع المرأة صعباً عليها أن تحقق ازدهارها التام، وما يكمن في أعهاق نفسها من رغبات وثورات ومطالب فإننا نفزع لأن أمر الطفل الأعزل يُترك إليها. وكها كانت تهدهد وتعذب دميتها بصورة دورية لما كانت طفلو، فإن مسلكها الحالي مسلك رمزي؛ إلا أن هذه الرموز حقيقة واقعة شديدة بالنسبة إلى الطفل. فالأم التي تضرب الطفل لا تضربه وحده فقط، أو أنها لا تضربه مطلقاً إذا جاز القول، بل تنتقم من الرجل ومن العالم ومن ذاتها ... ولكن الطفل هو الذي يتلقى الضربات.

وإلى جانب هؤلاء الأمهات الساديات، يوجد كثيرات من ذوات النزوات وأن ما يسرهن هو التحكم. فالطفل دمية إذا كان صغيراً جداً؛ وفيها بعد يردن أن يكون عبداً يطيعهن إطاعة عمياء. والنساء لا يزهدن غالباً في الحصول على مكافأة من العناية التي يوفرنها للطفل؛ إنهن يصغن من خلاله كائناً خيالياً يرى أن أمه تستحق الإعجاب ويفرضن عليه أن يشبه زوجهن، أو بالعكس، أن لا يشبهه، أو أن يجسد أباً أو أماً أو جداً مبجلاً.

إن هذا العناد في التربية وهذه السادية الخاضعة للنزوة يتمازجان غالباً؛ وتحتج الأم عن غضبها بأنها تريد إعداد طفلها.

وإن بعض النساء كي يعوضن عن فراغ قلوبهن ويجازين خصومة لا يردن الإقرار وإن بنس أسلس في ويتخلين عن كل لذة وعن كل حياة شخصية، مما يسمح بها، لا يحتملن ابتعاد الطفل عنهن ويتخلين عن كل لذة وعن كل حياة شخصية، مما يسمح س - مررب ، ر للطفل. إن مشاهد الخضوع هذه تسبب لدى الطفل شعوراً بالإثم يؤثر في كل حياته. وإن ر . العذر الكبير للأم أن الطفل بعيداً عن أن يجلب لها استكمال الذات الذي وُعدت به منذ طفولتها؛ فتقتص منه عن التعمية التي كان الأم ضحية لها. كانت تستطيع التصرف بدمياتها دون أن تكون خاضعة للمسؤولية؛ أما الآن فالمجتمع زوجها وأمها وكبرياؤها الخاص يسألونها الحساب عن هذه الحياة الصغيرة الأجنبية كما لو كانت من صنعها.

إن مصالح الأبوين ومصالح الطفل لا تلتقي دائهًا، وعن ذلك تنجم المأساة. فهو لا يفهم التفسيرات التي تحاول أمه أن تبديها؛ وهي لا تستطيع النفوذ إلى داخل شعوره؛ وإن أحلامه ورغباته تشكّل عالماً مغلقاً غير شفاف. والأم لا تستطيع أن تنظم إلا من المخارج وبصورة متخبطة هذا الكائن الذي يشعر بهذه القوانين التجريدية كعنف سخيف لامعنى

وحينها يكبر الطفل يبقى عدم التفاهم هذا، فالطفل يدخل عالماً من الصالح والقيم تجهله الأم. وإن هذه قد يبلغ غيظها حد ذرف الدموع لأنها تحاول قيادة كائن لا يمكن التجاوب معه.

إن الوضع يختلف بحسب كون الطفل صبياً أو بنتاً. ورغم ان الصبي أصعب في قيادته من البنت فإن النساء يفضلن الذكور لما لهم من نفوذ وامتيازات فعلية. فهن يقلن: (إنه لعظيم أن تنجب الأم ذكراً». قلنا إنهن يحلمن بإنجاب «بطل» والبطل يكون عادة من الجنس المذكر. فالابن سيكون قائد رجال ومبدع أعمال، وسيفرض إرادته فوق سطح الأرض وستساهم أمه في خلوده وسيعطيها هو ما لم تستطع هي عمله. ومن خلاله

إن للمرأة موقفاً ملتبساً إزاء سمو الذكر. وإذا كانت حياته الزوجية أو الغرامية قد جعلته معادية للرجال فإنها تحس بالاكتفاء حينها تتحكم بالمخلوق الذكر في شكله الطفولي. وإن أحلامها أكثر تناقضاً فهي تريدها لا متناهية وواقعة في قبضة يدها في الوقت نفسه. ومن حسن حظ الغلام أنه يستطيع بسهولة التحرر من هذا التسلط لأن العادات والمجتمع تشجعه على ذلك. والأم نفسها ترضخ للأمر لأنها تعرف أن الصراع مع الرجل صراع غير متكافئ. وتغري نفسها بأن تصبح الأم الحزينة أو أن تغذي الكبرياء بأنها أنجبت قاهرها.

إلا أن الأم لا ترى في ابنتها فرداً من الفئة المختارة المميزة بل تبحث من خلالها عن صورتها، لذلك يأخذ الصراع بين الأم وابنتها شكلاً حاداً.

هناك نساء راضيات عن حياتهن رضاءً يدفعهن إلى إعطاء بناتهن نفس ما كان لهن من حظ. وبعضهن يدفعهن الاشمئزاز من جنسهن إلى إعطاء بناتهن تربية الذكور .. وقد ينظرن إلى الفتاة التي هي صورة منهن، على أنها مخلوقة من النوع السامي ليعوضن عن نقصهن؛ أو أنهن يحاولن أن يفرضن على ابنتهن نفس مصيرهن. فتقول الواحدة منهن لابنتها: «ما كان حسناً بالنسبة إلى فهو حسن بالنسبة إليك».

ولا تنشأ النزاعات الحقيقية إلا حينها تكبر الفتاة. كانت هذه تتمنى وهي صغير أن تؤكد استقلالها وكان ذلك يبدو في عين الأم إنكاراً بغيضاً لأياديها وفضلها. فهي لا ترضى أن تصبح صورتها شخصاً آخر. هكذا يهدم استقلال البنت آمالها. فتشعر بغيرة مزدوجة: فهي تغار من الناس الذين يأخذون ابنتها منها كها تغار من ابنتها التي تغزو وتسرق منها جزء من العالم. وتتسلط هذه الغيرة أولاً على علاقات البنت بأبيها. لأن الأم تحب أن تسود سيادة تامة على عالمها النسوي وتريد أن تكون الوحيدة التي لا يمكن الاستعاضة عنها؛ وها هي ذي ابنتها الشابة تعيدها إلى وظيفتها العامة الصرفة. فإذا غابت يومين مثلاً عن البيت فإنها توبخ ابنتها إذا وجدت البيت في حالة فوضى ولكنها تبلغ ثورة الغضب عن البيت فإنها أن الحياة العائلية سارت سيراً تاماً بدونها. إنها لا ترضى أن تصبح ابنتها حقاً وفعلاً نسخة ثانية عنها تحل محلها. ولما كانت هي حبيسة الحياة الجدية فإنها تحسد ابنتها على كل المشاغل والتسليات التي تنتشلها من ملل الحياة المنزلية.

وتنتهي الأم بقبول انكسارها طوعاً أو كرهاً وتسود بينها وبين ابنتها الشابة صداقة معذبة. إلا أن الأم تبقى إلى الأبد خائبة الظن شاعرة بالحرمان في حين تعتقد البنت غالباً أن اللعنة تلاحقها. إن الوصف السابق يُظهر لنا خطأ اعتقادين شائعين: الأول: أن الأمومة تكفي لإرضاء المرأة.

والثاني: أن الطفل يجد سعادة أكيدة بين ذراعي أمه.

إن علاقة الأم بأطفالها تتحد ضمن الإطار العام للحياة. وترتبط بعلاقاتها مع زوجها وماضيها ومشاغلها وذاتها. وإن العلاقة الزوجية والحياة المنزلية والأمومة تشكل مجموعة مترابطة. فإذا كان الأم متفقة مع زوجها حملت أعباء المنزل بفرح، وإذا كانت سعيدة مع أطفالها أصبحت متساهلة مع زوجها. إلا أن هذا الانسجام صعب التحقيق لأن المهام المختلفة المنوطة بالمرأة لا تتفق جيداً مع بعضها بعضاً.

الفَصْيِلِ الثَّالِينِ

الحياة الاجتماعية

ليست الأسرة مجموعة منغلقة على نفسها، بل هي على اتصال مع خلايا اجتهاعية أخرى. وليس المنزل «حياة داخلية» يقبع الزوجان ضمن حدودها فحسب، بل هو أيضاً تعبير عن مستوى معيشة وثروة وذوق ينبغي أن يُعرض أمام عيون الآخرين. وعلى عاتق المرأة خاصة يقع عبء تنظيم الحياة الخارجية. فالزوج مرتبط بالجهاعة كمنتج وكمواطن بوشائج التضامن العضوي القائم على تقسيم العمل؛ أما العائلية فهي شخص اجتهاعي يتحدد بالأسرة والطبقة والوسط والعرق. والمرأة هي الأقدر على تجسيدها لأن علاقات الزوج المهنية لا تتفق غالباً مع قيمته الاجتهاعية بينها تستطيع المرأة المتحررة من روابط العمل أن تكرس نفسها على معاشرة أمثالها. وأن واجبها الاجتهاعي الخارجي في تمثيل العائلة يختلط مع ما تشعر به من مسرة في إظهار نفسها.

إنها تعني بملابسها وقت الخروج أو الاستقبال. كما أن لزينتها صفتين: تهدف الزينة أولاً إلى إبراز مقام المرأة الاجتهاعي، وتجسد أيضاً الأنانية النسوية. إن العناية بالجهال واللباس نوع من العمل بالنسبة إلى المرأة التي يبدو لها أنها تصطفي ذاتها وتخلقها خلقاً جديداً. هكذا تضطرها الأعراف إلى أن تخلع نفسها على صورتها. وأن المجتمع نفسه يطلب من المرأة أن تجعل من نفسها متاعاً جنسياً، وأن هدف الأزياء التي تخضع المرأة لها ليس أن يُبرزها كفرد مستقل، بل ليقدمها فريسة لرغبات الذكور.

إن ملمس الحرير الناعم يعوض عن قسوة العالم الجنسي. وإذا كانت أكثرية السحاقيات يرتدين الملابس على طريقة الذكور فليس ذلك عن اقتداء بهم وعن تحدِّ للمجتمع فقط؛ إنهن غير محتاجات إلى دغدغة المخمل أو الساتان لأنهن يتلقفن مزاياه السلبية على الجسم النسوي. والمرأة توجِد ذاتها مع غنى العالم وتذوب في ثرواته. والتي لا تتحكم بحبها للأشياء الثمينة وما تحويه من رمز تنسى وجهها الخاص وقد تُعنى بلباسها بصورة غريبة. فالفتاة الصغيرة مثلاً تحسب نفسها جميلة إذا تحلت بالشرائط لأنها توحد ذاتها مع زينتها فالفتاة الصغيرة مثلاً تحسب نفسها جميلة إذا تحلت بالشرائط لأنها توحد ذاتها مع زينتها العجيبة.. وقد ندهش أحياناً لزينة بعض العجائز التي تلفت النظر إلى تجاعيدهن، ولأنهن يكن قد زهدن في الإعجاب وصارت الزينة بالنسبة إليهن مجرد لعبة كها كانت أيام طفولتهن.

وعلى العكس من ذلك، قد يُمكن للمرأة الأنيقة أن تنشد اللذائذ الحسية أو الجمالية في زينتها ولكن يجب أن توفق بينها وبين انسجام صورتها. إنها لا تحب الأشياء التي تزينها بل تحب نفسها مزينة.

ليست الزينة تبرجاً فقط، بل هي أيضاً تعبير عن وضع المرأة الاجتماعي. والمومس وحدها تُظهر الناحية الأولى فحسب، لأن مهمتها أن تكون متاعاً جنسياً. وكها كانت تعلن عن مهنتها سابقاً بتغطية ثوبها بالورود فإنها تعلن عنها اليوم بالأحذية العالية والساتان الملتصق بجسمها وبتبرجها الفاضح وعطرها الثقيل. ويُوجَّه اللوم عادة إلى المرأة التي تلبس مثل المومسات؛ لأن مزايا المرأة الجنسية تندمج بالحياة الاجتماعية، ولا ينبغي لها أن تبرز إلا من خلالها.

وإذا كان المرأة التي تستثير بوضوح رغبة الرجل توحي بسوء النوع، فإن التي تنفره ليست أحسن منها؛ إذ تبدو كأنها سحاقية تقتدي بالرجال أو مصروعة تحاول لفت النظر. والأعراف هي التي تتكفل بتعيين الحد الوسط بين الحشمة وعرض المفاتن.

إن هذا المدلول الاجتماعي للزينة يسمح للمرأة بأن تعبر عن موقفها تجاه المجتمع، بطريقتها في اللبس. فإذا كانت ممتثلة للنظام القائم أسبغت على نفسها شخصية رصينة، وإلا فإنها تؤكد بأصالتها الخاصة رفضها ما هو متعارف عليه. ومما يلفت النظر أن المرأة «المتحررة» في كثير من الروايات، تبرز نفسها بجرأتها في الزينة التي تُظهر صفتها كمتاع جنسي، أي أنها تبرز تبعيتها.

وحتى لو لبست كل واحدة بحسب وضعها، فذلك نوع من التمثيل. فحالما تبدو المرأة متزينة متبرجة فإنها تصبح مثل اللوحة أو التمثال أو الممثل على المسرح. إن هذا الجزء الثالث: أوضاء إلى أو

الخلط بينها وبين شيء خيالي وكامل مثل أبطال القصص هو الذي يعجبها وهي تبذل جهدها كي تذوب فيه. وكلما تبنت زينة جديدة حسبت نفسها شخصاً جديداً. ويوماً بعد يوم تتكرر هذه اللازمة: «كنت فاتنة في اللون الأسود ... في اللون المرادي كنت فاتنة ... كنت في اللون الأبيض فاتنة». فإذا كانت الزينة تكتسب هذه الأهمية البالغة بالنسبة إلى كثير من النساء فلأنها تضع بين أيديهن العالم وذاتهن بصورة وهمية.

وبها أن المرأة متاع أصبح من المفهوم أن تعدل طريقة لباسها وتبرجها من قيمتها الضمنية. وتعتبر الأناقة سلاحاً ومدعاة للاحترام ورسالة توصية.

ولكنها عبودية في الوقت نفسه؛ لأن القيم التي تنجم عن الأناقة لا تأتي مجاناً، بل يجب دفع ثمنها غالياً لدرجة أن مفوضي الشرطة يفاجئون أحياناً في المخازن الكبرى إحدى نساء المجتمع أو إحدى الممثلات وهي تسرق عطوراً أو جوارب حريرية ... وبعض النساء يتعاطين البغاء أو «يقبلن المعونة» كي يلبسن. والزينة هي التي تعين مقدار حاجتهن إلى النقود.

على أن حسن اللباس يتطلب أيضاً زمناً وعناية وينجم عن مثل هذا العمل أحياناً بهجة حقيقية. وفي هذا الميدان أيضاً مجال «لاكتشاف كنوز خفية» والمفاصلات والحيل والاستنباط؛ وإذا كانت المرأة ماهرة فقد تصبح مبدعة. وتبدو أيام العرض بالنسبة إليها كمغامرات جنونية. والثوب الجديد هو وحده بمثابة عيد.

وتستطيع المرأة اليوم أن تُعنى بجسمها وتكيفه بالرياضة والاستحمام والتدليك والنظام الغذائي، فتتحكم بوزنها ولون بشرتها؛ كما تسمح لها أصول التجميل الحديثة أن تضيف إلى جمالها مزايا إيجابية. ولكن عليها أن تجابه الزمن لأن الجسم يُبلى مع الوقت. وإن ما تؤول إليه كل صيرورة حية من انحطاط مخيف يدفع بعض النساء الباردات أو المحرومات إلى الفزع من الحياة نفسها.

وينغص عنادهن السلبي حياتهن وحياة الآخرين: الضحك الزائد يجعد الوجه، الشمس تفسد البشرة، الأمومة تجعل الوجه والجسم دميمين ... إلخ. إلا أن كل هذا الاعتناء لا يمنع ظهور الشعر الأبيض. وهي تعرف منذ طفولتها أن لا مفر من هذا المصير.

أما مطالب الزوج فتتصف بالازدواج. فإذا كانت زوجته جذابة جداً أحس بالغيرة؛ يبد أن كل زوج يود أن تكون زوجته أنيقة. وقد رأينا أن القيم الجنسية والاجتماعية في الزواج لا تنسجم تماماً. هذا التناقض ينعكس هنا أيضاً. فالمرأة التي تبرز جاذبيتها الجنسية تبدو رديئة بالنسبة إلى زوجها. وإذا لبست ببساطة فإنه يقرها على ذلك ولكن ببرود. إنه لا ينظر إليها بعينيه الخاصتين بل يتفحصها من خلال عيون الآخرين. وإذا كان الرجل يب المرأة في عربها حباً ملتهباً فإنه يهواها بغض النظر عن تبرجها. وعلى العكس من ذلك، إذا كفّ عن حبها فأجمل ثوب في العالم يصبح عديم الجدوى. إن الزينة تصلح أن تكون وسيلة للغزو ولا تصلح أن تكون سلاحاً دفاعياً. وميزتها الخاصة أنها تخلق السراب وتعرض للنظر شيئاً خيالياً. إلا أن السراب يتبدد في العشرة اليومية والعواطف الزوجية مثل الحب الجسمي تجري في ميدان الواقع.

كثيراً ما يقال إن المرأة تلبس كي تثير غيرة النساء الأخريات. هذه الغيرة هي فعلاً إشارة واضحة إلى النجاح ولكنها ليست هدفاً. إن المرأة تبحث من خلال الآراء المعجبة عن تأكيد مطلق لجمالها وأناقتها وذوقها أي عن تأكيد لذاتها. إنها تلبس لتظهر نفسها، وتظهر نفسها لتصبح، شخصاً كائناً. وبذلك تخضع نفسها لتبعية مزدوجة. إن تضحية ربة البيت نافعة وإن لم يُعترف بها، أما جهد المتأنقة فيذهب هباء إن لم يطلع عليه أحد. فالمرأة تنشد تقييماً نهائياً لذاتها وهذا التطلع إلى المطلق يجعل بحثها مرهقاً. إذ يكفي أن ينتقد شخص واحد فقط قبعتها حتى تكون هذه القبعة غير جميلة. والثناء يخدعها ولكن يكفي تكذيب واحد لتهديه. ولما كان المطلق لا يتجلى إلا بسلسلة من الظهور لامتناهية فلا يمكنها أن تربح نهائياً. لذلك تكون المتأفقة حساسة متأثرة. ولذلك أيضاً قد يمكن لبعض النساء الجميلات أن يقتنعن بحزن أنهن غير جميلات وغير أنيقات وأنهن يحتجن إلى استحسان علوي يصدر عن حكم مجهول الهوية. إنهن ينشدن جوهراً ذاتياً يستحيل استحسان علوي يصدر عن حكم مجهول الهوية. إنهن ينشدن جوهراً ذاتياً يستحيل يعب عليهن هفوة لأنهن هن اللواتي يبنين قواعد النجاح والفشل. أولئك هن القادرات يعب عليهن هفوة لأنهن هن اللواتي يبنين قواعد النجاح والفشل. أولئك هن القادرات على اعتبار أنفسهن ناجعات نجاحاً نعوذجياً، ولكن هذا النجاح مع الأسف لا يجدي شيئاً ولا ينفع أحداً.

190 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

وتقتضي الزينة الخروج والاستقبال، بل إن ذلك هو الهدف الأصلي منها. وفي أغلب الأحيان، بينها ينصرف الزوج إلى أعهاله اليومية تقوم المرأة بواجباتها الاجتهاعية. وقد وصف السأم الذي يخيم على هذه الاجتهاعات النسائية كثيراً: ينجم ذلك عن أن النساء المجتمعات للقيام بالتزاماتهن الاجتهاعية ليس لديهن ما يتناقلنه. فلا يوجد هناك مثلاً أية مصلحة مشتركة تربط بين زوجة المحامي وزوجة الطبيب. أما الحديث عن الأطفال والمتاعب المنزلية فوقعه غير حسن في محادثة عامة. فلا يبقى أمامهن إلا الكلام عن الطقس وعن آخر قصة تثير الاهتهام وبعض الأفكار العامة المستمدة من أزواجهن.

ولا يعني الاستقبال، بالنسبة إلى ربّة البيت، تلقي الآخرين في بيتها الخاص فحسب، بل إنها تعرض ما لديها من أواني فضية وزجاجية وما شاكل ذلك.

إن الصداقات النسوية التي تعقدها المرأة ثمينة بالنسبة إليها وتختلف في طابعها عن العلاقات السائدة بين الرجال. فهؤلاء يتناقلون فيها بينهم بصفتهم أشخاصاً مشاريعهم الشخصية من خلال الأفكار. أما النساء فيتبادلن الأسرار والوصفات؛ ويتحدن مع بعضهم بعضاً ليشكلن عالماً معاكساً لعالم الرجال؛ ويقاربن بين تجاربهن. ويصبح الحمل والولادة والأطفال والشؤون المنزلية الأحداث الأساسية في التاريخ البشري.

عن قيمة هذه العلاقات تتجلى في صدقها وصحتها. فالمرأة أمام الرجل ممثلة، وهي تكذب إذ تعرض أمامه شخصية خيالية من خلال زينتها وحركاتها؛ أما مع النساء الأخريات فهي ليست في حالة حرب بل منهمكة في تهيئة زينتها وإعداد حيلها. والنساء يشعرن بتضامنهن شعوراً عفوياً أكثر من الرجال. ولا يلتفتن نحو عالم النساء بل يلتفتن جيعاً نحو عالم الذكور؛ وكل واحدة منهن تتمنى أن تحتكر قيمة لشخصها، على أن كل واحدة منهن ترى في الأخرى غريمة في ميدان التبرج والحب خاصة.

النساء هن لبعضهن بعضاً رفيقات في الأسر أنهن يتبادلن المعونة كي يتحملن سجنهن ولتهيئة هروبهن إذا اقتضت الضرورة، ولكن المنقذ لا يأتي إلا من عالم الذكور. بالنسبة إلى أغلبية النساء يفقد الزوج من تأثيره؛ إلا أن الرجل يبقى مع ذلك، حقيقة العالم والسلطة العليا وباعث اللذة والطمأنينة.

الفَطَيْكُ الْهُ الْوَالِيْعُ

مومسات ومحظيات

تعد الدعارة من متمهات الزواج الحتمية. وقد قال مورجان: "إن العُهر يتبع البشرية في موكب حضارتها كظل رهيب يخيم على العائلة». وقال ماندفيل في كتاب له أحدث ضجة كبيرة: "من الواضح أنه توجد ضرورة تدفع المجتمع إلى التضحية بقسم من النساء في سبيل المحافظة على القسم الآخر». أي إن وجود طائفة من "الفتيات التائهات» يسمح للمجتمع بمعاملة "المرأة الشريفة» بالاحترام والتقدير اللائقين بها. وتشكل المومس بالنسبة للرجل مبرراً لقباحاته، فهو يحملها نتائج تصرفاته الشنيعة، ثم ينبذها من المجتمع. وسواء كانت المومس تمارس الدعارة في ظل نظام قانوني يضعها تحت مراقبة سلطات الأمن، أو كانت تعمل في السرية والخفاء، فإنها تُعامَل من قِبَل الناس في كلا الحالتين كالمنبوذة.

غير أن حالة المومس من وجهة النظر الاقتصادية تماثل حالة المرأة المتزوجة. وقد قال مارو: "إن الفرق بين النساء اللواتي يبعن أنفسهن عن طريق الدعارة والبغاء، وبين اللواتي يبعن أنفسهن بواسطة الزواج، ينحصر في ثمن ومدة عقد البيع». ويكون العمل الجنسي بالنسبة للطرفين عبارة عن خدمة تلتزم بها الثانية "المتزوجة" مدى الحياة تجاه رجل واحد، وأما الأولى "المومس" فتؤديها لعدد من الزبائن الذين يدفعون الثمن بصورة مجزأة. ومن وجهة نظر ثانية، تتمتع المرأة المتزوجة بحماية رجل واحد ضد كل الرجال، أما الأولى فإنها محمية من قِبِل جميع الرجال ضد احتكارها لحساب رجل واحد. لكن الاختلاف

الرئيسي بين المرأة المتزوجة والمومس يكمن في أن المجتمع يضطهد المرأة الشرعية بصفتها الرئيسي بين المرأة المتزوجة، لكنها تلقى احترامه بصفتها إنساناً بشرياً، وقد بدأ هذا الاحترام يتغلب امرأة متزوجة، أما المومس فإنها لا تتمتع بأي حق من بشكل جدي على الاضطهاد لدى المرأة المتزوجة، أما المومس فإنها لا تتمتع بأي حق من حقوق الإنسان البشري بل تلخص حياتها بالوقت نفسه جميع أشكال العبودية الأنثوية.

ما هي العوامل التي تدفع المرأة إلى مزاولة الدعارة؟ لم يعد هنالك أي إنسان يعتقد بصحة نظرية الومبروزوا التي تساوي بين المومسات والمجرمين، ومن المحتمل أن نتائج الإحصاءات التي تؤكد بأن المستوى الفكري للمومسات هو أدنى من الوسط، هي نتائج صحيحة، لأن النساء اللواتي لا يتمتعن بقدرة فكرية كافية يفضلن اختيار مهنة لا تتطلب منهن أي جهد فكري أو أي اختصاص في فرع من الفروع. لكن هنالك عدد كبير من المومسات يتمتعن بمستوى فكري عادي، ومن بينهن عدد من نادرات الذكاء. ودلت الدراسات من جهة ثانية على أن جنوحهن إلى البغاء لا يعود في أغلب الأحيان إلى أسباب وراثية أو عاهات جسهانية. ولا شك في أن السبب الرئيسي في انتشار الدعارة يعود إلى اللوام منظر المومسات وهن يتسكعن في الشوارع طالما بقيت مؤسسات البغاء والشرطة موجودة في عالمنا المليء بالمتناقضات. وإذا كان بوسع المومس أن تكسب عيشها بطريقة أخرى فإن اختيارها لهذه المهنة لا يجب أن يدفعنا للحكم عليها بوجود ميول فطرية داخل نفسها تدفعها إلى امتهان البغاء، والأحرى بنا أن نوجه اللوم إلى هذا المجتمع الذي جعل نفسها الدفاء في نظر المومس أشد المهن سهولة وأكثرها ربحاً.

إن الناس يتساءلون: لماذا اختارت هذه المهنة؟ والأحرى بهم أن يتساءلوا: لماذا كان من الواجب أن لا يقع اختيارها عليها. وقد لوحظ أن عدداً كبيراً من «الفتيات» يأتين من أوساط خادمات المنازل، لأن الخادمة تتعرض خلال عملها في أغلب الأحيان إلى مختلف أنواع الاستعباد والعبودية، ولا تُعامَل إلا كأداة، وقد تضطر في بعض الأحيان إلى تحمل مضايقات وتحرشات رب البيت الجنسية، ولذلك يجب أن لا نعجب إذا انحدرت من العبودية المنزلية نحو عبودية أخرى، لا تنظر إليها الفتاة على أنها أشد إهانة لكرامتها، بل قد تحلم بأنها ستجلب لها السعادة والحرية المفقودتين.

194 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

وقد دلت التحقيقات العلمية على أن أغلب محترفات الدعارة ينحدرن من أصل ريفي أو من بعض الأوساط العُمَّالية. ولوحظ بصورة خاصة أنه بقدر ما تحيط البورجوازية العمل الجنسي، وبصورة خاصة البكارة العذرية، بهالة من القدسية والمنع والتحريم، فإن بعض الأوساط الريفية والعُمَّالية تعتبرها أموراً عديمة الأهمية. فهنالك عدد كبير من فتيات هذه الأوساط يسمحن بإزالة بكارتهن من قِبَل أول رجل يتعرفن عليه ثم يجدن من الطبيعي بعد ذلك أن يمنحن أنفسهن لكل عابر سبيل. وقد دل تحقيق شمل (100) مومس أن واحدة منهن زالت بكارتها وعمرها لم يكن قد تجاوز الد (11) عاماً، و(2) منهن في عمر الد (12) سنة، و(3) في عمر الد (13) سنة، و(6) في عمر الد (19) سنة، أما الأخريات فقد أزيلت بكارتهن بعد سن الد (12). وقد صرح نصف الفتيات بأنهن منحن أنفسهن عن أما الأخريات فعن جهل تام بالموضوع.

وقد أشار «كومانغ» في إحدى دراساته إلى (57) فتاة صغيرة تتراوح أعهارهن بين 12-12 عاماً، سمحن بإزالة بكارتهن من قِبَل أشخاص مجهولين، لم يتيسر لهن بعد ذلك رؤيتهن مرة ثانية، وقد وافقن على العملية بدون أي اهتهام ودون الشعور بأية لذة جنسية.

وإليكم بعض الحالات التي وردت في دراسة الدكتور "بيزار":

- الآنسة ج. من بوردو: تخرجت من معهد الدير وعمرها ثمانية عشرة سنة، تركت أحد سكان الغابة وهو مجهول الهوية، يجرها بدافع الفضول وبدون أية نية سيئة من طرفها نحو عربة مهجورة، حيث أزال بكارتها.

ر. أزيلت بكارتها حوالي السابعة عشرة من عمرها، من قِبَل شاب لم يقع نظرها عليه في السابق صادفته لدى أحد الأطباء حيث عرض عليها توصيلها في سيارته إلى بيتها، لكنه تركها وحيدة في أحد الشوارع المهجورة بعد أن نال وطره منها.

ب. أزيلت بكارتها في الخامسة عشرة من عمرها «دون أن تفكر ماذا تعمل» من قبل شاب لم تره من قبل في حياتها، وقد أنجبت طفلاً جميلاً على أتم ما يكون من الصحة بعد تسعة شهور.

- س. أزيلت بكارتها في الرابعة عشرة من عمرها من قِبَل شاب اصطحبها إلى منزله بحجة تعريفها إلى أخته. والواقع أنه لم يكن للشاب أي أخت وإنها كان مريضاً بالزهري الذي انتقلت عدواه إلى الفتاة الصغيرة.

يفسر البعض هذه السهولة في الاستسلام لدى بعض الفتيات، بوجود بعض التخيلات الوهمية حول مزاولة الدعارة التي تكلمنا عنها سابقاً، بسبب حقد عائلي أو بسبب اشمئزاز الفتاة من العواطف والعمل الجنسي، أو بسبب رغبتها في لعب دور المرأة الكبيرة. وقد لوحظ أن بعض الفتيات يقلدن في صغرهن الغانيات، فيتزين ويتبرجن بشكل يلفت الأنظار. إنهن يفعلن ذلك بشكل صبياني في عمر لا يشعرن فيه بأية عاطفة جنسية، فيحسبن أنه بوسعهن اللعب بالنار دون أي عقاب ... إلى أن يأتي يوم فيصادفن رجلاً يأخذ التمثيل على أنه حقيقة واقعة فينحدرن من الأحلام إلى الأعمال.

«حين يُفتح أحد الأبواب فإنه من العسير بقاءه مغلقاً» هذا ما صرح به مومس شابة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها. ومع ذلك فمن النادر أن تنزل الفتاة إلى الشارع لمهارسة مهنة الدعارة، إثر إزالة بكارتها، بل هي تمر بمراحل عديدة فتنتقل من عشيق إلى آخر، إلى أن يشجعها أحدهم على مزاولة المهنة طمعاً في الربح. ويحدث في بعض الأحيان أن تدفع الأسرة نفسها، بناتها لمارسة البغاء، كما تضطر بعض الفتيات اللواتي هجرهن أهلهن إلى النزول إلى الشارع بعد أن يكون الجوع قد أرهقهن. ومن المعروف كذلك أن موجة الدعارة والبغاء تشتد خلال فترات الحرب والأزمات التي تعقبها.

تقص مؤلفة كتاب «حياة مومس» المنشور جزئياً في مجلة «الأزمنة الحديثة»؛ قصة خطواتها الأولى على النحو التالي: «نشرت المؤلفة قصتها تحت اسم مستعار هو ماري

اتزوجت وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة من عمري، من رجل يكبرني بثلاثة عشر عاماً. ولقد تزوجت منه أملاً في التخلص من جو العائلة المقيت الذي كنت أعيش فيه. ولم يكن زوجي يحلم سوى بإنجاب الأطفال، كان يقول لي: "وهكذا فإنك ستضطرين إلى البقاء في البيت ولن يتسنى لك الخروج منه». ولم يكن يوافق على استعمال مواد الزينة أو يصحبني إلى السينها. وكان عليّ، بالإضافة إلى ذلك، أن أتحمل حماتي التي كانت تتردد على

البيت كل يوم؛ وتأخذ جانب ابنها اللعين في كل المناسبات. كان «جاك» أول صبي البيت ... أنجبته.. وبعد أربعة عشر شهراً من ولادته، أنجبت بطرس ... وبها أن كنت أشعر بالملل حثيراً فقد بدأت في متابعة بعض الدروس في التمريض، وكان هذا الاتجاه يسرني جداً، فدخلت مستشفى في إحدى ضواحي المدينة، وتعلمت من ممرضة شابة أشياء كثيرة كنت أجهلها، ثم مكثت في مستشفى للرجال ستة شهور دون القيام بأية مغامرة. وفي أحد الأيام دخل غرفتي شاب ضخم الجثة كالبقرة، لكنه كان صبياً جميلاً، وأفهمني أنني أستطيع تغيير طراز حياتي إذا ذهبت معه إلى باريس، حيث أستطيع أن أجد عملاً يدرّ عليّ الربح الوفير .. كان يعرف تماماً كيف يستطيع إقناعي .. فقررت الذهاب معه، وكنت سعيدة جداً خلال شهر واحد .. وفي أحد الأيام صحب معه امرأة تتميز بأناقة ثيابها، وقال لي: «انظري إلى هذه، إنها تعرف كيف تدافع عن نفسها وتكسب أموالاً طائلة بكل سهولة». لم أوافق في البدء على انتهاج منهجها، حتى أنني توصلت إلى إيجاد عمل لي في أحد المستشفيات، لكي أثبت أنني لا أريد أن أمتهن مهنة فتيات الشوارع، لكنني لم أستطع المقاومة طويلاً. كان يقول لي: «إنك لا تحبينني. حين تحب المرأة رجلها، عليها أن تعمل وتضحى لأجله» وكنت أبكي وأشعر بالحزن وأنا أعمل في المستشفى. أخيراً ... سمحت لهم بأن يأخذوني إلى مصفف الشعر وبدأت أتجول في الشوارع! بينها كان «جاك» يتبعني من الخلف ليرى فيها إذا كنت أقوم بمهام المهنة خير قيام، ولكي ينذرني فيها إذا خطر للشرطة مداهمة المكان ... ».

تنطبق هذه القصة من عدة وجوه مع القصة الكلاسيكية للفتاة، التي قُدِّر لها النزول إلى الشارع وممارسة البغاء تحت ضغط صديقها وحاميها. ويحدث أحياناً أن يلعب زوج الفتاة هذا الدور كها قد تقوم به امرأة أخرى.

وقد أجرى «ل. فيفر» عام 1931 تحقيقاً حول (150) مومس شابة، فوجد أن (284) منهن، كن يعشن لوحدهن، و132 مع صديق، و(94) مع صديقة تربطها معها روابط السحاق، وتشهد بذلك بعض المقتطفات من رسائلهن الحافلة بالأخطاء الإملائية:

سوزان 17 سنة. انصرفت إلى البغاء مع بقية المومسات. وقد احتفظت بي إحداهن زمناً طويلاً وكانت تغازلني وتداعبني كثيراً، ولذلك تركت شارع أندره 15 سنة ونصف. تركت أهلي لأعيش مع صديقة لي صادفتها في إحدى الحفلات الراقصة، وتبينت بسرعة أنها تريد أن تحبني كما يفعل الرجال، ومكثت معها أربعة شهور ثم ...

ولا تعتبر المرأة البغاء في أغلب الأحيان إلا وسيلة مؤقتة لزيادة دخلها المحدود، لكنها تجد نفسها في جميع الحالات مندفعة في براثن دوامة عارمة لا قِبَل لها بمقاومتها. وإذا كانت وحالات الرقيق الأبيض، حيث تجر الفتاة جراً تحت تأثير العنف والضغط المادي، نحو البغاء، نادرة الحدوث نسبياً، فإن الفتاة في الحالات الأخرى الأكثر حدوثاً، مضطرة في أغلب الأحيان على البقاء في المهنة رغم إرادتها، إذ أن حاميها الذي يسلفها المال اللازم للمباشرة في ممارسة المهنة، يصبح ذا حقوق عليها، ويضع يده على أكبر قسط من أرباحها استثهاراً لماله، ولا يمكنها بحال من الأحوال أن تتحرر مادياً.

جعلت الكتابات العديدة حول المومس وحياتها الخاصة وجه «جول» شعبياً، فهو يلعب في حياة الفتاة دور الحامي والمنقذ ويسلفها الأموال اللازمة لتشتري بها ما يلزمها من أدوات الزينة؛ وهو يدافع عنها ضد منافسة النساء الأخريات وضد الشرطة - يحدث بعض الأحيان أن يكون الحامي أحد رجال الشرطة - وضد الزبائن. ذلك أن هؤلاء يكونون في غاية السرور إذا استطاعوا قضاء وطرهم لدى الفتاة دون أن يدفعوا الثمن؛ كما يلجأ بعضهم إلى إشباع ميولهم «السادية» في شخص الفتاة المومس. ومنذ عدة سنوات كان بعض الشباب الفاشيست في مدريد يلهون ويسلون أنفسهم في قذف المومسات وسط النهر خلال الليالي القارصة؛ وفي فرنسا كان الطلاب يسحبون بكل حبور النساء نحو الريف، حيث يهجرونهن وحيدات وسط الظلام عاريات عراءً تاماً. إن المومس في حاجة لحماية رجل لكي تستطيع أن تحصل على موارد رزقها وتتحاشى المعاملات السيئة. ويقدم «الحامي» للمومس دعاً معنوياً. «لأنها تعمل بنشاط أقل إذا تُركت لوحدها» كما تقول بعض المومسات. وفي أغلب الأحيان، تكنّ المومس للحامي حباً عنيفاً لأنها تكون قد رضيت بالانحدار إلى هذا المستوى تحت ضغطه ورغبة في إرضائه.

إلا أنه تحدث في بعض الأحيان أن تبدي المومس خصومة وحقداً شديدين نحوه، وفي هذه الحالة لا تتابع المومس القيام بدورها إلا خوفاً منه وتلجأ أغلب الأحيان إلى اختيار أحد زبائنها عشيقاً لها.

198 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

وكثيراً ما تعزي المومس نفسها بمزاولة علاقات عاطفية مع امرأة أخرى. وقد دلت الإحصاءات أن عدداً كبيراً من المومسات يزاولن السحاق. وقد رأينا أن السبب في اختيار بعضهن لمهنة الدعارة يعود إلى الرغبة في إرضاء صديقاتهن اللواتي يهارسن معهن علاقات عاطفية شاذة.

أما علاقات المومس مع الزبائن فهي تختلف بحسب الأحوال، وقد اتضح أن المومس تحتفظ لعشيق قلبها بامتياز تقبيلها من فمها الذي يعد تعبيراً عن عاطفتها الحرة التي لا علاقة لها بالمهنة.

كانت ماري تيريز «التي استشهدنا بقصة حياتها سابقاً» تبدي خلال مزاولة مهنتها عدم اهتمام تام، لكنها مع ذلك أشارت إلى شعورها في بعض الليالي باللذة الجنسية، فقد كان لها حسب ما تقول، بعض المغامرات العاطفية الصحيحة مع بعض الزبائن، كما أكدت في كتابها أن رفيقاتها يصادفن الشعور نفسه في بعض الأحيان، ويحدث كثيراً أن المومس ترفض تقاضي الثمن من أحد زبائنها الذي أثار إعجابها؛ كما تلجأ في بعض الأحيان إلى مد العون له إذا كان في حاجة إلى المساعدة. لكن المومس بشكل عام، تعمل بـ ابرود، ولا تشعر بعضهن إلا بعدم الاهتمام، وحتى بالاحتقار نحو زبائنهن. كتبت ماري تيريز تقول: «أوه يا لهم من خنازير هؤلاء الرجال، وكم تستطيع المرأة أن تضحك عليهم وتهزأ بهم! ٩. ولكن بعض المومسات يشعرن بالحقد والاستياء تجاه الرجال الذين يحاولون التفنن في معاشرتهن. كانت ماري تيريز تشتكي بصورة خاصة من أن الفرنسيين يتمتعون بخيال خصب لا حدود له في هذا المجال، وقد أسرت بعض المومسات المريضات إلى الدكتور بيزار بأن «جميع الرجال بصورة عامة يجبون التفنن في أساليب المعاشرة الجنسية. وقد تحادثت إحدى صديقاته بصورة مطولة مع مومس شابة ذكية جداً في مستشفى «بوجون»، فقالت بأنها بدأت حياتها كخادمة وكانت تعيش مع حاميها الذي كانت تحبه لدرجة العبادة، كما صرحت بأن دجميع الرجال يحبون التفنن في أساليب المعاشرة الجنسية إلا رجلي، ولهذا فأنا أحبه، ولن أتردد في هجره إذا حاول ذلك يوماً ما. إن الزبون يبدو بادئ ذي بدء عادياً طبيعياً فلا يجرأ على المطالبة بتنويع الأساليب لكنه حين يتردد عدداً من المرات على البيت، يبدأ في طلب بعض الأشياء الفظيعة .. أنت تقولين إن زوجك لا يستسيغ هذه الأشياء ! سوف ترين أنهم جميعهم يطلبون ذلك. ويعبر كره بعض المومسات لنوع خاص من الرجال عن بعض الرواسب الطبقية. وقد وصفت «هيلين دوتش» بإسهاب قصة «آنا» المومس الشقراء الجميلة، اللعوب اللطيفة. إلا أنها كانت تتعرض إلى حالات عصبية عنيفة إذا صادفت بعض الرجال. وكانت تنتمي إلى عائلة عُمّالية، وكان أبوها يُكثر من معاقرة الخمر بينها كانت أمها فريسة للمرض. وقد دفعتها جملة هذه الأسباب إلى الشعور بكره حياة الأسرة بصورة عامة، لدرجة أنها لم توافق مطلقاً على الزواج، على الرغم من أنها خُطبت كثيراً خلال مزاولتها المهنة. وقد نُقلت إلى المستشفى في آخر الأمر نتيجة لإصابتها بالسل، فأخذت تُظهر كرها شديداً للأطباء: «كانت تحتقر الرجال المحترمين» ولم تكن تتحمل السلوك المهذب فتقول: «ألا نعلم أن هؤلاء الرجال يفقدون بسهولة تامة قناع لطفهم وعزّتهم وبرودة أعصابهم؟ ويتصرفون عندئذ كالحيوانات؟».

لكن مصاعب حياة المومسات لا تنحصر في حالتهن الأخلاقية والنفسية، وإنها في شروط حياتهن المادية كذلك. مستثمرات من قِبَل حاميهن، تعيش المومسات في جو من الضيق والقلق المادي. إن ثلاثة أرباعهن لا يملكن شيئاً يُذكر في الحياة، ويقع 75٪ منهن في ظرف خمس سنوات فريسة للأمراض الزهرية، أما القاصرات اللواتي لا خبرة لديهن، فإنهن يصبن بالعدوى بسهولة مخيفة وتصاب المومسات بالسل بمعدل واحدة لكل عشرين، ويصاب 60٪ منهن بالإدمان على الكحول، كما يموت 40٪ منهن قبل الأربعين من العمر.

ولكن الدعارة إذا كانت في درجتها الأخيرة شاقة للغاية، إذ تضطهد المرأة فيها جنسياً واقتصادياً، وتتحمل مضايقات البوليس، والرقابة الطبية، وألاعيب الزبائن، فإن مصيرها محتوم. فلا بدأن تقع فريسة للجراثيم والأمراض والبؤس والشقاء .. فتنحدر إلى مستوى الأشياء.

هنالك درجات عديدة بين المومس من الدرجة الأخيرة والمحظية الكبيرة. والفرق الأساسي بينهما يكمن في أن الأولى تتاجر بجسمها بشكل عام كامرأة عادية، فتُبقيها المنافسة الشديدة في مستوى حياة منخفضة بائسة، بينها تحاول الأخرى إثبات وجودها كشخصية لها كيانها. وتتميز بصفات خاصة، فإذا ما نجحت في ذلك استطاعت بلوغ مركز مرموق في المجتمع.

200 الجزم الثالث: أوضاع المرأة

وقد وجدت على الدوام بعض الصلات الغامضة بين الفن والبغاء، لأن الناس بخلطون بين الجهال والجنس في أغلب الأحيان، وتعددت في الأيام الأخيرة مظاهر عرض الأجسام العارية تحت اسم الفن، كها أن الرجال المسنين يؤكدون أن «العري هو طهارة» ويجمعون تحت اسم «العري الفني» مجموعات من الصور الخليعة. ولم تعد المومس التي تطمح في الحصول على منزلة خاصة، تكتفي بعرض جسمها ومحاسنها أمام عيون الناس، بل هي تحاول بشتى الطرق إبراز مواهب أخرى كامنة لديها. وفي الماضي كان «عازفات النياي» يسحرن الرجال بموسيقاهن ورقصاتهن، كها أن بنات النيل اللواتي يرقصن رقصة البطن، والإسبانيات اللواتي يرقصن ويغنين في بعض أماكن اللهو، يعرضن أنفسهن بطريقة راقية تحت ستار الفن إلى هواة الدعارة. وبالطبع فإنه توجد راقصات، وراقصات عاريات، وعارضات للأزياء، وفتيات للغلاف، ومغنيات وعثلات، لا يسمحن بحال من الأحوال للأمور الجنسية بالتدخل في حياتهن الفنية. لكن المرأة التي تظهر أمام الجمهور تضطر في أغلب الأحيان، لكسب عيشها إلى عرض مفاتنها الجسدية. وتتمنى المحظية على العكس، مزاولة مهنة تكون بمثابة مبرر لها في عمارسة الدعارة، فتنشد الظهور بمظهر الفنانة ذات المواهب، ويصبح بوسعها بواسطة هذه الطريق أن تحصل على حريتها التامة واستقلالها الاقتصادى.

يحدث في كثير من الأحيان أن تمثل الخدمات أو الأموال التي تجنيها المحظية من الرجال، تعويضاً لها عن مركب نقصها الأنثوي، وحينئذ تلعب النقود دور المطهر وتقضي على نضال الجنسين. وإذا كان بعض النساء يجدن لذة كبيرة في الحصول على أكبر كمية مكنة من الشيكات والهدايا من الرجال، فهذا لا يعود إلى طمعهن وجشعهن، وإنها لأن هذه الطريقة تحول الرجل إلى أداة في أيديهن، وبهذه الطريقة تنتقم المرأة لنفسها كأداة جسدية في يد الرجل، الذي يحسب أنه يمتلكها، لكن هذا التملك الجنسي سطحي بعض الشيء، ما دامت هي التي تملكه في ميدان الاقتصاد، الأمر الذي يشبع عزة نفسها وكبرياءها.

الفكيل الجناميين

من النضوج إلى الشيخوخة

يتعلق تاريخ المرأة - بسبب دورها الأنثوي - أكثر من الرجل بمصيرها الفيزيولوجي، والخط البياني لهذا المصير هو أكثر تعرجاً وانقطاعاً من الخط البياني لمصير الرجل الفيزيولوجي. إن كل فترة من حياة المرأة، تمتاز برتابتها وركودها: لكن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يجري بشكل فجائي خطير، وتنتج عنه أزمات أشد حدة من الأزمات التي يتعرض لها الرجل في مختلف أدوار حياته: البلوغ، التدرب الجنسي، سن البأس. وبينها يهرم الرجل تدريجياً وبصورة مستمرة، تجد المرأة نفسها فجأة بجردة من أنوثتها، فتفقد وهي لا تزال شابة نسبياً، الجاذبية الجنسية، التي تستمد منها أمام المجتمع، نبرير وجوها وحظها في السعادة: لم يبق لها سوى أن تعيش محرومة من كل مستقبل خلال نصف حياتها تقريباً.

تتميز «السن الخطيرة» ببعض الاضطرابات العضوية لكن قيمة هذه الاضطرابات العضوية تشكل مرحلة هامة من حياتها. وتشعر المرأة بالأزمة الجديدة في حياتها بشكل أقل حدة فيها إذا كانت لم تعلق في حياتها الماضية أهمية كبيرة على عناصر أنوثتها فإذا كانت تعمل في البيت أو في الخارج فإنها تستقبل بارتياح تام انقطاع الدورة الشهرية وعبوديتها، كما تصبح المرأة الريفية أو العامة سعيدة جداً حين تتخلص نهائياً من مخاطر الحمل المتكرد. ولا تنتج اضطرابات المرأة في هذه المرحلة الجديدة عن أسباب عضوية، بقدر ما تنتج عن وعيها بحلول هذه الفترة العصيبة من حياتها. وتبدأ الأزمة النفسية لديها عادة قبل حلول المظاهر الفيزيولوجة به قت طويل.

تبدأ تباشير هذه الأزمة حين ينصرف الرجل الناضج نحو مشاريع وأعمال يعتبرها أكثر أهمية من الحب، فتصبح ميوله الجنسية أقل حدة مما كانت عليه في صباه؛ وما دام المجتمع لا يتطلب منه صفات سلبية في مظاهر حياته، فإن تجعدات وجهه وترهل جسمه لا تهدم جميع إمكانياته في إثارة الإعجاب. وعلى العكس من ذلك، حين تبلغ المرأة الخامسة والثلاثين من عمرها تكون قد تغلبت على جميع ما يتصدى لها من موانع في حياتها الجنسية وبلغت مرحلة تفتحها الجنسي الكامل، فتتفتح غرائزها وتصبح أشد عنفاً وتود من صميم قلبها إشباعها، لأنها علقت في حياتها على القيم الجنسية أهمية أكثر من الرجل. فقد كان عليها كي تحافظ على زوجها وتحصل على الحماية الكافية في مختلف المهن التي تمارسها، أن تثير الإعجاب. فنجاحها في الحياة لا يمكن أن يتحقق إلا بواسطة الرجل. ماذا يحدث والحالة هذه حين لا يعود لها أي تأثير عليه؟ هذا ما تتساءل عنه باستمرار وبقلق خلال السنين التي تبدأ فيها جاذبيتها الجنسية بالاضمحلال والضعف، إنها تناضل فتضع المساحيق المختلفة وتجري العمليات التجميلية، لكن كل هذا لا يفيدها إلا في إطالة حالة النزع الأخير لشبابها! ولكن حين تبدأ التطورات المقدرة التي لا يمكن صدّها أو إيقافها والَّتي ستهدم في نفسها البنيان الذي أشادته خلال عهد البلوغ، تشعر المرأة كأنها أصيبت بحتمية الموت نفسه، وقد يتبادر إلى الذهن أن المرأة التي تمتعت أكثر من غيرها بمحاسنها وشبابها، ينتابها القلق والاضطراب وتتعرض لشتى أنواع الضيق النفسي، لكن الواقع هو على العكس من ذلك، لأن الفتاة المولعة بنفسها وبجمالها، أي الفتاة النرسيسية، تفكر دائمًا بنفسها وبمصيرها، ولا بد وأنها أعدت لمرحلة سن اليأس عدتها وضمنت لنفسها مركزاً تتراجع إليه. ولا بدلها بالطبع من أن تتعذب من هذا النقص الذي سيحل بها، لكنها لن تُفاجأً به بسبب توقع حدوثه. أما المرأة التي نسيت نفسها وقضت حياتها مضحية بكل شيء لديها، فإنها تتعرض لصدمة شديدة حين تكتشف حلول هذا التغيير الجديد في حياتها: ﴿ لم يكن لدي سوى حياة واحدة الأعيشها فانظروا ما آل إليه مصيري. وينتابها حينئذ لدهشة المحيطين بها تغيير جذري لأنها تكون قد استفاقت فجأة على واقع حالها، فتكتشف أن جسمها أصبح بدون أمل، وأن أحلامها ورغباتها التي لم تحققها في الماضي ستبقى كذلك إلى الأبد، وفي هذا الجو المضطرب تلتفت نحو الماضي، وقد حان الأوان للتفكير به وإجراء الحسابات بشأنه. إنها لترتعد من شدة ما قسرت نفسها على

الانطواء وعدم التمتع بإمكانياتها، وأمام هذا التاريخ القصير المخيب للأمل، المعبر عن الانتخر عن عبد عبد نفسها مضطرة إلى رفض النهاية في حياتها، فتقاوم فقر وجودها بثروة عيام وكهال شخصيتها. ويبدو لها بسبب كونها امرأة تحملت مصيرها بسلبية وخنوع أن المجتمع وهم. قد سرق حظها في الحياة وخدعها، وأنها قد انزلقت من الشباب إلى النضوج دون أن يأخذها الوعي بشخصيتها. إنها لتكتشف أن زوجها ووسطها ومشاغلها لم تكن في ي مستوى إمكانياتها، ولذلك فهي شعر بأنها غير مفهومة من الناس فتنعزل عن المحيطين بها لأنها تتخيل نفسها متفوقة عليهم، وتحاول دراسة إمكانياتها التي لن تتيسر لها فرصة الاستفادة منها، فتنكب على تحرير يومياتها الخاصة؛ وإذا ما وجدت أشخاصاً تركن إليهم، فإنها تفتح لهم مغاليق قلبها في أحاديث طويلة لا تنتهي، معبرة في كل مناسبة ليلاً ونهاراً عن حسرتها واتهاماتها. وكما تحلم الفتاة الصغيرة بما سيكون عليه مستقبلها فإن المرأة الناضجة تثير في مخيلتها ما كان يمكن أن يكون عليه ماضيها، وتتخيل بالوقت نفسه الفرص التي فشلت في انتهازها وتنشئ لنفسها قصصاً طريفة سحرية عن ماضيها الفاشل. تقصّ علينا «هـ. دوتش» قصة امرأة قطعت علاقاتها الزوجية وهي شابة بشكل مبكر ثم تزوجت بعد ذلك وقضت سنين طويلة بقرب زوجها الثاني. وحين بلغت الخامسة والأربعين من عمرها بدأت تتحسر بحرارة على زواجها الأول وانطوت منعزلة على نفسها في ظلمات حزن عميق. تستسلم المرأة في بعض الأحيان إلى حالة من الكآبة الحالمة السلبية، لكنها تحاول في أغلب الأحيان أن تنقذ حياتها الفاشلة، فتراها تشيد بمزاياها وتطالب بعنف في أن تُنصف، وتفكر بأنه قد يكون في وسعها لو أتيحت لها الفرص في أن تنتقم من نفسها وتبرز قيمتها. إنها تحاول يائسة أن توقف الزمن، فنرى مثلاً المرأة الأم تؤكد بأنها تستطيع أن تنجب الأطفال بعد سن اليأس، فتحاول بحماس شديد أن تخلق الحياة من جديد. وتحاول المرأة الشهوانية أن تحصل على عشيق جديد لنفسها؛ كما تُظهر المرأة المتبرجة نهمها وحبها أكثر فأكثر لإثارة الإعجاب. إنهن يصرحن جميعاً بأن دماء الشباب لا تزال تجري في عروقهن ويحاولن إقناع الآخرين بأن مرور الزمن لم يؤثر عليهن مطلقاً. فنرى المرأة الناضجة ترتدي من جديد أزياء الشباب، وتتكلم بلهجة الفتيات الصغيرات. تعرف المرأة المشرفة على الشيخوخة بأنها إذا لم تعد تصلح لأن تكون متعة جنسية فهذا لا يعود إلى كون جسدها لم يعد يقدم للرجل ما تشتهيه نفسه، إنها يعود

كذلك إلى أن ماضيها وتجربتها جعلا منها، رغماً عنها أو برضائها، شخصية مستقلة؛ فقد ناضلت وأحبت وأرادت وتعذبت وتمتعت لحسابها .. إن هذا الاستقلال ليبعث الخوف في نفسها، ولذلك فهي تحاول رفضه وعدم الاعتراف به، مبالغة في أنوثتها، مضاعفة كمية المساحيق والروائح العطرية، متكلفة اللطف والاستسلام الأنثوي، مبدية إعجابها نحو الرجال ببساطة كبساطة الأطفال، ذاكرة من حين لآخر بشكل مثير حياتها وقصصها حين كانت شابة صغيرة. وتلجأ المرأة في هذه السن عوضاً عن أن تتكلم إلى الصياح، وضرب البدين ببعضها البعض، والقهقهة بصوت عالي. وتجعلها هذه الأهمية الجديدة والرغبة العميقة في انتزاع نفسها من براثن حياتها الماضية الرتيبة والانطلاق نحو حياة جديدة ...

والواقع أن الأمر لا يكمن أن يشكل بالنسبة إليها بداية جديدة، لأنها لا تكتشف في الحياة أهدافاً تسعى إلى تحقيقها بحركة حرة خيالية، وإنها تتخذ ثورتها شكلاً متناقضاً لا جدوى منه هدفها التعويض رمزياً عن أخطائها الماضية. ولذلك فهي تحاول أن تحقق قبل فوات الأوان جميع رغباتها حين كانت طفلة أو راشدة. فهذه تباشر دروساً في العزف على البيانو، وتلك تمارس الرسم أو الكتابة، أو تقوم برحلات وأسفار، أو تتعلم التزلق على الجليد، أو التكلم بلغات أجنبية.

وقد تُظهر المرأة في هذه السن اشمئزازها من زوج كانت تشعر بلذة الحياة الجنسية معه، فإذا بها تجد نفسها باردة بين ذراعيه، أو تلجأ على العكس من ذلك، إلى ترك المجال لحماس الجنس الذي كانت تكبته بعض الشيء فتنهكه بطلباتها، وقد تعود إلى مزاولة العادة السرية التي هجرتها منذ أيام طفولتها، كما قد تتحول في بعض الأحيان إلى السحاق ولو لم تكن قد عرفته قبلاً أثناء شبابها.

تظهر الحدود بين الخيالي والحقيقي لدى المرأة الناضجة بنفس الغموض الذي كان يظهر فيه لدى الفتاة البالغة. ومن الظواهر الأكثر حدة لدى المرأة المشرفة على الشيخوخة هو شعورها بازدواج شخصيتها الذي يُفقدها كل مفاهيمها الموضوعية. وقد أكد بعض الناس الذين أشرفوا على الموت ثم نجوا منه، أنهم شعروا بازدواج الشخصية: لست اأنا الذي تعرض للموت دهساً بواسطة السيارة: لست دأنا هذه المرأة المسنة التي تعكس

المرآة خيالها. إن المرأة التي لم تشعر بنفسها أكثر شباباً منها الآن، والتي لم تكن في يوم من الأيام أكبر سناً مما عليه في الوقت الحاضر، لا تتوصل إلى التوفيق بين هذين المظهرين من ذاتها، لأن الوقت يجري وينساب، والحقيقة تبتعد وتتضاءل. وما دام الحب لا يزال كما كان في السابق، شغلها الشاغل، فمن الطبيعي إذن أن تستسلم لوهم الشعور بأنها محبوبة.

إلا أن القدرة على تجاوز الحقيقة والواقع بهذه البراعة لا تشير لجميع النساء، بل تشعر أكثرهن بألم الحرمان من الحب فيلجأن إلى الله لاستمداد العون منه. وتجنح المرأة في هذه الفترة من حياتها إلى التقى والوعر، والإيهان بالمعجزات والسحر والخزعبلات والشعوذة، وقد يؤدي بها الأمر إلى اقتحام ميدان الأعمال، فتلقي بنفسها في مختلف المشاريع والمغامرات، وتشعر وكأنها تمثل بطلة من بطلات الحرية، وحاملة لمشعل الحكمة والتعقل.

تفصم أزمة سن اليأس حياة المرأة إلى شطرين بشكل جذري. وهذا الانقطاع هو الذي يعطي للمرأة وهم «الحياة الجديدة»، إنه عهد جديد تتسلل إليه بحمية التائبة، نحو الحب، والحياة والفن، وكأنها ماتت وتُبعث اليوم من جديد. وإنها لتنظر إلى العالم بعين من سَبَرَ غور الأرض ونفذ إلى أسرارها، ويُخال إليها أنها تحلق في الفضاء نحو القمم الشامخة التي لم تصل إليها يد الإنسان.

غير أن الأرض تبقى ثابتة في مكانها لا تتبدل، والقمم الشامخة تبقى فوق مستوى الإنسان، والأنوار الساطعة تخبو وتتضاءل، ولا يبقى أمام المرآة سوى طيف امرأة شاخت يوماً واحداً منذ البارحة. فتتبع لحظات النشوة والحياس ساعات يلف الغم خلالها قبضته من جديد حول عنقها. لقد استنفدت أسباب حياتها دون أن يستقبلها الموت على أعتاب داره، ويا لها من حياة مقيتة، تدفعها في آخر الأمر إلى التخلي عن النضال والانصراف إلى تنغيص حياتها وحياة من يحيط بها من الناس، فتتناثر الاتهامات من فمها، وتتصاعد الحسرات من صدرها وتتصور أن الجيران يدبرون ضدها المؤامرات، ويحيكون من حولها الدسائس. وقد تُظهر فجأة عواطف الغيرة العمياء على زوجها، فتغار من أصدقائه وإخوانه ومهنته، وتتهم كل إنسان تصادفه في طريقها بأنه سبب تعاستها. وإذا كانت لا تملك سوى محاسنها كرأسهال لها في حياتها فإنها تناضل خطوة خطوة للمحافظة عليها،

وتحارب مجبرة لإبقاء غرائزها على حالتها من التفتح والانطلاق؛ ويروى أن الأميرة «ميترنخ» أجابت على سؤال وُجُه إليها، عن السن التي تتوقف فيها المرأة عن الشعور بالغريزة الجنسية فقالت: «لا أعلم إذ ليس لي سوى 65 سنة من العمر !».

إلا أنه لا بدوأن يأتي يوم تضطر فيه المرأة إلى الإذعان والاعتراف بكِبَر سنها وحينئذ تتبدل حالتها. كانت حتى الآن امرأة شابة متحمسة للنضال ضد مركزها الضئيل في المجتمع، لكنها تصبح شخصاً آخر لا يشعر بالعاطفة الجنسية ويتمتع بخبرة كبيرة: إنها امرأة مسنة. ولكنه لا يجب أن نستنتج من ذلك بأن الحياة أصبحت سهلة لأنها إذا كانت قد تخلت عن النضال ضد حتمية الزمن، فعليها بعد ذلك أن تخوض حرباً جديدة ... يجب عليها أن تحافظ على مكان لنفسها فوق سطح الأرض.

تتحرر المرأة في خريف حياتها أو في شتائها من قيودها، وتَعتبِر كِبَر سنّها مبرراً لها لتحاشي تحمل الالتزامات التي كانت تُثقل كاهلها. إنها تعرف طبيعة زوجها بعد هذا العمر الطويل، ولذلك فهي تنظم حياتها بشكل من الأشكال إلى جانبه - في جو من الصداقة أو عدم الاهتهام أو العداء - فإذا ما انهار زوجها قبلها، نراها تتسلم زمام قيادة البيت من جديد وتعاند الناس والرأي العام، وتهمل بالوقت نفسه التزاماتها الاجتهاعية، والعناية بمحاسنها وجمالها.

تكتشف المرأة أخيراً حريتها بعد فوات الأوان، وهذه الظاهرة تتكرر دائماً في حياة كل امرأة. إنها تكتشف حريتها في الوقت الذي لا تجد أمامها ما تصنعه في الحياة، ولا يمكن اعتبار هذا التكرار وليد الصدفة المحضة، لأن المجتمع الذي يرتكز على سلطة الرجل يضفي على جميع الوظائف النسائية شكل العبودية، ولا تستطيع المرأة التخلص منها إلا عندما تفقد كل فعاليتها. لقد علمها الناس طوال حياتها أن تخلص لشخص ما، ولم يعد هنالك أي إنسان يود التمتع بإخلاصها. غير ذات فائدة، ولا مبرر لوجودها، تتأمل المرأة الناضجة هذه السنوات الطويلة بدون أمل، هذه السنوات التي بقي عليها أن تحياها في عزلة تامة، فتهمس حينئذ لنفسها قائلة: «لم يعد هنالك أي إنسان يحتاج إلي !».

وحينئذ توجه آمالها نحو أولادها، فهم لا يزالون في ربيع العمر، والمستقبل لا يزال مفتوحاً أمامهم. وفي هذا المجال تتمتع المرأة التي أسعفها الحظ بإنجاب أولادها بصورة

208 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

مبكرة بامتياز على غيرها من النساء، فهي لا تزال شابة تستطيع أن تستمتع بسعادة أولادها كأنها سعادتها، لكن الأم بصورة عامة تبلغ الأربعين من العمر في وقت يبلغ فيه أولادها مرحلة الاستقلال، وفي هذه اللحظة التي ينفلتون فيها من سيطرتها، نجدها تحاول أن تعيش من خلال حياتهم، لتعوض النقص والحرمان الذين تعانيهها، فتنصر ف نحو أولادها وتحاول التدخل في حياتهم كأنها حياتها الخاصة، لقد أنجبت من نفسها جسداً في شخص ابنها وهي تحاول الآن أن تجعل حياته حياتها، فأعماله أعمالها، وفرحه فرحها، وحزنه حزنها.

لكن الأمور لا تجري دائماً على هذا المنوال، فقد يكون الابن دون مستوى تمنيات أمه. وهذه ترغب في أن تنسجم مشاريع «ابنها الإله» مع مَثَلها الأعلى في الحياة. وكل أم تريد أن تنجب بطلاً أو عبقرياً، لكن جميع أمهات الأبطال والعباقرة يتشكُّون من أن أولادهن قد حطموا قلوبهن وآمالهن، وقد توافق الأم على مشاريع ابنها، لكنها تبقى دائمة التشكَّى، يمزق قلبها هذه التناقضات المهائلة التي تعذب قلب الفتاة المحبة. ولكي يبرر الرجل حياته - وحياة أمه - يجب عليه أن ينشد الأهداف البعيدة، وهو مضطر، والحالة هذه، إلى إرهاق صحته والتعرض للأخطار، لكنه ينكر في الوقت نفسه قيمة ما منحته إياه أمه، حين يضع نصب عينيه أهدافاً لا تقتصر على مجرد العيش البسيط، وهذا ما يثير استنكارها، لأنها لا تسود على الرجل وتسيطر عليه، إلا إذا اعتبر هذا الجسد الذي أنجبته شيئاً مقدساً، فلا حق له في هدم هذا البناء الذي شيدته من خلال العذاب والآلام. السوف تتعب نفسك، وستتعرض للمرض وسيصيبك مكروه إذا ... إلخ. لكنها تعلم مع ذلك، أنه مجرد العيش لا يكفي الإنسان وإلا لأصبح التناسل أمراً عديم الفائدة، وهي أول من يستاء إذا كان ولدها كسولاً أو جباناً. وإنها لتتمنى عودته من الحرب، لكنها تفضل أن يعود إليها وصدره محلى بالنياشين. وهي تتمنى من كل قلبها أن ينجح في حياته لكنها تخشى عليه التعب والإجهاد، ومهما فعلت فإن حياته تجري أمامها دون أن يكون في مقدورها أن تحولها أو تتحكم فيها. إنها لتخشى عليه من أن يخطئ الطريق، أو يفشل في حياته، أو يسقط مريضاً، لكن فرق السن يجعل من المتعذر عليها مساعدته والمساهمة عملياً في بناء مستقبله.

مهما يكن الأمر، إذا كانت الأم تعجب بابنها وتفخر به وتجد في الانصراف إلى التفكير بمستقبله تعويضاً لها عها تلاقيه من إهمال في حياتها الجديدة، إذا كانت تشعر هذا ابنها تجردها من وظائفها. لقد كُتب الشيء الكثير عن العداء الذي تشعر به الأم تجاه هذه الأجنبية التي «تأخذ» منها ولدها. إنها هي التي منحته الحياة، ولذلك تشعر بترتب بعض الالتزامات عليه تجاهها، أما هذه الأجنبية زوجته، فإنها لم تعطه شيئاً، بل كان يجهل حتى وجودها منذ أمد قريب. وإنها لتنتظر أن ينكشف قناع الزوجة المزيف في يوم من الأيام؛ يشجعه في تفكيرها هذا خرافة الأم الطيبة التي تعزي ابنها من سوء معاملة الزوجة الشريرة، وإنها لتتفحص على الدوام وجه ابنها لكي تعثر على ملامح التعاسة والشقاء. وقد تكتشف هذه الملامح رغم إنكار ولدها وتأكيده بأنه سعيد؛ ثم هي تنصرف إلى تفحص «كنَّتها» وتنتقد حركاتها وتصرفاته وسكناته، وتشهر أمام ما تحدثه من تجديد في البيت سلاح التقاليد والعادات التي تعطي الأهمية في البيت إلى أم الزوج. إن كلاًّ منهما تفكر على طريقتها في إسعاد الرجل المحبوب، فالمرأة ترى فيه رجلاً تستطيع من خلاله أن تثبت وجودها في العالم، أما الأم فهي تحاول أن تعيده إلى طفولته. وهي تقاوم مشاريع المرأة الشابة التي تنتظر أن يصبح زوجها غنياً أو شخصية هامة في الحياة، بإشهار سلاح العطف والحنان أو الرفق به، فهو لا يتحمل الشدائد في نظرها وينبغي ألا يجهد نفسه في العمل. وهكذا تتطور الخصومة بين الماضي والحاضر، وتتفاقم حين تجد المرأة الجديدة نفسها حاملة بدورها «إن ولادة الأطفال تعني موت الأهل»، وحينتذ تنكشف الحقيقة الساطعة بكل قوتها! فتفهم المرأة التي كانت تأمل أن تداوم العيش في شخص ابنها، بأنها محكوم عليه بالموت؛ لقد منحت الحياة، لكن الحياة تداوم سيرها بدون معونتها. إنها لم تعد «الأم»، وإنها هي حلقة من سلسلة طويلة ... نعم، لم تعد هذه المرأة التي قاست الأمرين لتحصل على حريتها وشخصيتها وهي ليست سوى مخلوق انتهى أمره وولى زمانه؛ وحينئذ تشعر في الحالات الشاذة جداً بالكره يجتاح نفسها، هذا الكره الذي قد يؤدي بها إلى بعض الحالات العصبية العنيفة أو يدفعها نحو الجريمة. وهذا ما فعلته السيدة «لوفيفر» التي شعرت بأن كنتها حاملة فكرتها زمناً طويلاً ثم قررت قتلها ونفّذت ذلك. ولكن الحيرة تتغلب في الحالات العادية على كراهيتها وعدائها فتصر أحياناً على اعتبار المولود الجديد وليدها الوحيد وتحبه حباً عنيفاً ديكتاتورياً، لكن الأم تقاوم بصورة عامة هذا الاتجاه لدى حماتها وتعلن حرب الغيرة سجالاً بينهما وتتبدل عواطفها نحو صغيرها فتصبح عدائية، فتكرهه تحت ستار من القلق والعطف المصطنع.

ويحدث في بعض الأحيان أن لا يكون للمرأة أو لاد أو أنها لا تهتم بأو لادها، وحينئذ تراها تحاول أن تخلق نظائر لهم بشكل مصطنع فتعرض على بعض الشباب عطفها الأموي، سواء كانت عواطفها عذرية أم لا فإنها لا تبتعد عن الحقيقة حين تصرح بأنها تحب ضيفها الشاب كها تحب «ابنها». وتصطفي المرأة في أغلب الأحيان، بعض الفتيات فتتعرض لديهن الحرمان الذي تشعر فيه، وترتدي هذه العلاقات في بعض الأحيان الطابع الجنسي، وعلى كل حال، سواء كانت هذه العواطف عذرية بحتة أو خالطها شيء من الشعور الجنسي، فإن ما تنشده المرأة هو تفريغ عواطفها في شخص تعتبره ازدواجاً لشخصها، وقد تلجأ في بعض الأحيان إلى تبني بعض الأطفال الصغار كها تفعل العيات المسنات. على أنه من النادر في جميع الأحوال أن تجد المرأة في خلفها الطبيعي أو الاصطناعي تبريراً لحياتها السائرة نحو الانحطاط لأنها لا بد وأن تفشل في جعل حياة أحد هؤلاء الشباب تبريراً لحياتها. وليس أمامها سوى أن تصر على متابعة جهودها للوصول إلى هدفها فتستهلك حياتها في صداع ومآس، تخيب أملها وتتركها معطمة مقهورة، وإما أن تستسلم إلى قدرها، فتساهم بدور بسيط ضئيل في حياة أبنائها، وهذه هي الحالة الطبيعية. لكنها لا تجد حينئذ لديهم أية معونة في محنتها القاسية وتبقى مهملة وسط صحراء المستقبل، فريسة للوحدة والحسرة والملل.

إن هذا الوصف يعبر أصدق تعبير عن مأساة المرأة المسنة: فهي تعرف أن لا فائدة لها في الحياة، وتتساءل في حيرة خلال حياتها الطويلة: كيف تقتل وقتها؟ ولم تبتكر «الأعمال النسوية» إلا لسد الفارغ الذي تشعر به المرأة في هذا الطور من حياتها، فيداها تشتغلان الصوف وتخيطان الألبسة، لكن هذا لا يعتبر عملاً مفيداً بالنسبة إليها وإنها هو وسيلة لتمضية وقتها وإشغال نفسها. وكثيراً ما تختار المرأة شخصاً تهديه نتاج عملها، أو تصطفي منظمة خيرية أو تهديه بكل بساطة إلى إحدى صديقاتها ...

إنها لتسلية سخيفة كما يصفها باسكال، لأن المرأة تنسج العدم في حياتها، بواسطة به سسير الفنون كالرسم والموسيقى والقراءة، إلا أنها لا تلبث أن ترمي الكتاب الإبرة. كما تمارس الفنون كالرسم والموسيقى . . ر ى .. ر المراة تنتهي إلى نشدان ساعة الهاتف لتنظيم زيادة أو رحلة أو ما شاكل ذلك والواقع أن المرأة تنتهي إلى نشدان التسلية وتمضية الوقت في صخب الحياة الاجتهاعية، فتحضر جميع حفلات الزواج، كما تسير في مواكب الجنازات، تتفحص الناس وتعلق عليهم، وتعوض بطالتها بنثر الانتقادات والنصائح حولها، كما تضع تجربتها في خدمة هؤلاء الذين لا يطلبون منها أيةً خدمة. وقد تفتح ندوة أدبية إذا توفرت لديها الوسائل المادية، تستقبل فيه الأدباء والفنانين والشخصيات. وهنالك طرق أخرى لدى المرأة أكثر فعالية للتدخل في حياة الناس. ففي فرنسا تنتشر الجمعيات النسائية ومؤسسات الأعمال الخيرية، ولكنها تكثر بصورة خاصة في أميركا حيث يجتمع الناس في نوادي خاصة فيلعبن «البريدج» ويمنحن الجوائز في المسابقات، ويقمن بمختلف المشاريع الاجتماعية المختلفة. ومن الصفات الأساسية لهذه المنظمات أن الأهداف المعلن عنها في أنظمتها ليست سوى مبرر رسمي لوجودها وبقائها. وهكذا تمضى نساء الجمعيات جلّ أوقاتهن في تنظيم أعمالهن، فتجري انتخابات المكتب الإداري، وتناقش الأنظمة، وتتصارع المنتسبات فيها بينهن للوصول إلى مركز الإدارة، كما يحاربن المنظمات الأخرى المنافسة، فلا يجب على أي إنسان أن يجرأ على سرقة «فقرائهن» و"مرضاهن" و"جرحاهن" و"أيتامهن". وإنهن على استعداد تام لترك هؤلاء المساكين يموتون دون عناية من التخلي عنهم إلى جيرانهن. ولا شك أنهن بعيدات كل البُعد عن تمني وجود مجتمع تنعدم فيه المظالم والمسائل الاجتماعية، الأمر الذي يجعل أعمالهن عديمة الفائدة. وإنهن ليلهجن بالشكر ويباركن الحروب والمجاعات التي تحولهن إلى خيرات محسنات تجاه البشرية.

لا تجد المرأة المحسنة عادة هدوءها وطمأنينتها إلا في أواخر أيام حياتها حين تكون قد تخلت عن النضال وحين ينقذها دنو أجلها من قلقها وخوفها على مستقبلها. وكثيراً ما يكون زوجها أكبر سناً منها فتحضر مشهد انهيار زوجها بسكون الراضي، وكأنها تنتقم في شخصه من الحياة. وإذا ما توفي قبلها نراها تتحمل بسرور الحداد المفروض عليها. وقد لوحظ في عدد كبير من الحالات أن الرجال يتأثرون أكثر من النساء من حالة الترمل المتأخر لأنهم يستفيدون أكثر من المرأة من نِعَم الزواج، وبصورة خاصة خلال الأيام الأخيرة، لأن محور حياتهم في تلك الفترة يتركز في البيت. كما أن الرجل يصبح غير ذي فائدة على الإطلاق حين يفقد علمه لسبب كِبَر سنه، لكن المرأة تحافظ على الأقل على ميزة إدارة البيت، وهي ضرورية لزوجها في وقت لم يعد يقدم لها أية خدمة وحينئذ تستمد المرأة من حريتها نوعاً من الكبرياء فتنظر لأول مرة نحو العالم بعينيها لا بعيني رجل أحلامها، فتكتشف أنها كانت طوال حياتها مخدوعة، هدفاً للتلاعب والاحتيال. ولكن إذا كان بوسعها أن تكتشف الأكاذيب وطرق الاحتيال فإنها لا تتوصل إلى اكتشاف الحقيقة بكاملها لأن حكمة المرأة المسنة تبقى سلبية حتى نهاية حياتها: إنها احتجاج وشك، واتهام ورفض؛ لا تستطيع في أية مرحلة من مراحل حياتها أن تكون فعالة ومستقلة.

الفكظيل السياديس

وضع المرأة وطبائعها

يمكننا الآن أن نفهم لماذا نشاهد نقاطاً مشتركة في الحملات الموجهة ضد المرأة منذ عهد اليونان إلى الوقت الحاضر؛ فقد بقي وضعها على ما هو عليه رغم التغيرات السطحية. وهذا الوضع هو الذي يحدد ما يسمى طبع المرأة؛ فهي لا تملك الحس بالحقيقة وهي نفعية، كاذبة، مهرجة... إن هذه التأكيدات تتضمن شيئاً من الحقيقة، إلا أن سلوك المرأة لا تفرضه عليها هرموناتها، ولا تكوين دماغها، بل هو نتيجة لوضعها. لذلك سنحاول أن ننظر إلى هذا الوضع نظرة تركيبية لندرك ما يسمى بالأنثى الخالدة في مجموع الشروط الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية.

يقابل بعضهم أحياناً بين «العالم النسائي» و«عالم الذكور» ولكن ينبغي أن نؤكد أن النساء لم يشكلن قط مجتمعاً مستقلاً مغلقاً بل كن دائهاً مندمجات بالجهاعة المحكومة من قبل الذكور. إنهن متحدات فيها بينهن بتضامن آلي وليس بينهن هذا الترابط العضوي الذي تتأسس عليه الجهاعات الموحدة. فقد اجتمعن دائهاً ليؤكدن «عالماً معاكساً» ولكنه يبقى عالماً مطروحاً في كنف عالم الرجال. عن ذلك ينشأ تناقض وضعهن: فهن يتبعن عالم الذكور ويتبعن في الوقت نفسه حلقة يُنكر فيها هذا العالم. لذلك صاحب خضوعهن دائهاً نوع من الرفض والإنكار.

إن المرأة تقر بأن العالم في مجموعه عالم ذكور. فالرجال هم الذين صاغوه وأداروه وهم الذين يحكمونه هذا اليوم. وهي تتلقف نفسها ككيان سلبي أمام هذه الآلهة التي لها

وجوه البشر والتي تحدد الغايات والقيم. أما نصيب المرأة فتقديم الخضوع والطاعة وإبداء الاحترام.

لا يبدو العالم للمرأة كمجموعة أدوات تلعب دور الوسيط بين إرادتها وغاياتها، بل هو، على العكس، مقاومة عنيدة لا يمكن ترويضها، يتحكم فيه القدر وتتخلله النزوات المبهمة. وإن الأعمال المنزلية تقترب من النشاط الفني إلا أنها بدائية جداً ومن الرتابة بحيث لا تقنع المرأة بالقوانين والسببية الميكانيكية. وعقلية المرأة تخلد عقلية الحضارات الزراعية التي تعبد الفضائل السحرية للأرض. ولا يكتس الزمن بالنسبة إليها صفة التجديد ولا يشكل ينبوعاً للإبداع. ولما كانت منذورة للتكرار فهي لا ترى في المستقبل الا صورة مطابقة للهاضي.

إنها لا تجهل ما هو العمل الحقيقي القادر على تبديل سطح العالم فحسب، بل إنها ضائعة وسط هذا العالم كما لو كانت في قلب السديم.

ولما كانت لا تعمل شيئاً في مملكة الرجال فإن تفكيرها لا يتميز عن الحلم ولا تملك الحس بالحقيقة. على كل حال، ليس من شأنها التبصر بالأشياء فقد علموها أن ترضخ لإرادة الذكور. فما عليها إذن إلا أن تزهد في النقد والتفحص وإبداء الأحكام تاركة كل هذه الأمور للطبقة العالية. لذلك يبدو لها عالم الذكور كواقع متسام، كشيء مطلق.

وتحب النساء خاصة أن يتجسد النظام والقانون في رئيس. وعن عجزهن وجهلهن ينشأ هذا الاحترام الذي يولينه للأبطال ولقوانين عالم الرجال. وهن يقبلن، بصورة عامة، ما هو موجود والرضوخ إحدى الصفات التي تميزهن.

لا تؤمن المرأة بتحريرها لأنها، على الأخص، لم تشعر قط بإمكانيات الحرية. ويبدو ملما أن العالم يُديره قدر غامض لا يمكن مجابهته. ولكن إذا ما فتحنا أمامها أبواب المستقبل فلن تتشبث بالماضي. كثير من المثالب التي تؤخذ على المرأة كالخجل والخمول والعبودية تعبر في الحقيقة عن أن الآفاق مسدودة أمامها. وإذا ما بدت ثرثارة فإنها تعزي نفسها عن بطالتها مستعيضة عن الأفعال المستحيلة... بالكلام. يعيبون عليها خنوعها واستعدادها الدائم للارتماء عند أقدام سيدها وتقبيل اليد التي ضربتها؛ ولكن ماذا تستطيع المرأة أن

216 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

نعمل دون أن يدعمها الرجل الذي هو بالنسبة إليها الوسيلة الوحيدة والسبب الوحيد العبش؟ ولئن كانت نفعية غير طموحة فذلك الأنهم يفرضون عليها الأعباء الرتيبة التي العبشة وعلو النفس. إنها لا تنتج إلا الوسائل كالأكل واللباس وهذه وسائط غير لا تخلق العظمة وعلو البهيمية والوجود الحر. والصفة الوحيدة المرتبطة بالوسائل غير جوهرية بين الحياة البهيمية والوجود الحر. والصفة الوحيدة المرتبطة بالوسائل غير الجوهرية هي المنفعة. هكذا تحتل المنفعة في سماء ربة المنزل مكاناً أعلى من الحقيقة والجمال والحرية وهي لا تواجه العالم كله إلا من خلال هذه الزاوية.

إننا نحبس المرأة في المطبخ أو في المخدع وبعد ذلك ندهش إذ نرى أفقها محدوداً؛ ونقص جناحيها ثم نشكو من أنها لا تعرف التحليق.

كل الذين يتلقون أسرار المرأة كالأطباء مثلاً يعرفون جيداً أن الشكوى هي النغمة الأساسية. ولكن الآخرين هم السبب فيها يحل بها، لذلك هم المسؤولون عن مصائبها وشقائها. فهي دائماً ضد شخص ما أو شيء ما. وهي تظن أن كل ما يحدث هو مثلاً بسبب البهود أو الماسونيين. ولما كانت يدها لا تقع على هؤلاء المسبين فإنها تبحث عن متهم نستطيع أن تحنق عليه بصورة ملموسة؛ فيكون الزوج الضحية المختارة.

ففيه يتجسد عالم الذكور ومن خلاله يتكفل المجتمع بالمرأة ويحيطها بالتعمية؛ أنه يحمل ثقل العالم، وإذا ما سارت الأشياء سيراً سيئاً فهو المسؤول، وعندما يحل المساء فإنها تشتكي إليه من الأطفال والباعة والطقس .. وهي تريده أن يحس بنفسه مذنباً. هذا الخصام الذي تحسه تجاه رجلها يربطها به بدل أن يبعدها عنه.

ليس من شك في أن حياتها المرتكزة إلى أساس من الثورة العاجزة هي سبب سهلة ليس من شك في أن حياتها المرتكزة إلى أساس من الرجال سيطرة على أعصابها. وإذا ظهر ذرف الدموع عندها بالإضافة إلى كونها أقل من الرجال سيطرة على أعصابها. وإذا ظهر لها أن الدموع غير كافية للعبير عن ثورتها فإنها تلجأ إلى تمثيل الأدوار العنيفة. أما المنفذ الأخير فهو الانتحار، ولكن يبدو أنها أقل لجوءاً إليه من الرجال. ولئن كانت تمثل لعبة الانتحار أكثر من الرجال فإنها لا تريده إرادة فعلية.

هناك تصرفات كثيرة لا ينبغي أن تفسر إلا على أنها احتجاجات. فالمرأة غالباً لا تخون زوجها رغبةً في اللذة بل عن تحدًّ؛ وهي تسرف عمداً في مشترياتها لأن زوجها منظم ومقتصد. وينجم روح المعاكسة الذي يؤخذ عليها غالباً من حرمانها من ميدان مستقل، ومن عدم تمكنها من مجابهة الذكور بقيم إيجابية مماثلة؛ لذلك لا تستطيع سوى إنكارها. ومن عدم تمكنها من مجابهة الذكور بقيم إيجابية مماثلة المدال المستطيع سوى إنكارها.

لقد خصصوا للمرأة دور الفضولي، والفضولي يلجأ حتماً للاستثمار. وأراد لها الرجل أن تكون متاعاً فجعلت من نفسها متاعاً. ويعرف الرجال جيداً أن مساوئ المرأة تعبر عن وضعها. ولما كانوا يحرصون على إبقاء التسلسل والتمايز بين الجنسين فإنهم يشجعون لدى النساء الصفات نفسها التي تخول لهم احتقارهن.

لا تملك المرأة الحس بالشمول بل يبدو لها العالم كمجموعة مبهمة من الحالات الفردية. وليس من شك في أنها تكنّ الاحترام للكتب، ولكن هذا الاحترام يمر بالصفحات المكتوبة دون أن يلم بمحتواها. وعلى العكس، تكتسب الحادثة أو القصة التي يرويها شخص ما في أحد أماكن التجمع صحة دافعة. كل شيء في ميدانها محاط بالسحر وكل ما في الحارج تحيط به الألغاز، لذلك لا تقنع إلا بالتجربة المباشرة.

وهي تؤمن بحالات الكشف التي تمر بها أكثر من المحاكمات الصحيحة بالنسبة إلى الجميع، معتقدة بسهولة أن هذا الكشف منزل عليها من الإله أو من أرواح مبهمة بجهولة. ومن النادر أن تتعظ بالتجربة بل تنتقل من فشل إلى آخر دون أن تستفيد من مجموع تجاربها. ولهذا السبب لا تنجح النساء في بناء «عالم معاكس» راسخ الأركان كي يتحدين الذكور.

يعيش الرجل في عالم متهاسك، في واقع يخضع للتفكير، أما المرأة فعلى اتصال مع واقع سحري لا يستجيب للفكر تهرب منه بالاعتباد على أفكار خاصة ذات مضمون واقعي. وبدل أن تأخذ وجوده على عاتقها تتأمل في السهاء فكرة مصيرها الصفة؛ وبدل أن تعمل تنصب في الخيال هيكلها وتمثالها؛ وبدل الاعتباد على المحاكمة تسبح في الأحلام. هكذا رغم كونها مادية أرضية تجعل من نفسها كائناً أثيرياً.

إن هذه التبعية المزدوجة للعالم المادي والعالم الشعري تُحدد الحكمة التي تلوذ بها المرأة بصورة متفاوتة الظهور. وأحد مفاتيح العالم النسوي هو مفهوم الانسجام الذي يستدعي الكمال ضمن السكون والتبرير الفوري لكل عنصر اعتباراً من الكل ومن مساهمته السلبية في المجموع.

218 الجزء الثالث: أوضاع المرأة

تعتاج المرأة إلى الدين شأنها في ذلك شأن الشعوب وتماماً لنفس الأسباب. فحينها نحكم على أحد الجنسين أو على أفراد طبقة ما بالجمود فلا بد من أن نقدم لهم سراب الصعود والتسامي. ومن مصلحة الرجل أن يدعم بضهان الإله مجموعة القوانين التي يصنعها بيده. وخاصة لما كان يهارس على المرأة سلطة الحاكم المطلق فمن المستحسن أن نكون هذه السلطة ممنوحة له من الكائن الأعلى المطلق.

إن خشية الله تخنق عن المضطهد كل رغبة في الثورة ... ولكن الإيهان الصادق يساعد الطفلة كثيراً على تجنب كل مركب نقص لأنها لا تكون حينئذ ذكراً أو أنثى بل من مخلوقات الله.

والدين يغذي أحلامها ويملأ فراغ ساعاتها ولكنه، على الأخص، يؤكد النظام السائد في العالم ويبرر الرضوخ، بإنعاشه الأمل في مستقبل أفضل وفي سهاء لا تفرق بين الجنسين.

زى أن مجموع طباع المرأة أي معتقداتها، قيمها، حكمتها، أخلاقها، ذوقها سلوكها تفسر بوضعها. ولما كان التسامي محرماً عليها فإن ذلك يشكل حائلاً دون بلوغ المواقف الإنسانية العليا كالبطولة والثورة والإبداع والاختراع. إلا أن هذه المواقف ليست كثيرة الحدوث حتى عند الرجال أنفسهم؛ فهنالك رجال كثيرون مقيدون مثل النساء بميدان الوسائل غير الجوهرية. إن العامل يهرب من وضعه بالعمل السياسي معبراً عن إرادة ثورية؛ أما الرجال التابعون للطبقة المتوسطة مثل التجار والمستخدمين فيقومون بأعمال متكررة رتيبة مثل أعمال النساء ولا ينشدون في الحياة إلا شيئاً من الراحة.

من السخف إذن أن نتحدث عن المرأة بصورة عامة أو عن «الرجل الخالد». لما كان وضعهما مختلفين اختلافاً عميقاً أصبح من المفهوم أن تعتبر باطلة غير مجدية كل المقارنات التي تستهدف تقرير فيها إذا كانت المرأة أعلى أو أدنى من الرجل أو مساوية له.

من الواضح، أننا إذا قارنا هذين الوضعين بالذات ألفينا أن وضع الرجل خير من وضع الرأة؛ بمعنى أن له إمكانيات ملموسة أوسع ليظهر حريته في العالم. وينجم عن ذلك أن إنجازات الرجال تفوق كثيراً إنجازات النساء اللواتي يحرم عليهن تقريباً عمل أي شيء.

إن الحرية الكامنة في كل منها تامة كاملة. وبها أنها تبقى حرية فارغة مجردة لدى المرأة، فإن الطريق الوحيدة المفتوحة أمامها هي طريق الثورة، طريق العاجزين عن بناء أي شيء. وليس الرضوخ إلا نوعاً من الاستسلام والهروب ولا يوجد أمام المرأة منفذ سوى العمل على تحرير نفسها.

هذا التحرير لا يمكن أن يكون إلا جماعياً ويستدعي قبل كل شيء انتهاء التطور الاقتصادي لوضع المرأة. ولكن كان ولا يزال هناك نساء كثيرات يحاولن بصورة منعزلة تحقيق خلاصهن الفردي. إنهن يحاولن تبرير وجودهن ضمن إطار الجمود. نجد هذا الجهد النهائي للمرأة المحبوسة التي تحول أفق سجنها المحدود إلى سماء واسعة، وعبوديتها إلى حرية عند محبة ذاتها، وعند العاشقة وعند المتصوفة.



الفَطَيْكُ الْأَوْلَ

عاشقة ذاتها

من الناس من يدعي أحياناً أن عشق الذات هو الموقف الأساسي لكل امرأة. ولكن هذا الفهوم يتهدم إذا جاوزنا الحدود في توسيعه كها هدم «لاروشفوكو» مفهوم الأنانية. والواقع أن «الأنا» في حالة عشق الذات تصبح غاية مطلقة؛ فينطوي الشخص على ذاته. والظروف، في الحقيقة، تدفع المرأة أكثر من الرجل إلى الالتفات إلى ذاتها وإلى أن تنذر جهالنفسها.

إن كل حب يستدعي الازدواج بين شخص وغرض. وتنجر المرأة نحو عشق الذان عن طريقين متلاقيين. فهي كشخص تحس بأنها محرومة؛ لذلك تخلع على نفسها أممية مطلقة لأنها لا تجد أي شيء مهم متيسر لها. ولئن كانت تستطيع أن تعرض نفسها لرغباتها الذاتية فلأنها تبدو لنفسها كغرض منذ طفولتها «ماري باشكيرتسيف» «إنتي بطلة نفسي».

والحقيقة، لا يمكن للمرء أن يكون شيئاً آخر بالنسبة لنفسه بصورة موضوعية؟ ولا بستطيع أن يعيش الازدواج إلا في الحلم.

الدمية هي التي تجسد هذا الحلم لدى الطفلة. ولكن المرأة تجد عوناً كبيراً في جهدها لمغادرة ذاتها والالتقاء مع نفسها بسحر المرآة، بعكس الرجل الذي يحس بنفسه كفعالية ويأبى أن يتعرف على ذاته في الصورة الجامدة. والمرأة الغارقة في صورتها المنعكسة تهيمن وحدها على الزمان والمكان وتحس أن لها كل الحقوق على الرجال.

ولئن كانت المرآة أداة الازدواج المفضلة فإنها ليست الوسيلة الوحيدة، بل هناك أيضاً الحوار الداخلي. والمرأة التي تعاني الوحدة والسأم تتسلى بتحويل شخصها إلى حلم. والمعلوم أن النساء يتمسكن بذكريات الطفولة تمسكاً كبيراً لأنهن كن آنذاك يشعرن بسلطة الأب كها كن يذقن مباهج الاستقلال.

وليس من حاجة إلى أن تكون المرأة جميلة كي تعبر عن شخصيتها في زينتها وفي باطنها. وتتناسب الصور في تماسكها وأصالتها مع ذكاء المرأة وعنادها ومدى انخطافها. وإذا لم تتصور المرأة في نفسها الجمال والسعادة فإنها تختار شخصية الضحية.

وهناك نساء كثيرات يؤمن بتفوقهن ولكنهن عاجزات عن إبرازه أمام أعين الناس؛ فيدفعهن الطموح إلى الاستعانة برجل يقنعنه بمواهبهن. إنهن يلتفتن إذن إلى الرجال المتمتعين بالشهرة آملات بالتوحد معهم إذا ما صرن ملهات لهم.

مثال ذلك «مابيل دودج» في علاقاتها مع «لورنس».

«كنت أريد أن أسحر فكره وأن أدفعه إلى إنتاج بعض الأشياء ... كنت بحاجة إلى نفسه وإرادته ومخيلته المبدعة ورؤيته المنيرة. كان ينبغي لي السيطرة على دمائه كي أصبح سيدة لهذه الوسائل الجوهرية».

كما أن «جورجيت لوبلان» كانت تريد أن تكون للشاعر ماترلنك «غذاء ولهيباً» ولكنها كانت تريد أيضاً أن ترى اسمها مسجلاً على كتاب الشاعر.

إن عاشقة ذاتها لا تتحمل رؤية إعراض الآخرين عنها. فإذا تأكدت أنها ليست معبودة فسرعان ما تفترض أنها مكروهة.

على أن مهزلة عشق الذات تجري على محساب الحياة الواقعية؛ وإذا ما صارت المرأة فريسة لنفسها فإنها تفقد تمكنها من العالم الملموس، ولا تحرص على إقامة أية علاقة واقعية مع الآخرين. ولما كانت الصور غير موجودة فإن عاشقة ذاتها تتعرض إلى فشل جذري. ومن الخطأ الاعتقاد أنها تتحرر من التبعية، بل على العكس، تزداد عبوديتها.

الفَطَيْلُ الثَّابِين

العاشقة

ليس للحب أبداً نفس المعنى إلى كل من الجنسين وهذا من أسباب سوء التفاهم الخطير الذي يفصل بينهما. وصدق «بيرون» بقوله إن الحب بالنسبة إلى الرجل أحد المشاغل فقط أما بالنسبة إلى المرأة فهو حياتها بالذات.

مهما تدله الرجل في حبه فإن المرأة المحبوبة بالنسبة إليه تبقى قيمة من بين قيم أخرى. في حين أن الحب بالنسبة إلى المرأة خضوع تام لمصلحة سيد.

والحقيقة أن ذلك لا يعبر عن قانون طبيعي؛ بل إن اختلاف وضعها هو الذي ينعكس في المفهوم الذي يتبناه الرجل والمرأة عن الحب. فالمرأة تحلم في الاتحاد والتهازج مع كائن أسمى وليس أمامها من مخرج سوى أن تذوب جسداً وروحاً في الشخص الذي حُدِّد لها على أنه المطلق والجوهري. ولما كانت مقيدة بالتبعية فالأفضل لها أن تخدم إلها من أن تطيع طاغية. وتصل بها اللهفة في إرادة العبودية حد اعتبار هذه العبودية كتعبير عن حريتها. ويصبح الحب ديناً وعبادة بالنسبة إليها.

تتمنى الفتاة الساذجة دائهاً أن يلخص الحبيب جوهر الرجل. إلا أن ما يحدث غالباً هو أن المرأة لا تنجح في تحويل أي رجل إلى إله.

إن المرأة لا تستطيع التوفيق المنسجم بين الشبق وعشق الذات لا بالحب، ولكن التضاد بينهما يجعل تكيف المرأة مع مصيرها الجنسي صعباً جداً. فالتحول إلى متاع

جسمي، إلى فريسة، يناقض ما تكنّه المرأة من عبادة لذاتها. لذلك يصطفي بعض النساء البرود الجنسي ظناً منهن أنهن يحافظن هكذا على سلامة ذاتهن؛ في حين أن البعض الآخر يفصلن بين الملذات البهيمية والمشاعر السامية.

وتحس العاشقة برغبة جامحة في تخطي حدودها الخاصة لتصبح غير محدودة الآفاق بفضل شخص آخر تفتح أمامه أبواب الواقع اللامتناهي. إنها تستسلم للحب في الأول كي تنقذ نفسها ولكن التناقض الكامن في الحب المتعبد هو أن العاشقة ينتهي بها الأمر إلى إنكار ذاتها.

إن الهدف الأخير للحب البشري كها للحب الصوفي هو التوحد مع ذات المحبوب. ولما كان قياس القيم وحقيقة العالم في وجدانه، فليس كافياً إذن أن تخدمه المرأة؛ بل إنها تحاول أن ترى بعينيه.

الحب الصحيح ينبغي له تقبل النواقص والحدود في شخص المحبوب ولا يدعي أن يكون سوى علاقة إنسانية. أما الحب المتعبد فيكسب شخص المحبوب قيمة مطلقة، وهذه كذبة أولى تفضحها أنظار الآخرين. وحتى لو كان جديراً بأعمق حب فإن حقيقته إنسانية وطينته بشرية.

إن رفض تطبيق القياس البشري على شخص المحبوب يفسر كثيراً من تصرفات النساء المتناقضة. فها دام الحبيب محبوباً فإنه يرفع إلى مرتبة الألوهية ومتى كفت المرأة عن عبادته عمدت إلى دوسه بالإقدام.

لا تكاد المحبة تذوب في شخص المحبوب حتى تعمل على انتشال ذاتها. إنها تستسلم له بكليتها، ولكن ينبغي له أن يكون مستعداً بكليته ليستلم هذه الهدية.

إلا أن المرأة لا تقبل حقاً أن يكون الرجل سجينها ولا شيء سوى ذلك، وهذا من المتناقضات المؤلمة الكامنة في الحب. لأن الإله إذا صار سجيناً تعرى من ألوهيته.

وتبذل العاشقة الحذرة الجهود كي تحول هوى عشيقها إلى حنان وصداقة أو تحاول أن تربطه بوشائج متينة كالطفل. ولا يعتبر فشل الحب المطلق تجربة خصيبة إلا إذا بقيت المرأة قادرة على التحكم بنفسها؛ مثل هذه العاشقة التي أنقذت نفسها باهتمامها بإدارة أحد الأديرة، أي أنها بنت لنفسها كياناً مستقلاً.

يجب أن يؤسس الحب الصحيح على الاعتراف المشترك بوجود حريتين دون أن يتخلى أي من المحبين عن نزوعه إلى الارتقاء.

يوم تستطيع المرأة أن تحب بقوتها لا بضعفها، لا لتهرب من ذاتها، بل لتكتشف نفسها؛ في ذلك اليوم يصبح الحب للمرأة كها للرجل، ينبوع حياة لا مصدر خطر قاتل. وفي انتظار حدوث ذلك، يلخص الحب اللعنة التي تحيق بالمرأة المحبوسة في العالم النسوي والعاجزة عن كفاية نفسها بنفسها.

الفَطَيْلُ الثَّالِيْنُ

المتصوفة

كتب على المرأة الحب كغاية قصوى؛ وحينها تحب رجلاً ما فإنها تبحث فيه عن الآلهة. فإذا حالت الظروف دون أن تحب حباً إنسانياً أو صدمت في قلبها أو كانت كثيرة الإلحاح فإنها تميل إلى عابدة الألوهية في الإله نفسه. والنساء بعكس الرجال، يعشن لمفتهن الصوفية بصورة عاطفية لا فكرية. والمحبوب يبقى غائباً ولكنه يتصل بعبادته عن طريق الرموز المبهمة. وليست المرأة في حاجة إلى الرؤية واللمس كي تحس بالحضور إلى جانبها، ويتهازج الحب الإنساني والحب الإلهي لا على أن الحب الثاني تصعيد للأول، وإنها لأن الحب الأول هو أيضاً وثبة نحو السامى، نحو المطلق.

يشاهد لدى الكثير من الورعات هذا الخلط بين الرجل والإله. وإن ما تصبو إليه كل متصوفة هو بلوغ ينبوع القيم الأسمى. وهي بحاجة أحياناً إلى الرجل كوسيط لتثب نحو السموات؛ على أن ذلك ليس ضرورياً دائهاً.

ويدعي بعضهم أحياناً أن فقر اللغة يضطر المتصوفة إلى استعارة المفردات الجنسية؛ ولكنها لا تستعير من الحب الأرضي الكلمات فقط، بل تستعير أيضاً بعض التصرفات الجسمية، فيصدر عنها كي تهب نفسها للرب، السلوك نفسه الذي يصدر عنها حينها تهب نفسها للرجل. على أن ذلك لا يقلل أبداً من قيمة مشاعرها.

لا تقاس قيمة التجربة الصوفية بالطريقة المعاشة شخصياً، بل بحسب أهميتها الموضوعية. فالقديسة تيريز تطرح مشكلة العلاقة بين الفرد والكائن الأسمى بصورة فكرية؛ ولكنها تشكل استثناءً لأن الأكثرية تقدم لنا صورة نسوية عن العالم والخلاص.

إن المرأة تبحث في الحب الإلهي ما تنشده المحبة من حب الرجل.

النشوة والرؤى والحوار مع الإله هذه هي الأشياء، هذه هي التجربة الضمنية التي تكفي بعض النساء. إلا أن هناك أخريات يشعرن بالحاجة إلى الاتصال بالعالم عن طريق الأفعال. وتأخذ الصلة بين الأفعال والتأملات شكلين مختلفين جداً: فالنساء مثل (جان دارك) يعرفن أهدافهن تمام المعرفة ويستنبطن عن بصيرة الوسائل لبلوغها. وهناك نساء لا يهمهن إلا أن يعملن شيئاً ما، مهما يكن هذا الشيء.

إن كل هذه الجهود لتحقيق الخلاص الفردي لا يمكنها في حد ذاتها أن تؤدي إلا إلى الفشل. فالمرأة إما أن تتصل بشيء غير واقعي، أو أنها تخلق علاقة غير واقعية مع كائن واقعي؛ لذلك تبقي حريتها خاضعة للتعمية. وليس هناك سوى طريقة واحدة لاستكمال هذه الحرية استكمالاً صحيحاً وهي أن تقذف بها في أعمال إيجابية ضمن المجتمع الإنساني.

الجُهُرُّةُ الْإَلْمِيْنُ نمو نمرر المراة

الفَطَيْكُ الْأَوْلَ

المرأة المتحررة

ً لم تعد أغلبية القوانين المدنية تتضمن نصوصاً تلزم المرأة المتزوجة بطاعة زوجها والولاء له. كما أن كل مواطنة أصبحت تتمتع بحق التصويت. لكن هذه الحريات المدنية تبقى خيالية إذا لم يصحبها استقلال المرأة الاقتصادي، وما دامت المرأة تعيش على عاتق الرجل - سواء كانت زوجة أو محظية - فإن بطاقة الانتخاب لا تكفي لتحريرها من سيطرة الرجل، وإذا كانت العادات في الوقت الحاضر تفرض عليها التزامات أخف وطأة مما كان عليه في الماضي، فإن هذه الحريات السلبية التي حصلت عليها لم تغير حالتها ووضعيتها بصورة جذرية، فهي لا تزال تعيش ضمن نظام التبعية للرجل. وقد قطعت المرأة خطوات واسعة من المسافة التي تفصلها عن الرجل بفضل العمل، الذي يستطيع لوحده أن يضمن لها أن تتمتع بحرية واقعية ملموسة وأن تشعر بالنتيجة بمسؤولياتها بواسطة الأموال والحقوق التي تملكها، وتحس بشخصيتها المستقلة. إلا أنه يجب علينا أن .ر لا نعتقد أن مجرد حصول امرأة على حق معنوي، ومزاولتها مهنة من المهن يشكل بحد داته تحريراً كاملاً لشخصية المرأة: إن العمل في يومنا هذا لا يعني مطلقاً الحرية، ولا يمكن ذاته تحريراً كاملاً لشخصية المرأة أن تتحرر تحرراً تاماً بواسطة العمل إلا ضمن المجتمع الاشتراكي، لأن أغلبية معر. العُمّال في المجتمع الرأسيالي، مستثمرون من قِبَل رأس المال. كما أن البيئة الاجتماعية من ربعات بي المعالم المع جه الذي كان يعتبر ملكاً للرجل، لا يزال يحافظ على الشكل الذي طبعه به هؤلاء، ويجب أن

لا يغيب هذا الأمر عن أذهاننا حين نعالج قضية ممارسة المرأة للعمل، تأثير ذلك على أوضاعها الاجتماعية. وقد أكد أغلبية عاملات مصانع «رينو» للسيارات تفضيلهن البقاء أوضاعها الاجتماعية. وقد أكد أغلبية عاملات مصانع «دينو» للسيارات تفضيلهن الم في المنزل عوضاً عن العمل خارجه، كما يجب أن نلاحظ أن هؤلاء العاملات توصلن إلى استقلالهن ضمن طبقة مضطهدة اقتصادياً، وأن أعمال المرأة خارج البيت لا تعفيها من القيام بأعبائها المنزلية. وفي يومنا هذا لا تستطيع غالبية النساء العاملات التهرب من الحكم النسوي التقليدي ولا تلقين من المجتمع أو من الأزواج أية مساعدة، لكي يصبحن حقيقة مساويات للرجال، ولا يستثنى من ذلك سوى النساء اللواتي يؤمن بعقيدة سياسية وينتظمن في صفوف النقابات، الأمر الذي يؤدي إلى تحريرهن تحريراً كاملاً من سطوة الرجل.

هنالك عدد كبير من النساء في يومنا هذا، يتمتعن بميزة الاستقلال الاقتصادي والاجتهاعي، من خلال ممارسة إحدى المهن. والأحاديث تدور في المجتمعات عن إمكانيات المرأة التي تنتمي إلى هذا النوع من النساء، وعما سيكون عليه مستقبلها. وعلى الرغم من أنهن لا يشكلن سوى أقلية ضئيلة بين النساء فإن دراسة أوضاعهن بشكل خاص هو أمر هام بحد ذاته، لأن المناقشات والمساجلات بين أنصار وأعداء تحرير المرأة تدور حولهن. يؤكد المعادون للمرأة المتحررة أنها لا تنتج في حياتها أي شيء له قيمة أو أهمية، وأنها تجد مشقة كبيرة في التوصل إلى توازن نفسها الداخلي. أما أنصار المرأة فإنهم يبالغون في النتائج التي حصلت عليها ويتعامون عن قلقها واضطرابها في حياتها الجديدة. والواقع أنه ليس هنالك ما يدل على أن المرأة لم تختر الطريق القويم، ومع ذلك فإنها لم تشعر بعد بطمأنينة وسلام في حياتها الجديدة: إنها في منتصف الطريق، لأن المرأة التي تتحرر اقتصادياً من رابطة التبعية نحو الرجل لا تجد نفسها، على الرغم من ذلك، في شروط أخلاقية واجتهاعية ونفسية مماثلة لشروط الرجل. والواقع هو أن الطريقة التي تمارس فيها المرأة مهنتها تتأثر بمجموع شروط حياتها. وهي حين تباشر حياتها كراشدة لا تخلف وراءها الماضي نفسه الذي يخلفه الفتى وراءه، كما أن المجتمع لا ينظر إليها نظرته نفسها إلى الفتي، فالعالم ينفتح أمامها في شروط تختلف عن شروطه، وصِفَتها كامرأة يفرض عليها كإنسان مستقل مشاكل خاصة.

234 الجزء الخامس: نحو تحرر المرأة

إن الامتياز الذي يتمتع به الرجل؛ والذي يشعر به منذ طفولته، هو ميله لأن يكون إنساناً بشرياً مستقلاً لا يتعارض مطلقاً مع مصيره كذكر. أما المرأة فإن المجتمع يطلب إنسان . . منها أن تكون متعة وفريسة، لكي تكتمل عناصر أنوثتها، وهذا يعني بالنسبة لها، التخلي مه مطلبها في أن تكون إنساناً حياً يتمتع بالسيادة. وهذا الخلاف الذي يميز بشكل خاص حالة المرأة المتحررة، فهي ترفض أن تقتصر على القيام بدور الأنثى لأنها لا تريد أن تنتقص من شخصيتها، لكن تخليها عن هذا الدور ينتقص من قدرها كامرأة. إن الرجل هو إنسان شري له جنس خاص، ولا يمكن للمرأة أن تكون بالمقابل فرداً كاملاً مساوياً للرجل إلا إذا كانت هي نفسها شخصاً بشرياً لها جنسها الخاص، فالتخلي عن أنوثتها يعني التخلي . جزئياً عن إنسانيتها. وكثيراً ما نرى أعداء المرأة يوجهون اللوم إليها، إذا كانت متحررة، لأنها تحمل جمالها وزينتها وأنوثتها. لكنهم لا يتورعون عن تقديم النصح للمرأة التي تطمع في الاستقلال فيقولون لها: إذا أردت أن تحصلي على المساواة معنا، توقفي عن طلاء وجهك بالمساحيق، وأظافرك بمختلف أنواع الأصبغة. إن هذه النصيحة الأخيرة هي سخيفة جداً بحد ذاتها، لأن مفهوم الأنوثة تفرضه العادات والتقاليد دون أن يكون لها أي مجال للاختيار، وقد يتطور هذا المفهوم فيفترق بعض الشيء عن القواعد التي يتبعها الرجل. فعلى الشاطئ يصح السروال زياً نسائياً، لكن هذا لا يغير في الواقع من طبيعة الأشياء، لأن الفرد لا يتمتع بالحرية في تعديل طراز حياته كما يشاء ولا شك أن قيمة المرأة تقل جنسياً إذا لم تخضع للقواعد المألوفة، هذا يؤدي بالتالي إلى فقدانها لمنزلتها الاجتماعية، لأن المجتمع الذي نعيش فيه يأخذ بعين الاعتبار القيم الجنسية، وتخلى المرأة عن صفاتها الأنثوية لا يعني آلياً حصولها على ميزات وصلاحيات الرجل، ولو أنها لجأت إلى التنكر في زي وشكل الرجل لما استطاعت أن تغير من طبيعتها كامرأة لأنها تبقى في مفهوم وعُرف الناس امرأة متنكرة. ولقد استقرت الأمور على أن الفرد الذي يخالف قاعدة تفرضها العادات والتقاليد يصبح متمرداً ثائراً على المجتمع وأن المرأة التي ترتدي ثيابها بشكل غريب يلفت الأنظار، تكذب حين تؤكد بكل بساطة أنها تشبع ميلها الفطري، لا أكثر ولا أقل، لأنها تعلم بأن المرأة التي تتبع ميولها وغرائزها دون الالتفات إلى القواعد التي استقرت عليها مفاهيم المجتمع، هي امرأة غريبة متمردة عليه، وبالعكس، فإن المرأة التي لا تود ولا ترغب في الظهور بشكل مثير غريب تكون قد خضعت للقواعد المشتركة

المألوفة. وباستثناء بعض الحالات فإنه من الخطأ اختيار موقف التحدي تجاه العادات والتقاليد، لأن من يقدم على ذلك يستهلك وقته وقوته دون أي جدوى في أغلب الأحيان، ولذلك فإن المرأة التي لا ترغب في صدم مفاهيم الناس والتي لا تريد أن تفقد منزلتها الاجتماعية، أن هذه المرأة يجب عليها أن تعيش حياة بقية النساء وفي أغلب الأحيان، لا تستطيع أن تنجح في عملها إلا إذا اتبعت هذا الاتجاه.

إن المرأة تعلم بأن الناس يحكمون عليها ويحترمونها ويرغبون فيها من خلال زينتها وثيابها نفسها تؤهلها منذ البداية لأن تظهر بمظهر العاجزة: فجواربها تتمزق وكعوب أحذيتها تتآكل بسهولة وفساتينها ذات الألوان الفاتحة تتسخ، ومع ذلك فإنها مضطرة إلى معالجة ذلك بنفسها، وتصلح ثيابها كي تستطيع أن تظهر بشكل لائق أمام الناس. وحين تعود المرأة العاملة أو الطالبة مساء إلى بيتها فإنها لا تجد الراحة بل تضطر في أغلب الأحيان إلى الانصراف إلى تحضير زينتها ومظهرها لليوم التالي، ولا شك أنه بوسعها إذا كانت تحصل على أرباح طائلة أن تتلافي هذه المشاغل المملة المتعبة، لكنها مضطرة مقابل ذلك إلى أن تظهر بأناقة أكثر تقيداً فتضيع وقتاً طويلاً في شراء حاجياتها وفي الذهاب إلى دور الخياطة والأزياء. وتفرض التقاليد على المرأة كذلك، حتى ولو كانت عزباء، بعض الاهتام والأزياء. وتفرض التقاليد على المرأة كذلك، حتى ولو كانت عزباء، بعض الاهتام بحياتها الداخلية فالموظف الذي يعين في مدينة جديدة يقطن في الفندق بكل سهولة بينا تسعى زميلته في أن تسكن داراً خاصة بها يتوجب عليها العناية بها وعدم إهمالها.

إلا أن المرأة لا تخصص هذه الأوقات الطويلة من حياتها للعناية بجهالها ومنزلها تلبية لرغبة المجتمع وحسب، وإنها تفعل ذلك إرضاء لنفسها والشعور على الدوام بصفتها كامرأة. ولأنها لا يمكن أن تعيش بهدوء إذا لم تجمع بين حياة عملها الذي اختارته مع حياتها كأنثى، هذه الحياة الأخيرة التي استعدت لها في طفولتها بعز شبابها، تغذيها أحلامها النرسيسة، إنها تريد أن تعرض نفسها وتسحر جميع الناس المحيطين بها. لقد كان الحصول على بيت خاص بها، الشكل البدائي من الاستقلال والتحرر وهي الآن لا تود التخلي عنه بعد أن حصلت على حريتها في مجالات أخرى لأنها تعلم بأنها تستطيع أن تأوي إلى هذا البيت حين ينتابها القلق والاضطراب في عالم الذكور. أمينة على التقاليد الأنثوية، تداوم المرأة العاملة على القيام بجميع الأعباء المنزلية، إنها تريد أن تعيش في وقت واحد حياة المرأة المراة، وبذلك تتعدد مشاغلها وتتضاعف متاعبها وجهودها.

وإذا كانت المرأة تأمل في أن تبقى متمتعة بصفات الأنوثة فإنها تود كذلك أن تحتك مالحب الخشن مع أكبر حظ لها في النجاح، ومهما تمتعت المرأة العاملة بالثروة والشهرة فإن به... بعرد ممارستها نشاطاً مستقلاً يناقض أنوثتها؛ وأنها لتعلم ذلك تمام العلم. إن المرأة المستقلة بر _ وبصورة خاصة المثقفة - تعاني من مركب النقص بصفتها أنثى، إذ ليس لديها الوقت الكافي لتخصيصه إلى العناية بجمالها، ومهما اتبعت نصائح الاختصاصيين فلن تكون في ميدان الأناقة سوى مجرد هاوية. إنها تحاول على الدوام أن تحصل على إعجاب الرجل لكنها تفشل في أغلب الأحيان، وهذا الفشل يولد في نفسها شعوراً بالمرارة والنقص، فترتكب أخطاء تماثل أخطاء المرأة في سن اليأس: فهي تحاول أن تتجاهل قوتها الذهنية كما تحاول المرأة المشرفة على الشيخوخة أن تتجاهل سنها، فنراها ترتدي أزياء الفتيات الصغيرات ذات الألوان الزاهية، وتبالغ في الكلام باللهجة الصبيانية التي تستغرب كل شيء، وقد تلعب كالأطفال وتقفز كالعصافير وتثرثر دون كلل أو ملل. لكنها تبدو في ذلك كالممثلات المبتدئات ... وأنها لتحس بذلك وتستاء من نفسها، ولذلك تبدو على مظهر الوجه البسيط، من وقت لآخر لمحات خاطفة من الذكاء الحاد، فلا تلبث الشفاه البريئة الممدودة من أن تتقلص. ولا شك في أن الصعوبات التي تلاقيها المرأة المثقفة في الحصول على إعجاب الرجال يعود إلى أنها ليست فريسة لرغبة إثارة إعجاب الرجال بها فحسب، ومهما كانت هذه الرغبة قوية لديها فإنها لا تنبت من أعماق نفسها، لأنها ما أن تحس بتصرفها السخيف الغريب حتى تستاء من عبوديتها وتحاول أن تنتقم باستعمال أسلحة الرجال، فتتكلم عوضاً عن أن تصغي وتشرح أفكارها بكل إسهاب وتعارض محادثيها عوضاً عن الموافقة على آرائهم، وتحاول التغلب عليهم.

مهما يكن الأمر، فإن الرجال بدؤوا يسلمون بالشروط الجديدة لحياة المرأة، على أنه واقع لا بد منه. وأخذت المرأة تشعر بالراحة بدورها لأنها لم تعد محكوماً عليها بالبقاء في أوضاع التبعية. ومع ذلك، فإن هذا النجاح – الذي يشكل منذ الآن تقدماً محسوساً نحو وضعية التوازن – لا يزال غير مكتمل العناصر. فحياتها الجنسية والعاطفية تصادف حواجز شتى، وهي لا تزال تجد صعوبة أكثر من الرجل في إقامة العلاقات التي تريدها مع الجنس الآخر، على أنه يجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن المرأة التابعة التي لا عمل لها كالزوجة أو المحظية تتمتع بامتياز في هذا المجال، لأن حقوقها هي الأخرى مهضومة

بشكل جذري، لكن المصاعب تجابه المرأة المستقلة بشكل أشد وضوحاً لأنها اختارت النضال عوضاً عن الاستسلام. إن جميع مشاكل الحياة تجد حلاً نهائياً لها في الموت، وأن المرأة التي تحاول أن تعيش بحرية هي أشد انقساماً واضطراباً من الأخرى التي تدفن إرادتها ورغباتها وتستسلم لمصيرها الذي يفرضه عليها مجتمعها.

تحتاج المرأة العاملة التي تبذل الجهود الكثيرة وتتحمل المسؤوليات الضخمة، والتي تعرف معنى النضال ضد مقاومة العالم الخارجي لها، تحتاج هذه المرأة لا إلى إشباع شهواتها الجسدية فحسب وإنها إلى الشعور بالهدوء والسكينة اللذين تجلبهها المغامرات الجنسية السعيدة. غير أن هنالك أوساط اجتهاعية عينة لا تعترف لها بهذه الحرية وقد تتعرض إذا مارستها إلى فقدان سمعتها ومهنتها، وحتى في أحسن الحالات - حين لا يكون لرأي الناس أية أهمية، فإن المرأة لا تتساوى مع الرجل، ويعود السبب في اختلاف الحالتين إلى التقاليد والمشكل التي تثيرها الطبيعة الجنسية الخاصة للمرأة.

يستطيع الرجل بكل سهولة أن يطفئ ظمأه الجسدي دون أن يتولد عن ذلك أية نتائج ضارة. وقد طالب في الماضي عدد قليل من النساء بفتح محلات عامة لهن أسوة بالرجال، وفي إحدى القصص المسهاة (رقم 17) اقترحت المؤلفة تأسيس بيوت تلجأ إليها النسوة لتصريف عاطفتهن الجنسية بواسطة (رجال – تاكسي)، ويظهر أن مؤسسة من هذا النوع وجدت في مدينة سان فرانسيسكو، وكان يؤمها بنات المحلات العامة فقط، اللواتي كن على غاية السرور لأنهن يدفعن ثمن لهوهن وتسليتهن، وقد أغلقت هذه المؤسسة نتيجة لضغط عماة تلك الفتيات. وبالإضافة إلى كون هذا المحل خيالياً وغير مرغوب فيه، فإنه سيلقى في حالة تطبيقه نجاحاً ضئيلاً؛ فقد رأينا أن المرأة لا تحصل «التفريغ» الجنسي ألياً كها هو الحالة لدى الرجل، أما الحل الذي ينحصر في التفتيش عن رفيق ليلة أو ساعة في الشوارع – بفرض أن المرأة تقبل الإقدام على هذا الأمر – فإنه أكثر خطراً بالنسبة إليها من الرجل، لأن الأمراض التناسلية هي أشد خطورة لديها كما أنها لا تستطيع أن تتلاف أخطار الحمل والولادة ... إلخ. غير أن اختلاف القوة الجسدية يشكل العقبة الكأداء في العلاقات من هذا النوع بين الرجل والمرأة، فليس للرجل أن يخاف شيئاً من المرأة التي يصحبها إلى بيته، لكن الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للمرأة التي تسمح بإدخال رجل يصحبها إلى بيته، لكن الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للمرأة التي تسمح بإدخال رجل

غريب إلى بيتها. وقد حدثني البعض عن قصة امرأتين شابتين ذهبتا في زيارة خاصة عرب .-لباريس، «للتمتع بلذائذ الحياة»، وبعد أن قامتا بجولة ليلية في أحياء المدينة، وجهتا بهري الدعوى إلى شابين فاتنين من حي مونهارتر لتناول الحساء في بيتهما. وقد سلب الشابان متاعهما في الصباح بعد أن تعرضتا للعنف والتهديد بالقتل. وقد نمي إليّ حالة أخرى تعطينا صورة واضحة عن أخطار مثل هذه المغامرات، وهي قصة امرأة في الأربعين من عمرها، مطلقة من زوجها، كانت تعمل بجد واستمرار لإعالة أولادها الثلاثة وأبويها المسنين. كانت لا تزال جميلة جذابة ولم يكن لديها مطلقاً الوقت الكافي لإقامة علاقات اجتهاعية مع الناس، ومع ذلك كانت غرائزها تدفعها إلى القيام بعمل ما، وكانت تعتبر أنه من حقها كالرجل تماماً أن تلبي نداء غرائزها وتطفئ ظمأها. وكانت تتجول في بعض اللَّيالي في الشوارع مفتشة عن رجل يشبع رغباتها، إلا أنها فوجئت في إحدى المرات بعد أن قضت ساعتين مع رجل في غابة بولونيا، أن رفض عشيقها السماح لها بالذهاب إلا إذا أعطته اسمها وعنوانها وطلب أن يراها مرة ثانية وأن يعيش معها على الدوام، وحين رفضت ضربها بعنف ثم تركها مثخنة الجراح بين الموت والحياة. وقد تلجأ بعض النسوة إلى اختيار عشيق يعيش معهن مقابل إعالته والإنفاق عليه، لكن هذه الطريقة لا ترضى أكثر الرجال لتعارضها مع رجولتهم، كما أنه من الصعب على المرأة إذا لم تكن مسنة أن تفصل عواطفها عن رغبتها الجسدية.

وهكذا نجد أن المرأة المتحررة منقسمة على نفسها بين مصالحها المهنية ومصيرها التقليدي كامرأة، وهي تجد مشقة كبيرة في الوصول إلى وضعية التوازن، وإذا أتيح لها الحصول على هذا التوازن، فإنها تكون قد دفعت الثمن سلسلة من التنازلات والتضحيات، وعانت حالات مخيفة من التوتر العصبي الدائم. وفي مثل هذه الأمور، يجب أن نفتش عن أسباب انفعال المرأة المستمر وانهيار أعصابها التي لا تعود حتماً إلى أسباب فيزيولوجية. وقد تساءل المختصون منذ زمن طويل عن الدور الذي تلعبه البنية الجسدية للمرأة في حياتها، وبصورة خاصة، هل تشكل الدورة الشهرية عائقاً أمام المرأة في سبيل حصولها على استقلالها وتحررها لكن التحقيقات دلت على أن أكثرية النساء اللواتي بمتزن بالتفوق، لا يعلقن أية أهمية على الدورة الشهرية لأن انصراف المرأة إلى عملها بمتزن بالتفوق، لا يعلقن أية أهمية على الدورة الشهرية لأن انصراف المرأة إلى عملها

وتفوقها فيه يجعلها تنسى محاذير الدورة الشهرية وتقلل من أهميتها؛ وهذا لا يعني أن متاعب المرأة الناتجة عن بنيتها الجسدية هي متاعب خيالية، بل هي حقيقية كالحالة التي تعبر عنها. لكن حالة المرأة لا تنبع من حالتها الجسمانية وإنها تتكيف نتيجة لأوضاعها الاجتهاعية فصحتها وبنيتها لا تضرانها في عملها حين تجد المكان اللائق بها في المجتمع، بل إن العمل يساعدها على العكس من ذلك في الوصول إلى توازنها الداخلي فيجعلها تنسى متاعبها في غمرة مشاغلها المهنية.

يجب أن لا تغيب هذه الوقائع والملابسات عن أعيينا حين نحاول أن نحكم على مدى نجاح المرأة في ميدان العلم. فهي تباشر مهنتها معذبة قلقة نتيجة للأعباء التي تجثم عليها تقليدياً بسبب أنوثتها. كها أن الشروط الموضوعة ليست بصالحها كذلك: من الصعب دائهاً على القادم الجديد أن يشق طريقه وسط مجتمع معاد له أو ينظر إليه نظرات الريبة والشك. وقد بين ريتشارد رايت في كتابه «الصبي الأسود» كيف يحد المجتمع الأميركي منذ البداية من طموح الزنجي الشاب وكيف يتوجب عليه أن يناضل كي يرتفع إلى مستوى المعاملة بالمثل مع البيض. كها أن الزنوج القادمين إلى فرنسا من إفريقيا يصادفون صعوبات مشابهة للصعوبات التي تصادف المرأة حين دخولها ميدان العمل.

تجد المرأة نفسها بادئ ذي بدء في حالة الفقر خلال فترة التحرير. ولقد أشرت إلى ذلك قبلاً في الفصل المخصص لدراسة حياة الفتاة الشابة، ويجب علي الآن أن أفصله بإسهاب. فمن النادر أن تتمكن المرأة خلال دراستها وأثناء السنوات الأولى الحاسمة لمارستها المهنة، من الاستفادة استفادة تامة من فرص حظها في النجاح لأن الأزمات النفسية التي تكلمنا عنها تبلغ ذروتها بين سن 18 و 30 وخلال هذه الفترة يتقرر مصيرها المهني. إنها لا تستطيع أن تنصرف إلى أمور مستقبلها المهني بسبب انشغالها بأمور أخرى غريبة عن عملها، ولذلك فإن مردود عملها يظهر ضعيفاً كما أن وجود نساء في نفس مستواها الاجتماعي يعشن بدون عمل طفيليات على الرجال يضعف معنوياتها. فبعض الرجال يمتع بعض النساء بالثروة دون بذل أي عناء شخصي الأمر الذي يغري النساء العاملات على ترك العمل واختيار الطريق السهلة.

240 الجزء الخامس: نحو تحرر المرأة

إن الرجل يتبع الضرورة الحتمية حين يعمل ويكد ليكسب عيشه، لكن المرأة مضطرة إلى تجديد قرارها بالانصراف إلى العمل في كل مناسبة لأن إغراء الاستسلام إلى الراحة والكسل والعيش في كنف الرجل لا ينفك يراودها، وهكذا فإنها لا تضع نصب عينيها هدف النجاح في عملها وإنها تتردد وتتساءل في كل مناسبة عن ضرورة ما تقدم إليها. ومما يزيد في ترددها، شعورها بفقدان جزء من أنوثتها كلها توغلت في ميدان النجاح وانتهت في حياتها المهنية. وهذا النزاع المستمر بين النضال للحصول على حريتها المادية، وبين دوافع الإغراء التي تدعوها للتخلي عن هذه الطريقة الصعبة والاستسلام إلى مصيرها كامرأة يؤثر على مردود عملها ويضعها في موقف العاجز بالنسبة للرجل الذي تنسجم شخصيته مع ضرورات الحياة المهنية التي اختارها.

تخلق شروط الحياة المستقلة في المرأة نفسها التي تحنو إلى أن تكون امرأة كما يريدها المجتمع، مركب نقص شديد؛ وتجعلها أنوثتها على العكس من ذلك، تشك على الدوام في كفاءتها المهنية. وتكتسب هذه النقطة الأخيرة أهمية كبيرة فقد صرحت بعض الفتيات في سن الـ 14 «إن الفتيان هم أشد كفاءة منا ويعملون بسهولة فائقة لا توجد لدينا» وأكثرية الطالبات يؤمن بهذه النظرة لأن الأهل والأساتذة يُجمعون على تفوق الفتيان. وقد دلت التحقيقات بالفعل على أنه رغماً من تماثل البرامج، فإن مستوى صف الفلسفة للطالبات أقل بكثير من مستوى نفس الصف للذكور، وهذا طبعاً باستثناء الحالات الشاذة. تتضاعف هذه العوامل وتتضامن وتضعف ثقة الفتاة بنفسها وتجعلها تؤمن بتفوق الرجل عليها فتشعر بالتعب والعصبية من الدراسة ويتلاشى من نفسها الميل إلى النضال والاطلاع وتتمنى لو تستطيع أن تتزوج فتنتهي من هذه الحياة المملة المتعبة.

نتيجة لهذه الانهزامية تقنع المرأة بسهولة بنجاح بسيط في حياتها المهنية ولا تجد في نفسها الجرأة على بلوغ المراتب العليا فتبدأ بمزاولة مهنتها بخبرة سطحية وتضع سريعاً الحدود لطموحها؛ ويبدو لها في أغلب الأحيان أن مجرد توصلها إلى كسب حياتها بجهودها يشكل بحد ذاته ميزة عظيمة لها. لقد كان بوسعها أن تضع مستقبلها بيد أحد الرجال وتستسلم إلى حياة الكسل والارتخاء، ولذلك فإنها بحاجة إلى بذل مجهود كبير منهك لكي تثابر على عملها وكثيراً ما تخاف من الذهاب بعيداً في ميدان الأعمال بسبب شعورها بالضيق من عدم ثقة الناس بها وبقدرتها. إن الطبقة العليا الحاكمة في مجتمعنا

الحالي وهي طبقة الرجال تستاء وتعارض مجيء القادمين الجدد من الطبقة الدنيا: فالبيض لا يذهبون مطلقاً لاستشارة طبيب زنجي كما أن الذكور لا يلجأون إلى استشارة الطبيبة وبصورة عامة لا يحب الرجال أو النساء الوقوع تحت سلطة امرأة؛ كما أن رؤساءها في العمل ينظرون إليها نظرة الاستخفاف حتى ولو كانت ذات مقدرة وكفاءة نادرتين. يجب على المرأة أن تحصل دائماً على ثقة الآخرين الذين لا يمنحونها إياها في البدء، بل يقولون لها يجب عليك أن تثبتي كفاءتك؛ إلا أن مركب النقص المتولد من عدم الثقة يعكس لديها ردود فعل غريبة تعرقل توازنها في عملها وتجعلها تبالغ في إظهار سطوتها وقوتها كما تفعل النساء الطسات.

هنالك فئة من النساء لا تنطبق عليها هذه الملاحظات لأن مهنتهن لا تتعارض مطلقاً مع أنوثتهن بل تساهم على العكس في تقويتها كالممثلات والراقصات والمغنيات وقد بقين خلال ثلاثة قرون حاملات لواء الاستقلال والتحرر في وسط مجتمع معاد، ولا زلن حتى الآن يشغلن مكاناً ممتازاً. إن الفائدة الكبرى التي تتمتع بها هذه الفئة من النساء هي أن نجاحاتهم المهنية تساهم - كها هي الحال لدى الذكور - في تقييم مزاياهن الجنسية، فالممثلة مثلاً لا تعاني الحيرة من جراء الاتجاهات المضادة المتناقضة التي وجدناها في حياة المرأة العادية بل تجد في مهنتها على العكس من ذلك تبريراً لحبها لنفسها لأن الزينة والجاذبية تشكل جزءاً من واجبها المهنى.

إلا أن هذه الامتيازات النادرة تخفي وراءها عثرات وفخاخاً: فعوضاً عن أن تدمج المرأة مسراتها النرسيسية في حياتها الفنية تجنح في أغلب الأحيان إلى الانغماس في المسرات وتقديس نفسها وجمالها، وهذا يحد من كفاءتها كفنانة لأنها تكتفي حينئذ بتأثير مظهرها الخارجي. وتعتقد أن مجرد كونها هي هي، كافي لإبرازه وأنه لا حاجة لبذل أي جهد جدي. فتتابع في حياتها الخاصة مساوئ النرسيسية وتبدو مزهوة بنفسها مفرطة الحساسية، عمثلة تعتبر العالم كله مسرحاً وهي بطلته.

لم تعد الفنون التعبيرية في يومنا هذا المجال الوحيد المفتوح أمام المرأة للحصول على استقلالها وحريتها. فعدد كبير من النساء يحاولن التوجه نحو مجالات أخرى خلاقة كالأدب والفن. إن المرأة تعيش على هامش عالم الذكور ولا تتحسس به في شكله العام

الشامل إلا من خلال زاوية خاصة، فهو لا يبدو لها مجموعة من الوسائل والمفاهيم وإنها مصدراً للتأثرات والانفعالات؛ متبينة وضعية السلبية والرفض، فلا تجرأ المرأة على الاندفاع نحو العالم الحقيقي بل تكتفي بالاحتجاج عليه.

إنها تنشد من خلال الطبيعة صورة روحها وتستلم إلى الأحلام محاولة أن تصل إلى نفسها وأن تكتشف شخصيتها وهي لا تستطيع أن تحقق كل ذلك إلا ضمن نطاق عالم الخيال ولذلك تشعر بالحاجة إلى التعبير عن نفسها فنراها تلجأ إلى الأحاديث الطويلة ومحاولة الكتابة وتحرير المذكرات الخاصة.

لكن الشروط نفسها التي توجه المرأة نحو المهن الخلاقة تشكل أمامها عوائق يصعب عليها في أغلب الأحيان تخطيها فهي إذا قررت الانصراف إلى الكتابة والرسم لإملاء فراغ حياتها، تنعت حينئذ محاولاتها الأدبية ولوحاتها الفنية به "إنتاج النساء" وهذا يعني أنه إنتاج متوسط لا يبلغ مطلقاً مراحل الإبداع والواقع أن المرأة تنصرف إلى الريشة والقلم في فترة سن اليأس لتعويض الفراغ الحاصل في حياتها. لكن الأوان يكون قد فات، فلا تصبح حينئذ سوى هاوية في فنها لا محترفة، وحتى لو تيسر لها أن تبدأ حياتها الفنية أو الأدبية وهي شابة، من النادر أن تعتبر فنها عملاً جدياً؛ وكما تعودت في صغرها على الخداع والتزييف والمداهنة فإنها تفعل نفس الشيء في حياتها الفنية فتكتفي بالمظهر الخادع وتهمل المحتوى الإبداعي الخلاق.

من الطبيعي جداً أن تسعى المرأة للخلاص من هذا العالم الذي لا يفهمها ويتجاهلها لكنه مما يدعو للأسف أنه لا تجد في نفسها الجرأة للتعبير عن شخصيتها كي يفعل الرجال الكبار أمثال «إدكار آلان بو». وهنالك أسباب عديدة تبرر هذا التصرف لأن إثارة الإعجاب تحتل مركز الثقل في حياتها وينتابها الخوف دائماً من أن يكف الرجال عن الإعجاب بها كامرأة إذا انصرفت إلى الكتابة. إن الكاتب الحقيقي يتصف بقول الصدق بصراحة تقرب من الفضائح في بعض الأحيان، والجديد يعتبر دائماً مثاراً لقلق وتخوف الناس ولذلك فإن المرأة التي لا تزال مندهشة مزهوة بقبولها في عالم الفكر والفن الذي هو عالم الرجال، تبقى خجلة منكمشة على نفسها لا تجرأ على ابتكار شيء جديد وكأنها تود الحصول على الغفران بسبب اقتحامها ميدان الفن بتواضعها.

إن الفن والأداب والفلسفة هي محاولات لإقامة العالم على دعائم الحرية الإنسانية، الحرية المنافقة في مجالات الحرية المبدعة الحلاقة، ولا شك أنه من الواجب على من يدعي المساهمة في مجالات الحرية المبدعة الحلاقة، ولا شك أنه من وطأة العادات والتقاليد والثقافة ومن المعترف به الإبداع أن يحرر نفسه قبل كل شيء من وطأة العادات والتقاليد والثقافة ومن المعترف به أن القيود التي تفرضها التربية والعادات على المرأة تحد كثيراً من قدرتها الإبداعية.

لا شك أن الفتاة تخرج لوحدها في هذه الأيام وتسافر وتتنزه منفردة في أي مكان يروق لها لكني أوضحت من قبل كيف يكون الشارع عدائياً لها، ففي كل مكان ترمقها العيون وتنتظرها الأيادي، وسواء تهادت في مشيها أم أسرعت الخطى أم أشعلت لفافة تبغ على سطح أحد المقاهي أو ذهبت إلى السينها فإنها بحاجة إلى الظهور بمظهر الحذر لكى يحترمها الناس.

كل شيء يدعها إلى الاستسلام لسيطرة الآخرين وبصورة خاصة في ميدان الحب. إلا أنه يحدث أن يلعب الفشل في هذا الميدان دوراً هاماً في حياة المرأة: فانعزال أميلي برونتي هذا الذي أتاح لها كتابة قصة عظيمة عميقة لأنها لم تكن تنتظر المساعدة إلا من نفسها أمام الطبيعة والقدر. وروزا لوكمسبرغ كانت قبيحة لدرجة لم يكن هنالك ما يدفعها على عبادة نفسها فتصبح فريسة للرجال، ولذلك نبغت منذ حداثتها وكانت على الدوام روحاً ومشعلاً للحرية.

إن الرجال الذين ندعوهم الكبار، هم هؤلاء الذين حملوا على أكتافهم بطريقة أو بأخرى ثقل العالم واستطاعوا أن ينجحوا في ذلك، الأمر الذي لم تفعله أية امرأة في وقت من الأوقات. ولكي ينظر الإنسان إلى العالم كأنه عالمه، ولكي يستطيع أن يجد في نفسه الكفاءة لتحمل مغبة أعماله وأخطائه ومنجزاته، يجب أن يكون منتمياً إلى طبقة أصحاب الامتياز، إلى طبقة هؤلاء الذين يمسكون زمام القيادة لوحدهم: الرجال. لقد تجسد الإنسان حتى الآن في صورة الرجل لا في شكل المرأة، ومن المعروف أن هؤلاء الأشخاص الذين يبدون لنا كمثل أعلى والذين نسميهم العباقرة، هم هؤلاء أنفسهم الذين حاولوا أن يلعبوا بواسطة حياتهم الخاصة مصير الإنسانية جمعاء. هل كان بإمكان فان غوغ، أن يولد امرأة? وهل كان بإمكان هذه المرأة أن تُرسَل في بعثة إلى بلاد «البوريناج» تشعر ببؤس وشقاء الإنسان وكأنها جريمة ارتكبتها بنفسها؟ وهل كان

بوسعها أن ترسم هذه اللوحات العبقرية الرائعة؟ لا أعتقد أنه كان بوسعها أن تفعل ما فعله «فان غوغ»، وهذا دون الأخذ بعين الاعتبار طراز حياة الفنان الخاص وانعزاله وتردده على المقاهي والمحلات العمومية، كل هذه الأشياء التي كانت تغذي فن فان غوغ التي لا يمكن للمرأة أن تقدم عليها.

مرة أخرى، نعود للقول بأن ضعف المرأة لا يعود إلى أسباب فطرية في طبيعتها، وإنها إلى حالتها العامة التي يفرضها عليها المجتمع منذ حداثتها حتى أواخر أيامها. وكل ما يقال عن أنها لا تتمتع بالفكر الخلاق المبدع، ينبع من خيال أعداء تحرر المرأة.

لقد بدأت تباشير ولادة المرأة الحرة تلوح في الأفق، وسيكون بوسعها حين تحصل على حريتها التامة أن تثبت بأنها لا تقل قدرة وإبداعاً عن الرجال.

وقد لا يكون أكيداً ما يقال بأن «عالم أفكارها» سيختلف عن عالم أفكار الرجال، لأنها تتمثل بهم حين تحاول الحصول على حريتها؛ لكنه أصبح من المؤكد أن المجتمع كبح جماح إمكانياتها حتى الآن وضيع على الإنسانية نتائج عبقريتها ونبوغها، ولا شك أن الوقت قد حان، في سبيل صالحها وصالح المجموعة البشرية، لكي نمنحها حريتها لتجرب حظها في الحياة.

فهرس

9	المقدمة
	الجزء الأول، مصير المرأة
17	الفصل الأول: مبادئ علم الحياة
23	الفصل الثاني: ماذا يقول علم النفس التحليلي؟
25	الفصل الثالث: نظرية المادية التاريخية
31	الفصل الرابع: نظرة تاريخية
55	الفصل الخامس: صورة المرأة
	الجزء الثاني، مراحل تكوين الر
	الفصل الأول: الطفولة
85	الفصل الثاني: الفتاة المراهقة
105	لفصل الثالث: التدرب الجنسي
115	الفصل الرابع: السحاق
	الجزء الثالث، أوضاع المرأة
121	الفصا الأول: المرأة المتزوجة
165	الفصل الثاني: الأم
187	الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية
193	الفصل الرابع: مو مسات ومحظيات
203	الفصا الخامس: من النضوح إلى الشيخوخة
215	الفصل السادس: وضع المرأة وطبائعها
	الجزء الرابع، تبريرات
223	الفصل الأمل عاشقة ذاتما
225	الفصل الثاني: العاشقة
229	الفصل الثالث: المتصوفة
	الجزء الخامس، نحو تحرر المرأة
233	الفصل الأول: المرأة المتحررة
247	الفهرس

Simone de Beauvoir

The Second Sex

تسعى المرأة جاهدة في هذه الأيام للقضاء على أسطورة أنوثتها. فقد أخذت توطد دعائم استقلالها بالنسبة للرجل لكنها مع ذلك لم تستطع التوصل إلى التمتع بكامل كيانها الخاص كإنسان بشري مستقل إلا بعد عناء شديد.

إن المرأة تنشأ وتترعرع وسط عالم تحف به مظاهر الأنوثة من كل جانب، في عالم نسوي يكون مصيرها فيه الزواج من رجل تربطها به عملياً صلة التبعية. ذلك أن سحر الرجولة لا يزال محافظاً على تأثيره الكبير لدى النساء وما انفك يستند على قواعد وأسس اقتصادية واجتماعية راسخة.

من الضروري إذن والحالة هذه أن ندرس بعناية المصير التقليدي للمرأة. كيف تتلقى شروط حياتها الجديدة، كيف تتمرس عليها وفي أي عالم تجد نفسها حبيسة، وما هي وسائل هرويها وعزوفها عنه... هذا ما سأحاول وصفه. وسيكون في وسعنا بعد ذلك أن نتفهم المشاكل المطروحة أمام المرأة، هذه الإنسانة المناضلة التي ترزخ تحت عبء وراثة ماض ثقيل ضخم محاولة دون كلل أو ملل أن تشق لنفسها طريقاً جديداً يحررهاً من عبوديتها.

إن هذا الكتاب لا يرمي إلى سرد حقائق أزلية ثابتة ، وإنما يحصر هدفه في وصف المحتوى المشترك الذي ترتكز عليه كل حياة نسوية خاصة.



